الطيب البكوش

الخليج
بين الهيمنة والإرتزاق



نشر وتوزيع مؤسسات ع. الكريم بن عبد الله

الاهداء

الى كل مناضل صادق

مؤسسات ع. الكريم بن عبد الله
تونس

كلمة الناشر

تضع مؤسستنا بين ايدي القاريء الكريم سلسلة جديدة تحمل عنوان " سلسلة حرب الخليج ".
ولقد عملنا في هذه السلسلة على مراعاة تطلعات القاريء التونسي ، والقراء العرب عموما، في مزيد المعرفة والاطلاع على خفايا ومخلفات الاحداث التي يعيشونها ، وخاصة منها تلك التي تمس كيانهم ومشاعرهم ومصالحهم مباشرة . وحرب الخليج التي دارت رحاها في بداية هذه السنة هي بدون شك اهم هذه الاحداث في تاريخ العرب المعاصر .
وسعيا من مؤسستنا الى إيلاء هذا الموضوع ما يستحقه من عناية ودراسة ، بموضوعية وعمق وتأنّ، بعيدا عن التشخيص والتسرع في الاحكام، فقد دعونا نخبة من المفكرين العرب ، من ذوي الاختصاص ومن المشهود لهم بالكفاءة والنزاهة والعلم للقيام بهذه الدراسات ، فجاءت كتاباتهم حافلة بالمعلومات الدقيقة وبالتحاليل الرصينة العميقة ، فأصدرنا هذه الكتابات في سلسلة ، يمثل الكتاب الذي بين ايديكم جزءا منها، مستقلا بذاته.

وهي تتضمن ستة كتب يتناول كل واحد منها بالدرس جانبا من مختلف جوانب ازمة الخليج :

– فالاستاذ برهان غليون ، المفكر السوري، صاحب كتاب " اغتيال العقل "، كتب تحليلا سياسيا راقيا عن " ما بعد الخليج او عصر المواجهات الكبرى ".

–والاستاذ الطيب البكوش ، الجامعي والنقابي المعروف ، حلّل بدقة عاملي الهيمنة والارتزاق في الخليج .

– اما الاستاذ محمد محفوظ الجامعي والمحامي ، فقد أحاط بعين رجل القانون المحنك ، بكل المعطيات القانونية للحرب .

– كما ان الاستاذين الجامعيين التونسي عزام محجوب والفلسطيني محمد النحال ، المختصين في العلوم الاقتصادية ، قد حلّلا بطريقة نقديّة علمية اسباب ازمة الخليج ومخلفاتها الاقتصادية في المنطقة وفي العالم .

– وقدم المفكر التونسي الاستاذ عياض الودرني دراسة ضافية عن مخلفات حرب الخليج على الرأي العام العربي اجتماعيا وثقافيا وتأثيراتها على خطاب المثقفين .

– وجمع الصحافي التونسي ، الاستاذ سفيان بن حميدة جملة من الوثائق النادرة المتصلة بحرب الخليج ، هي بمثابة مرجع تاريخي هام .

رجاؤنا ان نكون قد وفقنا في افادة القاريء وإنارته .

والى سلسلة جديدة .

الناشر

توطئـــة

عندما عرض علينا الناشر مشروع هذا الكتاب كان العدوان جوّاً على العراق في أوجه ولم يكن العدوان برّاً قد بدأ بعد . فلم نتردد كثيرا في القبول لأسباب أهمها :

1 – أن الاهتمام بأزمة الخليج قد أخذ من مشاغلنا حيّزا رئيسيا طغى على مشاغلنا في البحث الجامعي في مجالات الاختصاص ، وذلك لشعورنا العميق بأن أمتنا تمرّ اليوم بأخطر محنة من بين عديد المحن التي عرفتها وبأن أزمة الخليج مهما كان مآلها سيكون لها أعمق الأثر على مستقبل الأمة العربية إن بالسلب أو بالإيجاب .

2 – أن ما حفّ بهذه الأزمة من تناقضات ومن أكاذيب ومن إعلام مكثف الى حدّ الإرهاق ، مزيّف إلى حدّ الإعجاز ، يجعل رفض الكذب والثورة على التوجيه بالمغالطة والمناورة واجب كل مثقف يتحمل

مسؤولياته الوطنية والقومية .
3 – لئن لم نكن نشك في المآل فإن انتهاء المعارك بدون حرب برية حقيقية لم يخل من المفاجأة بسرعته . وكنا نعتقد أن الإيهام بانتهاء المعارك سوف يخفي تواصل العدوان على العراق وعلى الأمة العربية بشكل أخبث وأنكى من العدوان المسلح المكشوف .

لذلك شعرنا بالحاجة إلى ترتيب ذلك الحشد من الأخبار المتضاربة والمعلومات المتناقضة والتأمل في المشاهد المعروضة على شاشة مختلف القنوات التي تجرح مشاعرنا والتمعن من الأقوال المنبعثة من عديد الإذاعات التي تصك آذاننا ليلا نهارا ، فضلا عما نقرأ من أخبار وتعاليق في مختلف الصحف المحلية والأجنبية . ويجب الاعتراف أن الترتيب والغربلة والنقد ليست دائما عملا ميسورا . لكننا سعينا قدر الامكان إلى تجاوز العواطف الذاتية وقراءة الأحداث بأكثر ما يمكن من الموضوعية بحثا عن الحقيقة في غابة من المغالطات والأكاذيب . فهذا العمل هو إذا قراءة شخصية للأحداث ومحاولة لفهم الملابسات الحافة بمنطلقات الأزمة وتطورها ، ولتحديد المسؤوليات وفهم الأبعاد واستشفاف النتائج والآفاق .

فهي قراءة لما ترسّب لدينا من معلومات وأفكار مما شاهدنا وسمعنا وقرأنا ، لذلك لم نذكر في صلب النص مصدر كل خبر لأن المصادر متعددة ينقل بعضها عن بعض وعن وكالات أنباء عالمية . ولم نذكر المصدر إلا متى انفرد بالخبر أو التعليق كالتصريحات والإستجوابات .

ولكن للامانة نذكر أن مصادرنا الاساسية المقروءة كانت :

اليومية التونسية الصادرة بالعربية : " الصباح "
واليومية التونسية الصادرة بالفرنسية : " لابراس"
والاسبوعية التونسية الصادرة بالفرنسية والعربية : " حقائق "
والاسبوعية الصادرة بالفرنسية بباريس : " جون افريك"
والشهرية الصادرة بالفرنسية بباريس :" لوموند ديبلوماتيك " مع نسختها العربية الصادرة بتونس .

فهذه المصادر اطلعنا عليها بانتظام طيلة الأزمة عدا أعداد قليلة لم تصلنا منها .

لكننا اطلعنا أيضا على بعض الأعداد من صحف ومجلات أخرى لم نواكبها بانتظام مثل اليومية الفرنسية " لوموند " وغيرها .
ولم نتمكن من الحصول على بعض الكتب التي صدرت عن أزمة الخليج في المدة الأخيرة إلا بعد أن كدنا ننتهي من العمل وبعد أن طبع الجزء الأكبر منه فلم نستعملها .
ولقد أردنا أن يكون هذا العمل قريبا في أسلوب العرض من الملفات الصحفية التي تقع بين البحث الاكاديمي والمقال الصحفي حتى تكون قراءته ميسورة ولذلك أكثرنا من العناوين الفرعية التي تتخلل الفقرات وجمعناها في فهرس خاص بالمحاور والعناوين ليسهل الرجوع إليها في صلب النص .
ونريد في ختام هذه التوطئة التأكيد على أن هذا

العمل لئن سعى الى الموضوعية في تقدير الأحداث والمواقف والمسؤوليات ، فإنه اجتهاد في قراءتها ، وهو كذلك عمل نضالي نتحمل فيه مسؤولية تحديد موقف شخصي من الأزمة وملابساتها وأبعادها . ولسنا نرى تناقضا في الجمع بين العرض الموضوعي والموقف الشخصي ، لاعتقادنا أن خطورة هذه الأزمة وتعقد منطلقاتها وتشابك المسؤوليات فيها وعمق آثار نتائجها تجعل من واجب المثقفين العرب تعميق التفكير فيها لإنارة الرأي العام العربي حتى لا تختلط عليه السبل ولا تشتبه الأمور وحتى يلمّ بجوهر القضية كي لا تلفّه القشور فتعميه عن تبين الأبعاد المتحكمة في مصير الأمة العربية وحتى يدرك بنفسه سبل الخلاص .

ط . ب

I

من درع العرب الى درع الصحراء

تقديم

قبل أن تندلع أزمة الخليج .و تستفحل ،عرف العالم خلال سنة 1990 احداثا هامة حبلى بالعناصر والعلامات الدالة على أن العالم يعيش في نهاية هذا القرن فترة تحول عميقة ومخاض ينبيء بميلاد قرن جديد يتميز بأنه في نفس الوقت فاتحة ألف من السنين جديدة . فكأنما هذه الدورة من الزمان تجرف في حركتها من الأحداث ما يجعل أوضاع البشر تتحرك في اتجاه التغيير الذي يسجل دخول العالم مرحلة جديدة من حياته وعلاقات شعوبه، وموازين قواه وتفاعل المصالح فيه . ولعل أهم الأحداث التي عرفتها السنة المنقضية هي "الزلزال" الذي هز أقطار أوربا الشرقية بما فيها الاتحاد السفياتي ، فأحدث رجة هائلة في العالم بأسره مازالت امواجها تتعاقب ولن يقرّ لها قرار في أمد قصير لأنها أشبه ما تكون بالقنبلة العنقودية التي تتتالى انفجارات شظاياها إلى أن تستنزف طاقاتها .

وقد كان من النتائج الاولية لهذه الزلازل انهيار صرح الشيوعية وانحلال رباط الكتلة الشرقية بفك عرى حلف فرصوفيا ، وتحطيم جدار برلين فتوحيد شطري ألمانيا بعد قرابة نصف القرن من تقسيمها . ومازال الاتحاد السوفياتي بالخصوص يمر بفترة من الاضطرابات والهزات ليس من السهل التنبؤ بمداها

ومآلها . لكن الثابت أنه يفقد شيئا فشيئا صفة الدولة العظمى ويتخلى بوضوح عن دور الريادة ومنزلة القوة المضادة الرادعة .

ورغم ما اثاره هذا الاختلال المفاجىء من تخوّف على التوازن الدولي فان انتهاء ما يسمّى " بالحرب الباردة " قد بعث في الناس آمالا جديدة في أن العالم سيدخل بفضل التقارب والتعاون بين أعداء الماضي فترة استقرار وأمن وسلام تسمح بحل المشاكل التي كانت الحرب الباردة سببا في استعصاء حلها ، وتسهّل على منظمة الأمم المتحدة الإضطلاع بدورها الطبيعي في إقرار السلام والأمن بين الشعوب خصوصا أن الدول الكبرى بدت وكأنها مقتنعة أكثر من ذي قبل بالحدّ من التسلّح الذي يستنزف من الثروات ما يكفي لتأمين الحياة الكريمة لجميع البشر .

بيد أن الأحداث ما فتئت تكشف أن التقارب لم يكن قائما على خيار بقدر ما كان مردّه اختلالا في التوازن الدولي لصالح إحدى القوتين العظميين وهي الولايات المتحدة الامريكية ، مما يجعل الوضع الدولي الجديد وضعا مغشوشا لأنه قائم على الاختلال ويجعل الآمال التي بنيت على هذا الأساس أقرب الى الأوهام .

فمنذ سنوات ليست بالبعيدة كانت منظمة الأمم المتحدة وجميع المنظمات التابعة لها وخاصة منظمة العمل الدولية واليونسكو وحتى الفاو هدفا لانتقاد الإدارة الامريكية اللاذع وموضع اتهام بالتسيّس المفرط ، وعرضة للعقاب إما بالانسحاب والمقاطعة أو بعدم الإيفاء بالالتزامات المالية تجاهها .

لكن الامور بدأت تنقلب رأسا على عقب في ضوء المتغيرات الجديدة ، فاذا بمجلس الأمن الذي شلّته أمريكا بحق النقض مرارا وتكرارا ينقلب أداة طيعة في يدها لا لإقرار السلام والعدل وإنما لشن الحرب ومعالجة أزمة الخليج بالشكل الذي تريده .
إن أزمة الخليج تمثل إذا بالنسبة إلى العالم الصدمة الكبرى الأولى بعد آنتهاء الحرب الباردة وتكشف الخلل الكبير الذي يعرفه العالم اليوم .
لذلك فإن معرفة الملابسات التي حفّت بها وتطوّر أحداثها ومختلف المواقف منها وتحليل أهم أبعادها ،كل ذلك يساعد لا على فهم خفايا هذه الأزمة الخطيرة فحسب وإنما يساعد كذلك على فهم حقيقة الأوضاع الدولية وربما آتجاه تطوّرها .

الخليج

لقد أصبحت منطقة الخليج من أهم مناطق العالم وأشدها حساسية منذ أن تم اكتشاف النفط فيها في أواخر القرن الماضي ، فأضحت المنطقة في تلك الفترة تخضع للنفوذ البريطاني الذي خلف فيها الامبراطورية العثمانية .
وبعد الحرب العالمية الثانية وإنشاء دولة اسرائيل سنة 1948 في قلب الأمة العربية وبعد فشل العدوان الثلاثي على مصر إثر تأميم عبد الناصر لقناة السويس أخذت الولايات المتحدة الامريكية شيئا فشيئا تحل محلّ بريطانيا في المنطقة التي لم ينسحب منها الاستعمار البريطاني إلاّ بعد أن جزّأها وفصّلها إلى دويلات وإمارات أشبه ما تكون

بدويلات ملوك الطوائف .
وهكذا كان زرع إسرائيل في الأرض العربية على حساب شعب فلسطين وإنشاء دويلات نفطية ذات ثراء فاحش مقابل الفقر والكثافة السكانية في جلّ الأقطار الغربية الأخرى ، من العوامل الأساسية التي جعلت منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة منطقة قابلة للانفجار واشتعال النيران فيها باستمرار خصوصا ان بريطانيا بعد أفول نجمها كقوة عظمى ، لم تنسحب الاّ بعد أن سلمت المشعل لربيبتها أمريكا ، القوة الامبريالية الصاعدة منذ الحرب العالمية الثانية .
ويكاد يكون من البديهي أن مشاكل المنطقة الخليجية لا تنفصل عن مشاكل الشرق الأوسط اجمالا لشدة الترابط والتفاعل بينها . وقد بينت الأزمة الأخيرة ذلك بشكل لم يسبق له مثيل وكشفت أن مصائب المنطقة إنما هي من تدبير بريطانيا ثم أمريكا بعون بعض الصنائع من أبناء الجهة .
فلقد دأبت امريكا على مراقبة المنطقة عن كثب وهيأت نفسها منذ مدة للطوارئ ، التي كانت تتمثل في الخطر الشيوعي أول الأمر .
لكن منذ 1973 واستعمال العرب لأول مرة سلاح النفط في صراعهم مع إسرائيل وحماتها ، بدأ التخطيط في أمريكا للسيطرة على المنطقة بشكل لن يسمح بتكرار حظر البترول ، خصوصا أن خطر إفلات سلاح النفط من يد الغرب يرجع الى أربعة عقود خلت منذ عهد مصدق في إيران (1951) ، مرورا بمحاولات منظمة الأوبيب منذ 1960 التحكم في هذه الثروة الهامة .

فهدف الهيمنة على منطقة الخليج هو الذي يفسر قيام حلف بغداد الذي انهار بسقوط الملكية في العراق سنة 1958 .
ولئن انشغلت أمريكا بحرب فيتنام في الستينات ، فانها لم تفتر عن التخطيط لضمان دوام البقاء لها في الخليج الذي تعتبره الإدارة الأمريكية " منطقة حيوية لبقاء أوروبا الغربية والشرق الأقصى وأخيرا الولايات المتحدة " وقد زاد في تقوية هذا الأعتقاد ، بالإضافة إلى حظر 1973 ، سقوط حليف كبير لأمريكا وهو شاه إيران سنة 1979 .
ومن أبرز مظاهر هذه الخطة بعث الإدارة الأمريكية في عهد كارتر قيادة مركزية خاصة بالمنطقة تمتد مسؤوليتها الإستراتيجية من مصر إلى باكستان .
ولكن أمام تخوّف جميع الدول المعنية من استقبال قيادتها في أرضها عمدت الإدارة الأمريكية إلى تركيزها مؤقتا في فلوريدا الأمريكية ، والإكتفاء باجراء تدريبات عسكرية في الأرض العربية بعد أن تم الإسراع بإنشاء قوة الإنتشار السريع التي تضم زهاء نصف مليون جندي وهي القوة التي انتشر جزء منها في الخليج سنة 1987 في أعقاب الحرب العراقية الإيرانية ، وهذا الجزء كان بمثابة الإمتداد للقيادة المركزية الأمريكية في فلوريدا التي فتحت سنة 1981 مركز تدريب في صحراء كاليفورنيا لإعداد الجنود للحرب في الخليج بما في ذلك التدريب على الوقاية من الأسلحة الكيمياوية . كما وقع استعمال الليزر في هذه التدريبات . وفي هذه الحرب الوهمية التدريبية ، خسر الفريق الامريكي معركتين على ثلاث .

وها إن أزمة الخليج الأخيرة ، قد مكّنت أمريكا من تجاوز نشر الجزء إلى نشر الكل وتكثيف الحظور العسكري بدون أن يشعر أحد بالحرج السابق وبدون أن يستطيع نظام من الأنظمة الحدّ منه أو التصدي له أو التمكّن من التخلّص منه . فهو أشبه اليوم بالكابوس الجاثم على صدر الوطن العربي . فما هي الملابسات التي حفت باندلاع أزمة الخليج الاخيرة ؟

" درع العرب " في أعقاب الحرب مع إيران

لقد توقفت الحرب بين العراق وإيران في 8 – 8 – 88 مخلّفة للعراق فاتورتين ضخمتين . الأولى ديون بحوالي 80 مليار دولار والثانية إعادة بناء يقدرها العراق بما لا يقل عن 50 مليار دولار ، هذا فضلا عن مئات الآلاف من الضحايا خلفوا أرامل وأيتاما وعيد .

هذا القطر العربي الذي يعدّ حوالي 17 مليون نسمة تمثل عائدات البترول حوالي 96٪ من مداخيله من العملة ، وهو يستورد حوالي 80٪ من مواده الغذائية مما يجعله مفتقرا الى الأمن الغذائي قوي الارتباط بالخارج توريدا وتصديرا . فالعراق يشكو بعد الحرب وضعا اقتصاديا واجتماعيا صعبا . ولعلّ أهم كسب من هذه الحرب مع إيران هو جيش قويّ عددا وعدة تدرّب سنين طويلة على القتال بجميع فنونه بأسلحة متنوعة متطورة نسبيا . وإن المحافظة على هذا الجيش الذي يضم قرابة المليون من

الجنود تكلّف العراق ميزانية عسكرية مرتفعة لم يكن وضعه الإقتصادي يسمح بتواصلها إن بقي على حاله . لذلك حرص العراق على تجاوز هذه الصعاب بمساعدة البلدان الخليجية وخاصة الكويت والسعودية خصوصا أنه يعتبر نفسه درعا للعرب ولهذه البلدان خاصة يقيها من الخطر الخميني ، ويعتبر أنه دفع في سبيل ذلك من دماء أبناء العراق الكثير إذ بلغ عدد الضحايا قرابة نصف المليون عراقي . لكن العراق لم يجد بعد الحرب من هذه البلدان السند الذي يرغب فيه إذا استثنينا قبول السعودية إلغاء الديون التي لها عليه . أما الكويت فقد تمسكت بدينها وطالبت العراق بتسديده ورفضت مطالبه الأخرى ، وبذلك انطلقت الأزمة .

الخلاف العراقي الكويتي

أصبح الخلاف العراقي الكويتي رسميا منذ أن طرحه العراق في إطار الجامعة العربية ، فقد بعث بمذكرة الى الجامعة بتاريخ 15-7 - 90 يشكو فيها الكويت ويوجه إليها التهم التالية : ·

- سرقة ما قيمته 4ر2 مليار دولار من نفط الرميلة الواقعة على الحدود بين البلدين . ويتهم النظام الكويتي باغتنام فرصة الحرب مع إيران للتوسع على حساب العراق ولتكثيف ضخ النفط من حقول الرميلة الحدودية . لذلك يطالب بتعويض عن هذا المبلغ .
- رفع الكويت الحصة المتفق عليها في إطار " الاوبيب " لإغراق السوق العالمية بالنفط وتخفيض

أسعاره بشكل يضرّ بمصالح العراق ويخدم مصالح أعدائه وأعداء العرب .

ويطالب العراق بالإضافة إلى ذلك بما يلي :

- إلغاء ديون الكويت عليه ومقدارها 4 مليار دولار . فالعراق يعتبر أنه قد حمى الكويت من الغزو الإيراني وأن هذا المقداز يجب أن يعتبر مساهمة مالية في درء الخطر الإيراني عن العرب . كما طالب بمساعدة إضافية مقدارها 10 مليارات من الدولارات .

ولما كان العراق يعتبر الكويت منفذه الطبيعي إلى البحر حرمه منه الاستعمار البريطاني بالقوة لخنقه ، فقد طلب من السلطة الكويتية تمكينه من منفذ على البحر على الامل في شكل كراء جزيرتي بوبيان ووربة لمدة 99 عاما .

وقد رفضت الكويت جميع مطالب العراق ، وكان آخر وسيط في الغرض ياسر عرفات في أواخر شهر جويلية 1990 . ورأى العراق في أجوبة بعض المسؤولين الكويتيين استفزازا غير مقبول إذ ينسب الى أحد وزرائهم قوله لأحد القادة العرب إن ما يطلبه العراق يمثل أموالا طائلة قد يكون اغتيال صدام حسين يكلفنا أقل منها بكثير .

وقد عقد مجلس الوزراء الكويتي يوم 18 – 7 – 90 آخر اجتماع له قبل الإجتياح ، وكان جدول أعماله الرد على المذكرة العراقية الموجهة الى الجامعة العربية . وتبيّن خلاصة المناقشات أن الرأي السائد هو أن العراق يريد الإبتزاز وتحميل غيره مسؤولية إفلاسه ، وان مطالبه تعلّة لشيء آخر أخطر ، لكن لا أحد تعرض إلى احتمال الإجتياح .

ولقد طرح كثيز من الملاحظين السؤال التالي :

هل الخلاف بين العراق والكويت قد فرض نفسه على صدام حسين أم إنه قد افتعله ليتخذ منه تعلّة لاجتياح الكويت الذي يذهب البعض الى أن الرئيس العراقي قد يكون قرّره منذ ماي 1990 وبدأ يعد له كما فعل مع إيران سنة 1980 ؟

والذين يذهبون هذا المذهب يعتبرون أن صدام حسين الذي يتميّز بطموح شديد يرغب في أن يكون القائد الذي يحقق حلم كل عراقي بإرجاع الكويت إلى أصلها كنافذة طبيعية له على البحر . هذا بالإضافة إلى أن ضم الكويت يعني مضاعفة الإمكانيات النفطية التي تبلغ بذلك خمس المدخرات العالمية .

وينسب هؤلاء الملاحظون إلى صدام حسين الطموح إلى زعامة العالم العربي ويعتبرون أن حربه مع إيران إنما كانت تهدف الى ذلك وهو ما يفسّر في نظرهم اعتبار نفسه " درع العرب " ضد الثورة الإيرانية .

وفي ضوء هذه التقديرات يفسرون جميع المبادرات التي قام بها العراق ومنها حرصه على إعادة مقر الجامعة العربية إلى القاهرة ومساندته لمنظمة التحرير الفلسطينية وللنظام الاردني وتدخله في لبنان وحرصه على تكوين قوة عسكرية رادعة لاسرائيل الخ . لكن قرائن أخرى تدفع إلى الإعتقاد أن قرار اجتياح الكويت لم يكن مبيّتا وإنما جاء كردّ فعل عاطفي علي ما اعتبره العراق استفزازا من الكويت ومسّا بكرامته بعد فشل المفاوضات والمساعي الصلحية .

ملابسات القطيعة

يمكن أن نرجع ملابسات القطيعة إلى مجموعتين هامتين من المعطيات التي تختلط فيها الأحداث والمواقف والظنون وسوء التفاهم بشكل معقد يجعل الحقيقة يكتنفها الكثير من الغموض والضباب ، نحاول فيما يلي تفكيك مختلف دواليبها عسانا نخرج ببعض النتائج التي تفسر على الأقل الأسباب العميقة لاندلاع هذه الأزمة التي تمثل إحدى أخطر أزمات العالم بعد الحرب العالمية الثانية .

المجموعة الاولى من المعطيات تتعلق بظروف الاتصالات والمفاوضات حول الخلاف العراقي الكويتي . وقد تسارعت الأحداث بشكل يجعلها تبدو كأنها سباق مع الساعة لدرء كارثة قريبة .

فقد اجتمعت منظمة البلدان النفطية (اوبيب) في جينيف يومي 26 و27 - 7 - 90 وتمت في هذا الاجتماع الاستجابة جزئيا الى مطلب العراق وذلك برفع سعر البرميل الى 21 دولارا . فكل دولار زائد يمثل بالنسبة الى العراق دخلا إضافيا بمليار دولار . ولهذا يمكن اعتبار نتائج هذا الإجتماع مرضية نسبيّا .

أما الاتصالات العربية لحلّ الخلاف في القضايا الثنائية فانها لم تحقق عمليا نفس النتائج . فعلى إثر الإجتماع الذي انعقد بالقاهرة يوم 23 - 7-90 وضم الرئيس المصري مبارك والملك الاردني حسين ووزير خارجية العراق طارق عزيز ، تحوّل الرئيس

المصري من الغد الى كل من بغداد والكويت ثم أعلن بعد محادثاته مع قادة البلدين عن اجتماع جدة الذي تقرر ليوم 31- 7 – 90 ، ولكنه فشل نتيجة تصلب الطرف الكويتي كما تدل على ذلك مختلف القرائن . فقد سبق أن رأينا أن آخر اجتماع لمجلس وزراء الكويت لم يقدم أي تنازل للعراق . ولكن الأهم من ذلك أن الوفد الكويتي الذي تحوّل الى جدة كانت لديه تعليمات بعدم التنازل إطلاقا كما يبين ذلك من وثيقة بخط أمير الكويت نشرتها بعض الصحف . ومن الهام أن نعرف محتواها لفهم تطوّر الأحداث . فعلى هامش الرسالة التي بعث بها الملك فهد إلى الكويت للإعلام رسميا بترحيبه بعقد هذا اللقاء في جدة ، كتب الأمير جابر قبل إحالتها إلى ولي عهده الملاحظات التالية التي نوردها كما هي حرفيا :

" نحضر الاجتماع بنفس شروطنا المتفق عليها الأهم بالنسبة لنا مصالحنا الوطنية وما ستسمعونه من السعوديين والعراقيين عن الاخوة والتضامن العربي فلا تصغوا اليه فكل واحد منهم له مصالحه السعوديون يريدون إضعافنا واستغلال تنازلنا للعراقيين لكي نتنازل لهم مستقبلا عن المنطقة المقسومة والعراقيين يريدون تعويض حربهم من حساباتنا لا هذا يحصل ولا ذاك وهو رأي أصدقائنا في مصر وواشنطن ولندن أكدوا في مناقشاتكم نحن أقوى ممّا يتصورون تمنياتي بالتوفيق "

الامضاء .

هذا الكلام في غنى عن كل تعليق لأنه يفسر أسباب تصلب الكويتيين وفشل اجتماع جدة الذي قال فيه رئيس الوفد الكويتي لنظيره العراقي : لا

تهددوها فلنا أصدقاء أقوياء وهم لنا حلفاء وسوف تجبرون قريبا على دفع ديونكم لنا ".
وتذكر بعض المصادر أن الرئيس المصري الذي زار بغداد يوم 26-7-90 أي في اليوم الموالي للقاء السفيرة الامريكية بالرئيس العراقي ، وسمع منه ما دار من حديث قد اتصل بالكويتيين وطمأنهم بأن العراق لن يهاجم الكويت . ولم يذكر لهم أن ذلك رهين نجاح المفاوضات كما يؤكد الطرف العراقي لجميع مخاطبيه . وقد تكون تلك الطمأنة من عوامل تصلب الوفد الكويتي في اجتماع جدة . وإذ ربط هذا الخبر بإشارة الأمير جابر الى موقف مصر، يثير كثيرا من التساؤل عن خفايا الموقف المصري ومسؤوليات القيادة المصرية في استفحال الأزمة .
فاذا أضفنا هذه المجموعة الأولى من المعطيات إلى مجموعة أخرى من المعطيات المتشابكة المعقدة كانت صورة ملابسات الأزمة أوضح . أهم هذه المعطيات تتعلق بموقف الغرب وخاصة أمريكا من العراق في الفترة الفاصلة بين انتهاء الحرب مع إيران واجتياح الكويت .

المؤامرة الفخ

لقد أصبح العراق يعتقد بأن الغرب قد انقلب عليه بمجرد انتهاء حربه مع إيران وأنه أصبح يتآمر عليه بمساعدة بعض الأنظمة العربية ومن أهم المعطيات في هذا الشأن ما يلي :
بدأ الغرب يشن على العراق حملة إعلامية تتصاعد يوما بعد يوم . فقد تذكر الغرب أن للعراق أسلحة

كيمياوية كان قد استعملها في أعقاب حربه مع إيران ولا سيما ضد الأكراد سنة 1988 . وتذكّر الغرب أن النظام العراقي نظام دكتاتوري لا يقيم وزنا لحقوق الانسان . كما تذكّر أن للعراق برنامجا نوويا سعى جاهدا إلى تحقيقه منذ سنين . وقد بات واضحا أن الغرب يرفض أن يبلغ بلد عربي هذا المستوى من التسلّح الذي يجب ان يبقى حكراً على إسرائيل وحدها في المنطقة . لذلك هددت أمريكا بتدمير مصنع الرابطة الليبي بدعوى أنه مصنع للأسلحة الكيمياوية وندّد بوش بالبرنامج النووي العراقي الذي سبق لإسرائيل أن بادرت بتعطيله وذلك عندما عمدت إلى شن غارة جوية مفاجئة سنة 1981 على العراق فدمرت مفاعله النووي تموز الذي انشيء بمساعدة فرنسية . ولم يندد الغرب بهذا العدوان كما لم يثر قضية امتلاك اسرائيل للأسلحة الكيمياوية والنووية . وواصل الغرب سكوته عن رفض إسرائيل لأي مراقبة دولية للحدّ من انتشار الأسلحة النووية . وفي هذه الفترة ما انفكت إسرائيل ترسل الوفود إلى أمريكا للتشكي من الخطر العراقي ولا سيما منذ بداية 1990 وتتهم العراق بالإعداد للحرب ضدها وتقدم كحجج على ذلك حرصه على اكتساب السلاح النووي ومطالبته بسحب السفن الحربية الأمريكية من الخليج وتدعي أنه يحث العرب على استعمال سلاح النفط وتحث أمريكا على التعجيل " بضربة وقائية أولى " ضد العراق .

وقد بلغت هذه الحملة الإعلامية المناهضة أوجها بعدما أكد صدام حسين امتلاكه للسلاح الكيمياوي

المزدوج وهدد باستعماله ضد اسرائيل وتدمير نصفها إذا هاجمته . ومن الواضح أن الرئيس العراقي قد أراد بهذا التصريح الوقائي ردع إسرائيل حتى لا تكرر عدوانها عليه . لكن الضجة الاعلامية الغربية قد تناست عدوان اسرائيل على العراق وتغافلت عن الصبغة الدفاعية الوقائية لكلام صدام حسين وشنت حملة شعواء على العراق ورئيسه . ومن نماذج هذه الحملة المنظمة نشر مجلة " لوبوان " الفرنسية يوم 9- 4 - 90 على غلافها صورة مخيفة لصدام مع هذا العنوان المرعب : " الرجل الذي يريد تدمير اسرائيل " .

ولم يكن الهدف من هذه الحملة المنظمة الا إعداد الرأي العام الغربي والعالمي للعدوان مرة أخرى على العراق ، وقد تزامنت هذه الحملة الإعلامية مع مضايقات اقتصادية تمثلت بالخصوص في إخضاع المواد المبيعة الى العراق لمراقبة شديدة وحجز الديوانة لبعض المواد والتشهير بكل ما يعتبر أنه يصلح لتطوير الأجهزة العسكرية في العراق . ومن أشهر هذه القضايا المفتعلة ، قضية الأعمدة وقضية ما سمّي " المدفع العملاق " التي كانت سببا في اغتيال المخابرات الإسرائيلية (الموساد) المهندس الكندي جيرالد بول في 7/ 1990 في بروكسيل لأنه عمل لصالح العراق بعدما عمل من قبل لصالح إسرائيل باعتباره تاجرا في سوق حرة .

وبالإضافة إلى هذه المضايقات الإعلامية والتجارية ، راجت إشاعات كثيرة عن احتمال اغتيال صدام حسين . وقد سبق أن رأينا أن مسؤولا كويتيا لمّح الى ذلك . كما أكد دريس البصري في تصريح لجون

افريك عـــ1550ـــدد (12 / 18 -9-90) ان المخابرات الامريكية (س .إ.ي) اتصلت ببعض الفلسطينيين المناهضين للعراق قصد ضبط خطة تهدف الى اغتيال صدام . ودفعت لهم مبلغ 4 ملايين من الدولارات . ويؤكد أن للعراق حججا دامغة على ذلك وأن الأمر قد انكشف قبل اجتياح الكويت بأسابيع . لكن ما قد يلفت الإنتباه هو أن الغرب لم يوقف رغم ذلك تعامله الإقتصادي مع العراق .

فبريطانيا التي برعت في افتعال الضجات وقضايا الحجز ضد العراق قد سمحت لبنك ميدلاند بمنح بغداد قرضا قيمته 250 مليون جنيه استرليني لدعم الصادرات البريطانية إلى العراق . وفرنسا وقّعت بعد ذلك مع العراق عقدا ببيع 60 طائرة ميراج و200 دبابة آ.م.ايكس . وفي أوائل 1990 زار العراق وزير التعاون الفرنسي آنذاك بيار شوفانمان . ومجّد صدام حسين ووصفه بأنه " قائد شجاع ، شامل الرؤية بعيد النظر ".

أما أمريكا فإنها قد وافقت قبيل اجتياح الكويت على بيع العراق نظما الكترونية متطوّرة جداً رغم أن تقارير المخابرات تؤكد حسب جلّ الملاحظين أن العراق يستعد للهجوم على الكويت وأنه قد جمّع على الحدود مائة ألف جندي و300دبابة و300 مدفع ثقيل .

كما تذكر مصادر عديدة أن الإدارة الأمريكية كانت تتوقع هجوما عراقيا على الكويت ، ومع ذلك ادّعى بوش أن معلومات المخابرات لم تصله . كما أن دجون كيلي نائب كاتب الدولة للخارجية الامريكية قد دعا يوم 31- 7- 90 أمام الكنغرس الى التفاهم مع صدام

حسين وعدم تضخيم القضية الكويتية لأننا كما قال " قد اجتنبنا دوما إتخاذ موقف من مسائل الحدود ".
ومما يزيد في غرابة هذا الكلام أن نفس المسؤول كان قبل ثلاثة أشهر يحاول إقناع جيمس بيكر ، وزير الخارجية بإقرار عقوبات اقتصادية ضد العراق ، لأن الاعتراض على هذه العقوبات كان صادرا عن وزارتي الفلاحة والتجارة ولأن الخارجية الأمريكية كانت تعتبر تهديدات صدام حسين مجرد علامات انفعال .
وفي نفس هذه الفترة تقريبا ، وبالتحديد يوم 13 - 5 - 1990 ، استقبل الرئيس العراقي وفدا يضم خمسة شيوخ من الكنغرس الامريكي أغدقوا عليه عبارات الإطراء ووعدوه بإقصاء العناصر المعادية له في إذاعة صوت أمريكا . بل إن أحدهم قال له " مشكلتكم سيدي الرئيس مع صحافتنا المتعجرفة المدلّلة كثيرا . ولكن ليس لكم أي مشكل مع الشعب الامريكي ".
وهكذا يتبين أن الحوار والتعاون بين الغرب والعراق قد تواصلا رغم الحملة المضادة مما جعل القيادة العراقية لا تفهم سرّ هذا التناقض وتسعى لفك ألغازه أو على الأقل لتوضيح موقفها حتى تكون أمريكا على بينة من الأمر . ولعل هذا ما دفع بالرئيس العراقي إلى التحادث مطولا، مع السفيرة الأمريكية ببغداد . وهو حديث هام جداً لفهم ملابسات الأزمة ولا بدّ من الوقوف عند محاوره الأساسية .

حوار صدام حسين مع سفيرة امريكا

في يوم 25 – 7 – 1990 أي قبل الإجتياح بأسبوع . استقدم صدام حسين السفيرة الأمريكية آبريل قلاسبي وأجرى معها محادثة نشرتها العراق بعد أقل من شهر فلم تطعن الإدارة الأمريكية في صحتها كما أن السفيرة لازمت حولها الصمت التام .

وقد تولى الرئيس العراقي تذكيرها بانقطاع العلاقات بين البلدين من 1967 إلي 1984 ، وبسوء التفاهم الذي ساد هذه العلاقات وعبر عن رغبته في تحسّنها رغم فضيحة " ايران قايت " التي صادفت احتلال إيران مدينة الفاو . وفي هذا الصدد أشار إلى أنه لاحظ تغيّرا سلبيا في موقف أمريكا من العراق اثر استرجاع مدينة الفاو من الإيرانيين ، كما لاحظ أيضا اهتماما متزايدا بقضية خلافته في حكم العراق . وعبّر عن اعتقاده في وجود تحريض امريكي لإمارات الخليج على وقف دعمها للعراق ومسعى لزرع الخوف من العراق فيها .

ثم ذكّر بان العراق قد خرج من حربه مع ايران. بديون قيمتها 40مليار دولار بدون احتساب المساعدات العربية المسجلة كديون في الوقت الذي يحتاج فيه العراق الى دعم شبيه بمخطط مارشال الذي وضع لدعم أوروبا بعد انتهاء الحرب مع المانيا والمحور .

كما ذكّر بسياسة تخفيض سعر البترول وبالحملة الغربية عليه وعلى بلده وآعتبر أن ذلك يمثل في نظره دليلا على بدء حرب جديدة ضد العراق . وقال

في هذا الصدد للسفيرة " إذا كانت الحرب تقتل بإراقة الدماء ، فإن الحرب الإقتصادية تقتل إنسانية الإنسان بحرمانه من إمكانية الحياة الكريمة " وأكد تمسك الشعب العراقي بحقه في حياة كريمة .

ولم يخف اعتقاده أن الامارات الخليجية قد أصبحت أدوات لسياسة معادية للعراق بعد أن كانت علاقاته بها طيبة .

وتعرض إلى توسع الكويت على حسابه ، مستغلة انشغاله بالحرب مع إيران . وبين أن العراق لم تلق الجزاء المناسب لما قام به من أجل إستقرار المنطقة برد الخطر الإيراني عنها . ولذلك اعتبر التصريحات الأمريكية حول ما أسمته حماية الأصدقاء في المنطقة موجهة ضد العراق ومتضمنة تشجيعا على مضايقته . وعبّر للسفيرة عن استغرابه من تحريض أمريكا لجيرانه عليه ونصح أمريكا بالزيادة في الأصدقاء بدل الإكثار من الأعداء . ولم يخل حديثه من التهديد حين أشار إلى أن تواصل الضغط على العراق وتهديده سيحمله على الرد بالمثل . وقال في هذا الصدد : نحن نعلم أن أمريكا تستطيع أن تأتي إلى العراق بطائراتها وصواريخها . ولكن لا تجبرونا على الوصول الى درجة عدم الاكتراث بذلك إذا شعرنا أنكم تريدون إهانتنا . وعلق على التصريحات الإسرائيلية الملتهبة الملوّحة بقرب اندلاع الحرب بقوله للسفيرة نحن لا نحب الحرب فقد جربناها . لكن لا تجبرونا على اعتبارها السبيل الوحيدة إلى الكرامة . وأكد أن العراق الذي يعتبر نفسه مهدداً لن يتردد في الدفاع عن نفسه . وشدّد على أن مشاكل العرب تحل بين العرب طالبا من

أمريكا تجنب تغذية الخلافات والعدول عن تحيّزها إلى اسرائيل رغم أنها معتدية وعاب في هذا الصدد على أمريكا قطع المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية . وذكر في آخر كلامه أنه نبّه الأكراد سنة 1974 إلى أنه مستعد للتخلي لإيران عن نصف شط العرب الذي تطالب به إذا كان ذلك ثمنا لوحدة العراق [وهذا ما تم فعلا بعد سنة في نطاق اتفاق الجزائر] ولاحظ للسفيرة أنه مستعد مرة أخرى لذلك اذا كان ثمنا لكرامة العراق [وهو ما تم فعلا بعيد اندلاع أزمة الخليج] .

وقد عبرت السفيرة عن الرغبة في تحسّن العلاقات وأكدت أن ذلك يمثل إرادة الرئيس الامريكي جورج بوش . فعقّب ساخرا : لكن كلما طلبنا شراء شيء من أمريكا قيل لنا إنه ممنوع ، فلم تبق إلا الفرينة ونخشى أن يقال لنا يوما إنها بدورها يمكن ان تصبح بارودا للمدافع . فنفت السفيرة وجود أي نية لدى بوش بشن حرب اقتصادية على العراق . بيد أنها لاحظت أن أمريكا تريد فقط أن لا تشتعل أسعار النفط . وأبدت في هذا الصدد تفهما لرغبة الع·· في رفع سعر البرميل الى 25دولارا لتحسين مداخيله وإعادة تعمير بلاده بعد الحرب وأكبرت جهود العراق الخارقة للعادة ثم أردفت " لكن الشيء الذي لا رأى لنا فيه هو خلافاتكم العربية مثل خلافكم الحدودي مع الكويت . لكننا قلقون من حشد قواتكم على الحدود وأود معرفة نواياكم ". فأجابها بأنه يتفهم هذا القلق ولكنه لا يريد أن يكون في ذلك تشجيع للكويت على الاضرار بالعراق " لان صبرنا قد نفد منهم " وأكّد في هذا الصدد ما سبق له ان

صرح به منذ أشهر من أن العراق " لن يهاجم أحدا وليس له نوايا عدوانية " ولكنه لن يقبل عدوان أحد عليه .

وذكر للسفيرة أن اجتماع وزراء النفط في جدة توصل الى حلّ لكن تصريحات الوزير الكويتي بعد ذلك كانت مناقضة تماما . وذكر أيضا أنه شخصيا طرح الموضوع في قمة بغداد ، ومع ذلك تواصلت المواقف السلبية . وعندما سألته عن نتائج المساعي العربية لتطويق الخلاف أكد لها أن السعودية بادرت بذلك وأن الرئيس المصري أعلمه بالهاتف منذ لحظات أن الكويت موافقة ، ثم عبر عن أمله في أن يؤول اللقاء المزمع عقده في جدة [يوم 31 - 7 - 1990] ثم في بغداد إلى نتائج مرضية بجعل الكويتيين يتجاوزون بخلهم وذكر لها أنه طمأن مبارك بعدم القيام بأي عمل ضد الكويت قبل اللقاءات المذكورة . أما إذا فشلت المفاوضات فإن العراق سيضطر إلى الدفاع عن نفسه .

ومما تجدر ملاحظته هو أن السفيرة غادرت بعد ذلك بغداد ولم ترجع إليها دون أن تعوّض .

رسالة بوش الى صدّام

لقد أوردت صحيفة أمريكية تأكيدا لبعض المسؤولين في الإدارة الأمريكية بأن الرئيس بوش بعث رسالة إلى صدام حسين يوم 28 - 7 -1990 أي بعد ثلاثة أيام من هذه المقابلة الهامة . وقد يكون ورد فيها حسب ما ذكرته الصحيفة " أن اللجوء إلى القوة لحل النزاع بين الكويت وبغداد غير مقبول "

وعبر عن أمله في " تحسين العلاقات بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية ". وقد اعتبر الملاحظون أن هذا الغموض والاعتدال في اللهجة في الوقت الذي كانت فيه القوات العراقية محتشدة على الحدود كان بمثابة التشجيع غير المباشر في حين أن الموقف كان يتطلب لهجة أحزم بشكل يردع عن الهجوم . ولم تعلق الإدارة الأمريكية على هذه الأحكام والأخبار .

فاذا أضفنا كل هذا إلى ما سبق من تناقضات في المواقف الغربية تجاه العراق تبين لنا أن المؤامرة الأمريكية تتخذ شكل الفخ المنصوب . بل أنه توجد عدة مؤشرات أخرى تدعم هذا الرأي نذكر منها بالخصوص ما يلي :

- تكليف الجنرال شوارزكوف منذ أواسط 1990 بإعداد الخطط لمجابهة هجوم عراقي محتمل على منابع النفط .

- تصريح الناطقة باسم بيكر وزير الخارجية الأمريكية بأن أمريكا " ليست ملزمة بمساعدة الكويت إذا هوجم ".

- تصريح السفيرة ابريل قلاسبي بعد أن تم اجتياح الكويت بقولها " لم أكن أعتقد ان العراق سيستولي على الكويت كلها " فكأن الإدارة الأمريكية كانت تتوقع إكتفاء العراق بالمناطق التي يطالب بها.

- عدم قيام الادارة الامريكية باي مبادرة جدية رغم تقارير المخابرات . والغريب أن هذا الغموض لم يخل منه موقف الاتحاد السفياتي الذي تتواجد مخابراته العسكرية بكثافة في العراق . وتؤكد بعض المصادر

أنها كانت تعلم بالإجتياح قبل عدة أيام . ومع ذلك نفى وزير خارجيته آنذاك شيفرنادزه وجود نية الهجوم لدى العراق خلال مقابلته مع نظيره الأمريكي في 1 -8 -90 بسيبيريا . ولما تم الهجوم من الغد قال له " لقد كنت مخطئا " . وهكذا فإن الإدعاء بأن واشنطن قد فاجأتها العملية لا يقنع أحداً ، اللهم الا اذا تمثلت المفاجأة في السرعة والشمول .

فهل أقدم صدام حسين على أجتياح الكويت وهو يتوقع رد الفعل الأمريكي بنفس الشكل الذي حصل؟

أغلب الظن أنه لم يكن يتوقع ذلك كما يستشف من جوابه للرئيس السوفياتي غورباتشوف عن طريق سعدون حمادي ، عندما لامه على مغامرته في الكويت :" لقد جمعنا قواتنا على الحدود مدة شهر كامل وهددنا بالاجتياح ولم تحذرنا أمريكا ولو مرة واحدة ". لذلك ذهب البعض الى الاعتقاد بأن صدام حسين كان يظن أنه بضم الكويت يصبح أقوى وأن أمريكا ستتعامل معه عند ذلك كطرف أهم . ويتضح مما سبق أن الرئيس العراقي كان واعيا بوجود مؤامرة تحاك ضده ولكن يبدو أنه لم يتفطن إلى أن دفعه إلى الهجوم على الكويت هو الذي يمثل محور المؤامرة والفخ الذي دفع إلى الوقوع فيه عندما أمر قواته ليلة 2 اوت باجتياح الكويت في بضع ساعات.

ان كثيرا من المعطيات التي ذكرنا تؤكد أن عناصر المؤامرة التي كانت تستهدف العراق ترتكز أساسا على:

- تحريض حكام الخليج لمضايقة العراق اقتصاديا .
- تنظيم حملة إعلامية ضد صدام حسين لتشويهه وإعداد الرأي العام لضربه .

- إيهام العراق بحياد امريكا .

وليس من الصدفة أن تنشر المخابرات الأمريكية في شكل تسريب تقريرا يبين كيف أن ضم الكويت يمكن العراق من السيطرة على وسائل الضغط السياسية والعسكرية لفرض إرادته وسياسته النفطية على السعودية وجميع منطقة الخليج مما يشكل خطرا على الغرب الذي يستهلك أكبر نسبة من النفط (فالعالم يستهلك بين 50 و60 مليون برميل يوميا) .

إن تسريب هذا التقرير مباشرة بعد اندلاع الأزمة باجتياح الكويت لا يهدف الا إلى التحريض على العدوان على العراق لكسر شوكته قبل أن يستفحل أمره .

ومع ذلك فإن الأمور لم تكن بعد الاجتياح بمثل هذا الوضوح وهذه البساطة اذ دخلت الأزمة منعرجا خطيرا زادها تعقيدا وتشابكا بتتالي الأحداث وتسارع نسق تعاقبها خلال الأشهر الستة الفاصلة بين اجتياح الكويت والعدوان على العراق .

II

من " درع الصحراء "
الى
" عاصفة الصحراء "

آجتياح الكويت وردود الفعل الاولى

تميزت عملية اجتياح العراق للكويت بالسرعة الخاطفة اذ تم كل شيء تقريبا في أربع ساعات ليلة 2 – 8 – 1990 .

والغريب أنه رغم تأزم العلاقات وتوقع التصعيد من جانب العراق بحكم تصلّب الموقف الكويتي ، فان جلّ الضباط الكويتيين كانوا في إجازة بالخارج . أما من كان منهم بالكويت فانه قد ترك زيّه الرسمي في الثكنة . وتدل كثير من المؤشرات على أن الكويتيين لم يكونوا يصدّقون أن العراق سيقدم على اجتياح كامل الكويت . ولعل هذا ما يفسّر أن الشيخ سعد ولي العهد الكويتي عاد الى فراشه حين أعلموه بدخول القوات العراقية الكويت ، فقد كان يعتقد أن الأمر لن يتجاوز المنطقة الحدودية . ويبدو أن الذين أبدوا بعض المقاومة هم التلامذة الضباط الذين حاولوا عبثا تعطيل تقدم المصفحات العراقية .

وقد تساءل بعض الملاحظين عن الظروف التي حفت بتهريب زهاء عشرين طائرة ميراج كويتية إلى

السعودية . لكن يبدو أنها قد حاولت بدورها التصدي ولكن تحطيم المطارات العسكرية قد أجبرها على الفرار إلى السعودية كما فعل جلّ المسؤولين الكويتيين بدءا بالأمير جابر الذي ذكرت بعض الصحف أنه استقل طائرة عمودية بينما تذكر مصادر كويتية أنه فرّ مع ولي العهد سعد في سيارتي مرسديس مصفحتين في إتجاه مدينة الخفجي الحدودية .

ويبدو أن وزارة الدفاع الكويتية قد احتلت قبل أن تتمكن من إصدار أي أمر بالتعبئة العامة . فقد كان همّ جميع الوزراء والمسؤولين الفرار إلى السعودية بأي شكل ممكن . فقد فرّ وزير الصحة مثلا في سيارة إسعاف مصفّحة . لكن بعض الذين لم يتمكنوا من ذلك وهم قلة قد قتلوا وهم يقاومون مثل فهد أخ الأمير جابر . كما فقد البعض الآخر من أفراد الأسرة الحاكمة .

وقد عقد مجلس الوزراء الكويتي اجتماعا من الغد 3 اوت 1990 تحت خيمة في التراب السعودي .

وقد ادعت بغداد أن الاجتياح تم استجابة لطلب " الحكومة الحرة المؤقتة بالكويت " هذه الحكومة التي لم تعمّر الا أربعة أيام ولم تصدر الا قرار المطالبة بالوحدة مع العراق .

وعندما علم الملك فهد بالاجتياح سارع بإيقاظ الملك الاردني حسين من نومه ورغب منه الاتصال بالرئيس العراقي ليطلب منه الاكتفاء بالمنطقة المتنازع عليها .

وقد بادر حكام الكويت بالاستنجاد بالقوات الامريكية وبرّر وزير الخارجية ذلك بقوله فيما بعد

" إني مستعد لقبول رفع العلم الامريكي على قصر دسمان [وهو قصر الامير بالكويت] قبل أن أراه يرفرف إن شاء الله على المباني الرسمية في بغداد .
وقد تمت دعوة مجلس الأمن إلى الانعقاد في نفس اليوم أي بعد ساعات من الاجتياح ليصدر أول قرار إدانة (القرار 660) بشبه إجماع (باستثناء اليمن وكوبا) . ومن الغد 3 - 8 - 1990 ، أصدر وزيرا خارجية الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في موسكو بلاغا مشتركا يتضمن حظرا عسكرياً على العراق .

إفشال أول محاولة حل في إطار عربي

بدأت المساعي العربية منذ الساعات الأولى لتطويق الأزمة ، وقام الملك الاردني بتحرك مكثف فاتصل بالرئيس العراقي صباحاً وعبّر له عن شعوره بالصدمة من ضخامة عملية الاجتياح ، فأجابه بان المؤامرة التي تحاك ضده لم تترك له خيارا غير المبادرة بالهجوم ووافق على استقبال الملك عشية نفس اليوم وقد خرج الملك من هذا اللقاء بانطباع إيجابي واعتقاد راسخ أنه بالإمكان حلّ المشكلة عربيا . فبادر بالاتصال بالرئيس المصري مبارك واقترح عليه قمة مضيقة في القاهرة أو الرياض صباح 4 - 8 - 1990 بشرط عدم صدور أي إدانة عربية للعراق في الأثناء . فوافق على ذلك ولكنه رفض الاتصال بصدام حسين بدعوى أنه خيب ظنه إذ أكد له أنه لن يهاجم الكويت فجعله ذلك يطمئن امريكا . لكن صدام حسين يؤكد أنّه وعد فعلا

بعدم مهاجمة الكويت قبل اللقاء الصلحي المقرر في جدة يوم 31 – 7 – 1990 .

وتحول الملك حسين في نفس اليوم الى الاسكندرية . وبينما كان مع مبارك يتحادثان اتصل الرئيس الامريكي بوش بمبارك من طائرته التي كانت تقله إلى كولورادو حيث سيلتقي بالوزيرالأول البريطاني ، مرغريت تاتشر ، وبعد دقائق من الحديث الهاتفي أحال السماعة إلى الملك حسين الذي واصل الحديث معه قرابة نصف الساعة وبدا له أنه أقنع بوش بالحلّ العربي .

وكان حسين قبل السفر إلى القاهرة قد كلف وزير خارجيته بالتحول الى الرياض ولكنه لم يتمكن من الحصول على جواب الا بعد لأي وكان الجواب رافضا لمقدمه . وعندما غادر حسين القاهرة في اتجاه بغداد طلب من الرئيس المصري الاتصال ببعض القادة العرب وخاصة فهد لتهدئة الجو قبل انعقاد القمة المتفق عليها . في ذلك الوقت بالذات ، كان وزراء الخارجية العرب ينتظرون في القاهرة مقدم الوفد العراقي الذي تأخر. وعندما وصل وتكلم رئيسه سعدون حمادي لم يقدم أي حلّ وانما تلا نصا يؤكد " ان الوضع في الكويت غير قابل للمفاوضة " فخاب ظن الحاضرين ولم يبق من أمل الا في اللقاء الذي كان يجمع في نفس الوقت الملك الاردني والرئيس العراقي في بغداد . وقد تواصلت مفاوضاتهما بين ليلة 2 – 8 – 90 وصباح الغد وأسفرت عن اتفاق يقضي بالانسحاب من الكويت بشرط فض الخلافات القائمة بين البلدين . وقد عبّر الرئيس العراقي عن رغبته في أن يتم التفاوض مع فهد لا مع آل الصباح

وفي هذا اللقاء هدّد صدام حسين بضمّ الكويت إذا ما صدرت عن الجامعة العربية إدانة . وبعد ساعات من ذلك أصدرت بغداد بلاغا تعلن فيه بدء الانسحاب يوم 5–8–1990 لكن بدون رجوع آل الصبّاح .

وفي الأثناء كان ياسر عرفات يتنقل بين العواصم العربية انطلاقا من تونس للبحث عن حلّ عربي .

وفي تلك الأثناء (3 – 8 – 90) ، كان بوش في أمريكا يرأس المجلس الوطني للأمن لدرس الحلول العسكرية . واتصل في ذلك الوقت بفهد لإقناعه بأن **المعلومات المتوفرة لديه تؤكد أن العراق يستعد** للهجوم على السعودية واقترح عليه إرسال قوات أمريكية لحمايتها فقبل الاقتراح رغم أن لقاء القمة العربية المضيقة لم يبق له الا يوم واحد .

وفي نفس الوقت كان دجون كيلي مساعد كاتب الدولة للخارجية الامريكية المكلف بالشرق الأوسط قد بعث برسالة شديدة اللهجة الى مصر يقول فيها: " ان الغرب قد قام بواجبه ولكن الدول العربية لا تفعل شيئا . فالولايات المتحدة قد باعت الأسلحة الى دول عربية وخاصة مصر . فاذا لم تقم بشيء ولم تتخذ موقفا صارما في قضية الكويت ، فلتعلم أنها لن تستطيع في المستقبل التعويل على أمريكا".

والغريب أن الخارجية الامريكية تنفي وجود هذه الرسالة في حين أن مسؤولا مصريا ذا مصداقية تامة كما تذكر بعض المصادر الصحفية يؤكد انه قد رآها بنفسه .

إن إنكار هذه الرسالة لا يمكن تفسيره الا بمحاولة إخفاء الضغوط الامريكية على مصر لتسهيل عملية إجهاض الحلول العربية . وبالفعل فان هذا التحذير

الامريكي الذي لم يكن للملك الاردني علم به عندما عاد إلى عمان من بغداد مطمئنا ، سيغيّر المعطيات . فقد وجد الملك الاردني صعوبة كبرى في الاتصال بالرئيس المصري ، وعندما تمكن من ذلك وابلغه نجاح مساعيه في بغداد ، لاحظ تغيّرا في لهجته ينم عن شك في جدوى الحلّ العربي . وبعد ساعة من ذلك أصدرت القاهرة بلاغا شديد اللهجة يدين اجتياج العراق للكويت ، فأسقط في يد الملك حسين وفهم أنها مؤامرة لتعطيل كل حل عربي بإجهاض مساعيه ، وأن الولايات المتحدة التي يعرفها ويعرف نواياها جيّدا تقف وراء المؤامرة .

بعد بلاغ القاهرة ، سارع مجلس وزراء الخارجية العرب في الجامعة العربية بإصدار بيان يدين العراق ويطالب بالانسحاب اللامشروط ، رغم أن ثلث أعضائه رفضوا التصويت ورغم أن القرارات لا تتخذ في الجامعة الا بالإجماع . والأقطار العربية الرافضة للتصويت طبقا لذلك هي : العراق والاردن واليمن والسودان وليبيا وجيبوتي وفلسطين .

وكان الوزير الليبي قد غاب عن القاعة قبيل عملية التصويت . ولم يكن يخفى على الوفود العربية المتواجدة في القاهرة أن مصر قد خضعت لضغوط أمريكية شديدة كامل ذلك اليوم 90.8.3. وبصدور قرار الإدانة لم يبق مبرر لانعقاد القمة المضيقة المبرمجة للغد .

ورغم أن بيان الجامعة العربية يدعو إلى عقد قمة عربية لدرس الوضع والبحث عن حل فإن ما صدر عن هذا الاجتماع قد قتل الأمل في الحل العربي لتطويق الأزمة . وكان هذا الفشل إيذانا بتدويل

الأزمة وتسليم مفاتيحها إلى امريكا .

ضمّ الكويت و "درع الصحراء "

كان ردّ فعل بغداد على الإدانات وفشل الوساطات والحلول الإقدام على ضم الكويت يوم 6. 1990.8 بدعوى الاستجابة لطلب الوحدة الذي تقدمت به "الحكومة الحرة المؤقتة بالكويت" وبناء على ذلك تمّ ضمّ جزء من الكويت الى محافظة البصرة واعتبار الجزء الباقي المقاطعة التاسعة عشرة من تراب العراق .

وفي نفس اليوم كان وزير الدفاع الامريكي ديك شيني يتقدّم وفدا امريكيا في السعودية . وقد قدّم في هذه الزيارة للملك فهد صورا التقطتها الأقمار الصناعية تبين حشد القوات العراقية على الحدود مما دعّم موافقة فهد السابقة على استقدام القوات الأمريكية وانتشارها في السعودية في نطاق العملية التي أطلق عليها آسم " درع الصحراء " . وتم في هذا اللقاء الاتفاق على تغطية هذه العملية عربيا بمشاركة عسكرية عربية . ولذلك تحول الوفد إلى مصر لإقناع مبارك بالمشاركة . ويبدو أنه وافق بشرط موافقة المغرب التي لها خبراء عسكريون في الخليج . ولعله لم يشأ أن تكون مصر البلد العربي الوحيد الذي يرسل قوات إلى السعودية إلى جانب القوات الأمريكية . فتحول الوفد من مصر إلى المغرب حيث لم يجد أول الأمر حماسا من الملك مما دفع بأحد أعضاء الوفد إلى القول بلهجة احتقار "

العرب لم يتعوّدوا مسك الثور من قرنيه وإنما يفضلون المساومة قبل التوصل إلى اتفاق ".
فالى جانب ما ينم عنه هذا القول من عنصرية وكراهية ، فانه يدل على رغبة في تنفيذ الخطة الامريكية بسرعة وكأن القضية بسيطة . فهم يريدون من العرب تلبية جميع رغباتهم والاّ كانوا عرضة لمثل هذه الملاحظات التحقيرية المجانية . لكن المهم أن مصر والمغرب ثم سوريا فيما بعد قد وافقت على تأمين التغطية العربية للخطة الامريكية وبذلك تعقدت الأمور أكثر .

بين صدام حسين والقائم بالأعمال الامريكي

يبدو أن صدام حسين قد فاجأه الردّ الامريكي المتصلب على اجتياح الكويت ولم يكن ليخفى عليه الدور الامريكي في إحباط المساعي التوفيقية العربية لذلك بادر يوم 6 اوت الى دعوة القائم بالأعمال الامريكي في بغداد جوزيف ولسن ليطلعه على الموقف العراقي وليواصل معه الحديث الذي بدأه مع السفيرة قبل أسبوعين على أساس تبرير عملية الاجتياح بعد أن كان الحديث السابق بمثابة التحذير والتنبيه الى ما سيحدث وقد حدث فعلا .
ويتبين من هذا الحديث أن الرئيس العراقي قد ركزه على محورين هما علاقات العراق بأجواره وعلاقاته بأمريكا .
ففيما يخص علاقة العراق بأجواره عبّر صدام

حسين عن استغرابه من الدعايات حول احتمال غزوه السعودية وتساءل : هل تريد امريكا بذلك حمل السعودية على القيام بأعمال تجبر العراق على ردّ الفعل حتى تتمكن امريكا من تحقيق أهدافها ؟
وبيّن لمخاطبه ان المقارنة بين السعودية والكويت لا مبرر لها مذكرا بالمعاهدة المبرمة بين العراق والسعودية وبأنه اقترح على الكويت معاهدة مماثلة لكن الكويت رفضت المقترح بنصح من دولة غربية قال إنها قد تكون بريطانيا . ثم أثنى على السعودية مؤكدا أن العلاقات الطيبة معها لا يمكن أن تفسد إلا بايعاز من امريكا : " لا مبرر لتخوفاتكم على السعودية . أما إذا كنتم تتظاهرون بذلك لترهيبهم فهذا أمر آخر ".
ونفى ما روّجه الرئيس المصري من أنه وعد بعدم الإقدام على أي عمل ضد الكويت في المطلق وإنما ربط وعده بنتائج لقاء جدة فلم يتحرك الا بعد فشل اللقاء .
كما ذكّر بمحاولاته مع الأمير جابر لضبط الحدود مؤكدا أن له وثائق تثبت ذلك وتقوم دليلا على تهرّب حاكم الكويت مما يوضح كما قال تورطه في المؤامرة ضد العراق .
ثم تساءل عما يمسّ مصالح أمريكيا في الكويت أو خارجها مذكّرا بأن العراق كان يبيع الولايات المتحدة ثلث إنتاجه النفطي قبل أن تقرر مقاطعته لأسباب سياسية لا اقتصادية . وحذّر أمريكا من الإقدام على محاربة العراق لأنها ستخسر كامل المنطقة . وبيّن أن تصرف أمريكا مع أصدقائها يسيء إليهم ونصحها باحترام شخصية البلدان الصديقة حتى تبقى صورة

هذه الأنظمة مقبولة لدى شعوبها .
ثم برّر تهديده لاسرائيل بأنه جاء إثر تهديد اسرائيلي موجه إلى العراق ، وان هدفه وقائي حتى لا يتكرر العدوان الاسرائيلي (تحطيم المفاعل النووي تموز سنة 1981) ، وعلى هذا الاساس فان تهديده يخدم السلام .
وعبّر في الختام عن رغبته في أن يفهم أين توجد مصالح أمريكا وكيف يتسنى حفظها وعن أمله في أن لا تذهب أمريكا بعيدا إلى حدّ يصعب تداركه .
ولاحظ فيما يخص سعر البترول الذي يهم أمريكا أنه قبل سعر25 دولارا للبرميل ولكنه مع ذلك ملتزم بقرار الاوبيب الذي حدد السعر ب 21 دولارا .
ويتضح من هذا الحديث الهام أن الرئيس العراقي مدّ يده إلى أمريكا وحاول إقناعها بمشروعية مواقفه ولكنه لم يجد منها غير التصلب والرفض . فهذه تاتشر تحثّ بوش على شن الحرب على العراق وتصرّح بأنه " لا تفاوض مع طاغية " أما بوش فإنه لم يترك فرصة تمرّ دون أن يغلق الباب في وجه كل حلّ مشرّف دافعا عجلة التصعيد من الجانبين .
ورغم ذلك فان أطرافا عربية عديدة لم تيأس وواصلت المساعي لتلافي الوضع فقد تحوّل ياسر عرفات مرة أخرى الى بغداد يوم 9 . 8 . 90 ليحاول من جديد إيجاد حلّ فسأله صدام حسين : " من خرّب الوساطة العربية الأولى ؟" .
ويجمع كثير من الملاحظين على أن مسؤولية الرئيس المصري في ذلك كبيرة نتيجة الضغط الامريكي الذي جعله يغيّر موقفه في آتجاه معاكس في وقت قصير جدا . وستظهر آثار هذا التحول في

الطريقة التي سير بها أشغال مجلس الجامعة العربية بالقاهرة .

القمة العربية

آنعقدت القمة العربية الخاصة بأزمة الخليج يوم 10 . 8 . 90 بالقاهرة وكان واضحا منذ البدء أن الغاية من عقدها لم تكن البحث عن حلّ وإنما كانت تغطية القرارات المتخذة من قبل وإضفاء صبغة شرعية عليها وهي القرارات المتعلقة بدعوة القوات الأجنبية بمشاركة عربية .

في هذا الاجتماع رفض رئيس الوفد العراقي التخلي عن مسدسه مما دفع بأمير الكويت إلى ارتداء صدرية واقية ثم سارع بالخروج من القاعة عندما اقترح أحد الوفود حلا يقضي بإجراء انتخابات حرة في الكويت . وكان ياسر عرفات قد حاول تقديم حلّ يعوّض الالحاق والضم بالرجوع الى الشرعية الشعبية وذلك بتنظيم استفتاء في الكويت . وقد يكون فكّر في أن شمول الاستفتاء لجميع المواطنين حتى الذين لا يتمتعون بالجنسية الكويتية من أبناء الكويت ومواليده وهم الاغلبية ، يكون لصالح الوحدة مع العراق .

أما الملك حسين فإنه ذهب الى حلّ يقوم على صيغة وحدة بين العراق والكويت تكون بمثابة الفيدرالية .

وقد رفض آل الصباح وجميع أنظمة الخليج هذه الحلول مما دفع إلى البحث عن حلول توفيقية أخرى مثل التنازلات الترابية التي سهّل التفكير فيها تقسيم العراق الكويت قسمين . فتمّ اقتراح منح

العراق جنوب الرميلة وبعض جزر شط العرب وخاصة بوبيان .

في هذا الجوّ المتوتر المتميز بغليان البحث عن حلّ ، جرت مداولات مجلس الجامعة الذي اتسم فيه تصرف مبارك بعصبية وحدّة واستبداد بالرأي أحرج كثيرا من الحاضرين ثم سارع بعرض مشروع لائحة جاهزة على التصويت وهي تتضمن تأييدا لموقف السعودية في استقدامها القوات الأجنبية ونشر القوات العربية .

وقد عارض هذه اللائحة كل من العراق وليبيا وفلسطين ، بينما عبّرت كل من الجزائر والسودان وموريطانيا عن احترازها .

أما تونس فإنها غابت عن الإجتماع لأنها طالبت بتأجيله قصد توفير الظروف الملائمة لإنجاحه بالمشاورات المسبّقة .

وقد وافق على اللائحة كل من مصر والسعودية والكويت ولبنان والمغرب وسوريا وعمان ودبي والبحرين وجيبوتي والصومال . ومن الغد 11. 8. 90 ، كان السفير السعودي بواشنطن بندر بن سلطان وهو من أشد المتحمسين للاستنجاد بالقوات الامريكية لمحاربة العراق ، أول من أعلن عن إرسال قوات مصرية وسورية ومغربية . وكانت الولايات المتحدة في الأثناء قد أقامت جسرا جويا نحو السعودية .

وقد ودعت الوحدات العسكرية الامريكية حشود هاتفة جمعتها للغرض الجمعيات الصهيونية التي لا حصر لها في أمريكا . وبعد أن حققت أمريكا الغطاء العربي لحملتها ، كثفت جهودها لتحقيق الغطاء

الأمني وإضفاء شرعية دولية على عدوانها على العراق .

الغطاء الأمني

إن ما يلفت الانتباه في هذا الصدد هو السرعة التي انعقد بها مجلس الأمن اذ أصدر اول قرار له (660) بعد ساعات من اجتياج الكويت يوم 2 .8 . 90 وهو ينص على الانسحاب الفوري اللامشروط لكل القوات العراقية من المواقع التي تحتلها في الكويت . وقد تم التصويت بالاجماع (14) باستثناء اليمن التي لم تشارك في التصويت .

وتدعو الفقرة الثالثة منه العراق والكويت " إلى البدء في الحال في مفاوضات مكثفة حول تسوية خلافاتهما . وهو "يؤيد جميع الجهود في هذا الصدد وخاصة تلك التي تبذلها الجامعة العربية ".

وقد بينت الأحداث أن الولايات المتحدة قد عملت على إفراغ هذه الفقرة من كل محتوى . وقد تتالت القرارات الصادرة عن مجلس الأمن بنسق سريع لم يسبق له مثيل .

– فقد أصدر المجلس يوم 6 .8 .90 القرار 661 المتعلق بالعقوبات الاقتصادية . وهو يدعو جميع الدول لمنع التصدير إلى العراق أو التوريد منه لمختلف المنتوجات وكذلك الكويت ، باستثناء المواد الطبية في حالات إنسانية صرف .

وقد وافق عليه 13 عضوا وأمسكت كوبا واليمن عن التصويت .

– ثم أصدر يوم 9 . 8 . 90 القرار 663 الذي ينص

على اعتبار ضم الكويت ليس له اي أساس قانوني مهما كانت دوافعه وأشكاله . وقد تم التصويت عليه بالإجماع .

– وعندما أعلن العراق حجزه للرعايا الأجانب اشتدت الحملة الإعلامية عليه واتهم باتخاذهم رهائن وبادر مجلس الأمن يوم 18أوت بإصدار القرار 664 الذي صودق عليه بالإجماع . وهو ينص على أن يسمح العراق فورا برحيل الأجانب وأن يمكّن الديبلوماسيين من الاتصال بهم . وسنعود الى قضية الرهائن بالتحليل فيما بعد.

– ورغم أنه لم يمرّ عشرون يوما على إصدار قرار المقاطعة الاقتصادية فان مجلس الأمن أصدر يوم 25 . 8 . 90 قرارا جديدا 665 يسمح للقوات البحرية المتحالفة ضد العراق بإيقاف جميع السفن التجارية لتفتيش حمولتها والتأكد من وجهتها وتطبيق العقوبات الاقتصادية على العراق بصرامة . وقد صودق عليه بإمساك اليمن وكوبا .

وهكذا تحوّلت المقاطعة الى حصار هو بمثابة شن الحرب ، وذلك دون أن يقدم أي تفسير لهذا التحول بعد أمد قصير لا يمكن فيه الحكم على نتائج المقاطعة. ومن المفيد أن نشير إلى أن أغلب الملاحظين في امريكا نفسها بما في ذلك أغلبية أعضاء الكنغرس كانوا يعتبرون أن العقوبات الاقتصادية مع الجهود الديبلوماسية تمثل التوجه الحكيم الذي يجب مواصلته لحمل العراق على مغادرة الكويت باعتباره أفضل من الحرب . ولعل ما دفع الى مثل هذه المقارنة وهذا الحكم هو الشعور السائد آنذاك بأن ضخامة الحضور العسكري الامريكي في

الخليج إنما يتجاوز بكثير ما تتطلبه حماية السعودية من عدوان محتمل عليها ، لكن لا شيء يرجحه .

وقد كانت الصحافة الامريكية تؤكد خلال الأسابيع الأولى ان للمقاطعة نتائج ملموسة . وقد أكد مدير المخابرات الامريكية (س .ا.ي) في أواخر 1990أمام الكنغرس أن المقاطعة ستعطي ثمارها في أجل يتراوح بين ثلاثة وستة أشهر ، لكنه تراجع بعد شهر واحد ليؤكد العكس .

ولقد أصبح واضحا أن القضية كما عبّر عنها يوم 10 . 12 . 90 الرئيس السابق لهيئة أركان القيادات العامة للجيوش و . كروو " ليست في معرفة مدى تأثير المقاطعة وإنما هي في مدى الصبر على انتظار نتائجه ".

وقد وضح القضية أكثر وزير الخارجية الأسبق هنري كيسنجر حين أكد في نفس الوقت " أن العقوبات يمكن أن تؤدّي بنا إلى مفاوضات ولكنها لن تسمح لنا ببلوغ أهدافنا ".

ويتبين من كل هذا أن التدرّج في صرامة القرارات إنما يهدف إلى إعداد الرأي العام في كل مرة الى إجراءات أقسى وأشد صرامة ضد العراق قد يصعب أتخاذها من الوهلة الأولى .

- وقد أراد مجلس الأمن استثناء الرعايا الأجانب من المقاطعة فأصدر القرار 666 يوم 14. 9 . 90 وهو يوكل إلي لجنة مراقبة العقوبات التابعة للامم المتحدة أمر إرسال المساعدات الغذائية إليهم باشراف الأمم المتحدة وبالتعاون مع الصليب الأحمر وما يماثله من المنظمات الإنسانية التي تتولى

عملية التوزيع والإشراف على إيصال المعونات الى مستحقيها .
وقد صيغ هذا القرار بشكل يجعل تطبيقه أمرا عسيرا لأنه يتجاهل تماما السلطات العراقية ، ويميز بين الاجانب والمواطنين العراقيين كما لو لم يكن في العراق أطفال ونساء وشيوخ ومرضى ، الخ .
وفي 16 . 9 . 90 ، أصدر مجلس الأمن القرار 667 الذي يندد بما اعتبره اعتداء على **السفارات في الكويت** بينما لم يعد العراق يعتبرها سفارات بعد ضم الكويت ، وقد صودق عليه بالإجماع .
وقد اتهم العراق بدخول المؤسسات الديبلوماسية عنوة بالكويت واختطاف شخصيات تتمتع بالحصانة الديبلوماسية وبعض الرعايا الأجانب المتواجدين داخل مقرات السفارات . ويطالب القرار العراق بضمان حماية المؤسسات الديبلوماسية ومن فيها وبتجنب القيام بالأعمال التي تمنع رجال السلك الديبلوماسي المتواجدين بها من الاضطلاع بمهامهم ومن بينها الاتصال برعاياهم وحماية مصالحهم .
وقد استغلت قضية السفارات الأجنبية في الكويت لشن حملة شعواء على العراق في الإعلام الغربي . وإذا كانت امريكا وبريطانيا قد تمسكتا بالاحتفاظ بسفارتيهما نكالة في قرار الضمّ فإن جلّ الدول فضلت غلق سفاراتها بالكويت . وقد فكرت امريكا في استغلال قضية السفارات واتخاذ تموينها تعلّة لشنّ هجوم خاطف على القوات العراقية في الكويت . لكن رحيل الفرنسيين ترك الامريكيين والبريطانيين وحدهم . كما أن عدم الوثوق من النتائج جعلهم يتخلون عن الفكرة .

- ونظرا إلى أن العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق قد أضرت بمصالح عديد البلدان فإن الأمم المتحدة قد أصدرت القرار 669 (90.9.24) الذي يكلف لجنة مراقبة العقوبات بمهمة تقديم التقارير المتعلقة بحجم الخسائر الاقتصادية التي لحقت ببعض البلدان نتيجة الحظر الاقتصادي . وفي الحقيقة فان الاهتمام لم يتركز الاّ على البلدان التي ساندت بدون تحفظ جميع قرارات مجلس الأمن وساندت بالخصوص نشر القوات الامريكية في الخليج . أما البلدان التي احترزت في ذلك فان مصالحها قد أهملت تماما إن لم تتعرض للعقوبات . ويكفي أن نذكر في هذا الصدد ، الأردن واليمن فضلا عن الشعب الفلسطيني الذي مسّه الضرر في هذه الأزمة الى حدّ كبير داخل الأراضي المحتلة أو خارجها كما في الكويت مثلا .

- ولم يكف تحويل المقاطعة الاقتصادية إلى حظر وحصار بحري بل أصدر مجلس الأمن قرارا تكميليا يزيد من صرامة الحظر ، وهو القرار 670 (90.9.25) الذي نص على أن القرار السابق (661) يطبق على جميع وسائل النقل بما في ذلك الطائرات ويطلب من جميع الدول منع إقلاع الطائرات المتجهة إلى العراق أو الكويت من أرضها . ولا يستثني إلا المواد الغذائية المسموح بها لأسباب إنسانية وبعض الأدوية .

لكن في التطبيق كثيرا ما شمل الحظر هذه المواد كما حدث مع باخرة السلام التي أبحرت من المغرب العربي في اتجاه الخليج واعترضتها البحرية الامريكية ومنعتها بالقوة من مواصلة سيرها وتم

فيها تعنيف النساء والاعتداء عليهن بوحشية .
– وبعد قرابة الشهر أصدر المجلس القرار 671 (90.10.29) الذي يدعو الدول إلى جمع المعلومات عن تجاوزات العراق وتقديم مطالبها الخاصة **بالتعويضات** . وينص على أنه إذا لم يلتزم العراق بجميع القرارات فانه يتعين على المجلس اتخاذ اجراءات جديدة لتطبيق ميثاق الأمم المتحدة .
– وبعد شهر آخر ، أصدر المجلس القرار 677 (90.11.26) الذي يندد فيه بمبادرات العراق الرامية **إلى تغيير الوضع الديمغرافي الكويتي** . وقد صودق عليه بالإجماع .
وهكذا تهيأت بهذا التصعيد التدريجي في العقاب ، الظروف الملائمة لإصدار القرار الأخطر وهو القرار 678 (90.11.29) الذي يسمح للتحالف ضد العراق باستعمال جميع الوسائل الضرورية لتطبيق القرارات السابقة اذا لم يحترمها العراق في أجل لا يتجاوز 1991.1.15 وقد عارضت هذا القرار اليمن وكوبا وأمسكت الصين عن التصويت .
ورغم خطورة هذا القرار فإن أيّا من الأعضاء القارين الخمسة لم يعترض عليه . فهو يسمح باستخدام القوة والعدوان على العراق .
هذا القرار هو بمثابة الإنذار قبل شنّ الحرب . وقد اعتبره كثير من أهل الذكر خرقا لميثاق الأمم المتحدة ، ذلك أن البند 27.3 من الميثاق يشترط في مثل هذه القرارت الخطيرة " تصويتا بالإيجاب من 9 أعضاء من ضمنهم الأعضاء الخمسة القارون ". لكن إمساك الصين لم يمنع من اعتبار القرار نافذ المفعول .
وقد كشف هذا القرار النوايا الحقيقية للادارة

الامريكية ووضّح أن جميع الإجراءات السابقة إنما كانت تمويها وإعدادا تدريجيا للرأي العام الامريكي والدولي لتقبل الحرب .

ورغم أن الحصار الاقتصادي قد حرم العراق بشهادة الكثيرين بما في ذلك المخابرات الامريكية ذاتها ، من مجموع صادراته تقريبا ومن 90% من وارداته الى حدّ الاختناق ، فإن امريكا لم تستطع مزيد الصبر وعملت على سدّ جميع المنافذ التي يمكن أن توصل إلى حلّ سلمي يخرج العراق من الأزمة موفور الكرامة . وهذا ما عبّر عنه صدام حسين مرارا بوعي تام مؤكدا أنه لم يترك له من خيار سوى الاستسلام أو الحرب . وإن قبول الرأي العام لاحتمال الحرإ انما يدل على أنه اغترّ **بشرعية امية تحددها امريكا** كما يدل على أن جلّ الدول قد تعودت المواقف السلبية خلال الحرب الباردة التي كانت الدول العظمى تقرر فيها مصير الحرب والسلام .

إن هذا القرار رغم خرقه لميثاق الامم المتحدة ، يشرّع الحرب والعدوان على العراق اذا لم يستجب للإنذار . وبذلك دخلت أزمة الخليج مرحلة جديدة خطيرة . وفي هذه الأسابيع الستة الفاصلة بين صدور هذا القرار والأجل المحدد ستتكثف المساعي والمبادرات والاتصالات العلنية والسريّة من أجل إيجاد مخرج من الأزمة التي ازدادت تعقدا .

التردد بين الحرب والسلم

لقد تميزت الأسابيع الأولى من الأزمة بطغيان ضرب من الهستيريا الإعلامية في الغرب ضد

العراق . ولئن لم تنقطع الحماة الاعلامية التي تستهدف العراق وقيادته فان شيئا من التعقل والتفكير في الحلول السلمية بدأ يبرز ويجد صداه في نفس الصحافة حتى ان بعض الصحف الامريكية خصصت للموضوع في أواخر أكتوبر ملفا يحلل الاحتمالين : احتمال الحرب واحتمال السلام .

يبدو أن حمّى الحرب بدأت تهفت بعد شهرسبتمبر. فلقد فكر بوش في التعجيل بالحرب قبل 90.11.6 وهو تاريخ الانتخابات التشريعية الامريكية ، حتى ان الرئيس الفرنسي ميتران فهم من حديث هاتفي مع بوش يوم 5 .90.9 انه يريد المبادرة بالهجوم ظنا منه أن العراق بدأ ينهار . ولذلك سارع الرئيس الفرنسي الذي لم يكن آنذاك مقتنعا بالحل العسكري الى عقد ندوة صحافية يوم 90.11.6 عبّر فيها عن استبعاده كل مبادرة عسكرية ضد العراق وعن ثقته في " حظر مصحوب بإجراءات ضغط " كما حدد ذلك مجلس الأمن . وقال في هذا الصدد " أعتقد في نجاعة الحظر وأرى أن الحكمة تتمثل في إلإجاحه وتطبيقه بحزم . أما كم سيتطلب ذلك من الوقت ، أسابيع أم اشهرا ؟ فلست أدري ".

وقد أراد الرئيس الفرنسي بذلك أن يتميز وأن لا يساير بوش في نزعته الى الحرب وذلك بالتعبير عن تمسكه بالحظر طبقا للقرارات الأممية . وقد كان بوش في تلك الفترة يخضع لضغوط عديدة متناقضة . فالبعض يحثه على المبادرة بالهجوم على العراق وهو ما يفسر تصريح الإدارة الامريكية في تلك الفترة بأنها ليست في حاجة إلى قرار أممي لشن الحرب .

ومن هؤلاء المشجعين مسؤولون قدامى مثل كيسنجر ورجال إعلام ذوو تأثير ، ومعاهد " بحوث ودراسات " ذات تأثير على القيادات السياسية وجميعهم معروفون بنزعتهم الصهيونية .
ولكن الحث على الحرب كان أيضا آتيا من مصادر عربية ولا سيما الكويت التي لم يعد لها ما تخسر وكذلك السعودية ومصر . فهؤلاء العرب كانوا يعتبرون ان الوقت الذي يمرّ إنما هو لصالح صدام حسين ولذلك كانوا حريصين على عدم تجاوز شهر سبتمبر 1990 . فقد كان الحكام العرب المتحالفون مع أمريكا يخشون من تطور الأوضاع سلبيا مع مرور الوقت ، بل إنهم أصبحوا يشعرون أن مصيرهم رهين نتائج العملية ضد العراق بعد أن تمّ التورط إلى جانب الغرب . ولهذا تميّز سلوكهم بالهروب إلى الأمام وشرب الكأس حتى الثمالة . وقد صرحوا بذلك لجميع من قابلهم . أما إسرائيل فإنها كانت حريصة على الحرب حرص آل الصباح وتحث الإدارة الأمريكية بإلحاح على الإسراع بشن الحرب .
أما المناهضون للحرب فمنهم من كان يعتبر أن وقت الحرب قد فات ومنهم من كان مقتنعا بأنه في الإمكان التوصل الى حلّ المشكل بالطرق الديبلوماسية .
أما المترددون فقد كانوا متخوفين من احتمال توسع الحرب إلى كامل منطقة الشرق الأوسط ومن احتمال أن تكون طويلة مرتفعة التكلفة في الأرواح خاصة . وكان ثمة إلى جانب ذلك تخوف من اليمنيين المتواجدين في السعودية اذ يقارب عددهم

نصف مليون نسمة ، وتخوف من حصول اضطرابات داخل السعودية وعلى حدودها مع اليمن ، بالإضافة إلى احتمال دخول الاردن في الحرب دخولا ينجرّ عنه دخول الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية . وتمثل كل هذه الإحتمالات مخاطر قد تحوّل الحرب مع العراق إلى حرب عربية اسرائيلية يتسع حريقها ويصعب التحكم فيها وفي نتائجها ، خصوصا أن هذا الاحتمال يمثل أكبر خطر يهدد التحالف ضد العراق.

ومن جهة أخرى ، لم تكن الإدارة الأمريكية في هذه الفترة تثق في موقف سوريا وايران خصوصا أن التصالح الذي حصل بين العراق وايران قد فاجأ الإدارة الامريكية . لكن ذلك لم يمنعها رغم الحذر من المراهنة على أن قبول ايران الصلح مع العراق لا يمنعها من استحسان سحق التحالف للعراق تشفيا منه ، فجرح الحرب بينهما مازال داميا وآثارها مازالت قائمة .

وبالإضافة إلى كل هذا فإن الخبراء أنفسهم لم يشجعوا على الإسراع بالقيام بالعمليات العسكرية ، فقد نصحوا برفع عدد جنود التحالف حتى يماثل عدد الجنود العراقيين . وأكدوا أن الحرب لن تكون حرب ساعات أو أيام كما تصوّر البعض ، مما يجعل الحرب الخاطفة أمرا مستحيلا . كما أكدوا أن النصر على القوات العراقية لا يمكن أن يحصل إلا بعد عدة أسابيع أو عدة أشهر وذلك بالحد تدريجيا من قدرة العراق الهجومية ثم الدفاعية . فحتى العسكريون في امريكا كانوا يفضلون انتظار نتائج الحظر .

أمّا الرأي العام فإنه كان يميل إلى الحزم مع العراق لكن بدون حرب . فالذين كانوا يحثون على

الحرب بصفة عامة هم الذين لا يخسرون شيئا وإنما يعتقدون أنهم الغانمون ، أما الذين لهم ما يخسرون فقد كانوا أكثر حذرا وإن لم يكونوا مناهضين للحرب .

كل هذا هو الذي جعل البيت الأبيض لا يعجّل بالحرب قبل الانتخابات التشريعية التي لم تكن لصالح حزب بوش الجمهوري ، هذه الانتخابات التي جرت في وقت تميّز بتردد كبير إزاء أزمة الخليج وبخلافات حادة بين الإدارة الامريكية والمعارضة الديمقراطية ذات الأغلبية في الكنفرس ولا سيما حول الميزانية .

وقد كانت نتائج الانتخابات مؤشرا على انقسام امريكا بين متحمّسين للحرب ومناهضين لها ، اذ شهدت الساحة الامريكية نقاشا حادا حول الموضوع وكانت مؤشرا على انخفاض شعبية بوش كما بدا ذلك جليا في سبر الآراء أيضا . ولقد كانت هذه الفترة صعبة بالنسبة الى الإدارة الامريكية تداخلت فيها الصعوبات الاقتصادية بالصعوبات السياسية مما دفع بمستشاري بوش إلى إعتبار أن السبيل الوحيدة لتدارك الوضع إنما هو الإقدام على حرب ناجحة في الخليج . لكن الوثوق من هذا النجاح لم يكن تاما ، ولذلك بدا بوش شديد التردد منفعلا حتى أصبح تردده موضع استهزاء بعض الأطراف ، خصوصا أن صدام حسين كان يبدو رغم الحصار ورغم العزلة الدولية واثقا من نفسه هادئا منطقي المواقف ، ماسكا بزمام المبادرة السياسية .

ولا يستبعد أن يكون البيت الأبيض بحث إلى جانب احتمال الحرب احتمال ربح القضية دون حرب

خصوصا أن الرأي السائد آنذاك هو أن الحصار لا بد أن ينجح بحكم عزلة العراق واعتماده الأساسي على صادراته البترولية التي تعطلت تماما بغلق تركيا أنبوب النفط مع الحدود وغلق امريكا الأنبوب المار من السعودية وسهولة مراقبتها البحر . فحتى ميناء العقبة الاردني يمكن التحكم فيه بفضل مضيق تيران . بيد أن التحليل الامريكي الذي بقي طاغيا هو أن بقاء صدام حسين بكامل قوته في حالة الوصول الى حل سلمي يعتبر هزيمة سياسية لامريكا لأنه تحداها .

لكن ما العمل وقد فشلت امريكا في تعريب الحرب تماما كما كانت تؤمل وأصبحت تخشى من انهيار التحالف الذي بدأ يرتج وبدأ يضعف معه " منطق الحرب " حسب عبر ميتران ، وذلك ببروز الرأي المطالب في العالم بحلّ وسط وبتنشيط مساعي السلام مرة أخرى ؟ .

في هذا الظرف قررت الإدارة الامريكية عدم التخلي عن الخيار العسكري والاكتفاء بارجائه إلى نهاية نوفمبر . لذلك أصدر بيكر يوم 90.10.16 بيانا يؤكد أن امريكا لن تقبل أي حل جزئي لأزمة الخليج يسمح لصدام حسين " بالاستفادة من اغتصاب الكويت ".

وقد كانت الغاية من هذا التصريح وضع حدّ للتخمينات والإشاعات التي بدأت تهدد التحالف بالتصدّع . وقد كان هاجس امريكا الأساسي المحافظة على وحدة التحالف قبل شن أي هجوم . وبقدر ما كانت امريكا تثق في بريطانيا الملتصقة التصاقا مطلقا بالموقف الامريكي ، كانت تتخوف من فرنسا

لأن موقفها يؤثر في موقف أوروبا عموما ولأن فرنسا قد تعودت منذ عهد ديغول على نوع من الاستقلالية عن امريكا في مواقفها وسياستها .

أما على صعيد الدول العربية ودول المنطقة عموما فإن مراهنة امريكا على تواصل العداء بين سوريا وايران تجاه العراق رغم بعض التصريحات ، قد جعلها تعتبر الاردن الحلقة الوحيدة الباعثة على القلق ، وبدت الإدارة الأمريكية كأنها لم تقدر نتائج الانفتاح الديمقراطي في الاردن وما أفرزه من نتائج وخاصة البرلمان الذي يرفض السياسة الامريكية في المنطقة .

ورغم أن بعض الاضطرابات في سوريا قد حدّث من مساندة نظامها للخطة الامريكية أول الأمر ، الا أن وعد الأسد برفع العقوبات المقررة ضده منذ ثلاث سنوات إثر إدراج سوريا ضمن قائمة البلدان المشجعة على الإرهاب ، قد جعل النظام السوري يوازن بين التنديد بغزو الكويت ورفض الحضور العسكري الامريكي في المنطقة الى أن تم الاتصال في أعلى مستوى بين البلدين وانضم النظام السوري إلى التحالف ضد العراق بصفة عملية لا لبس فيها .

في هذه الفترة التي كانت فيها حظوظ الحرب والسلام متناصفة تعددت المحاولات من أجل حل تفاوضي للازمة .

فشل الحلول السلمية مرة أخرى

لم يبق تقريبا قطر عربي لم يتقدم بمقترحات علنية أو سرية من أجل التوصل إلى حل سلمي لأزمة الخليج لكن جميع هذه المساعي قد باءت بالفشل لأن نجاح أي حل رهين قبول جميع الأطراف المعنية إيّاه .

لكن المحاولات قد نشطت في مستوى آخر ، بعد أن أصدر مجلس الأمن القرار 678 في آخر نوفمبر وحدد للعراق أجل منتصف الشهر الأول من السنة الجديدة . فقد ساد الإعتقاد أن منطق الحرب هو الذي تغلب في امريكا على منطق السلم وأن الأمر قد أصبح مجرد توقيت خصوصا أن تواصل دعم الانتشار العسكري قد بلغ حدا يتجاوز بكثير مقتضيات الحظر أو الحصار .

وكان الاتحاد السوفياتي الطرف الأول غير العربي الذي قام بمبادرات من أجل حل وسط يقدم بعض الترضيات للعراق . لكن امريكا رفضت ذلك بشدة خلال شهر نوفمبر 1990 . وقد حدا ذلك بغورباتشوف إلى المراهنة من جديد على الحل العربي وصرح بذلك في باريس ولكن الرئيس المصري مبارك ، رفض من الغد نداء الرئيس السوفياتي ، بإيعاز وضغط مجدد من الإدارة الأمريكية .

وحاول الملك الاردني حسين أن يقوم بمسعى جديد يتجاوز الإطار العربي ، فتحوّل للغرض إلى باريس. وتشابكت بذلك خيوط المساعي والمحاولات التي بقي

الكثير منها في السرية . ولم يطف على السطح إلا البعض منها بعد مدة إثر عمليات تسرب كالمحاولة الفرنسية التي كشفت عنها صحيفة " الكنار انشني " حين ذكرت أن مستشار الرئيس الفرنسي السيد ادڤار بيزاني تقابل في ثلاث مناسبات سريا في جينيف مع أخ صدام حسين برزان التكريتي ممثل العراق في جينيف .

ورغم أن الرئاسة الفرنسية كذبت وجود الاتصالات السرية الا أن الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلة الذي كان الوسيط أكد أنه حضر شخصيا هذه الاتصالات . وقد عرض الطرف الفرنسي على العراق مشروع حل لا يختلف كثيرا عن مشروع سوفياتي سابق ، ويتمثل المشروع الفرنسي في إعلان العراق عزمه على الانسحاب من الكويت حتى يمكن إيجاد حلّ للقضية الفلسطينية ولجميع القضايا الأخرى المعلقة . وكان رد العراق دعوة المستشار الفرنسي لزيارة بغداد . وقد اعتبرت فرنسا ذلك غير كاف . ويبدو أن الرئيس الفرنسي فكّر قبيل أجل15 . 91.1 في إيفاد مستشاره أو حتى وزير خارجيته إلى بغداد اذا قبل العراق المشروع الفرنسي . لكن بغداد اكتفت بتوجيه الدعوة دون الإجابة عن محتوى المشروع . وتؤكد الصحيفة الفرنسية أن تردد بغداد كان سببا في تخلي فرنسا عن مشروعها خاصة أن الأمين العام للامم المتحدة الذي عاد من بغداد يوم 91.1.14 قد يكون أسرّ إلى الرئيس الفرنسي أن صدام حسين رافض لكل حل وسط ، بينما يؤكد أحمد بن بلة أن امريكا هي التي عارضت المبادرة الفرنسية وعرقلتها . بيد أن أمريكا

فكرت في مناورة لا تظهرها في مظهر الحريص على الحرب فكانت فكرة اقتراح لقاء امريكي - عراقي ، فاستغل العراق الظروف المواتية ليحل مشكلة الرهائن .

نزع " الدرع البشري " وإطلاق سراح الرهائن

وقد تميزت هذه الفترة التي نشطت فيها المحاولات وتعددت المبادرات بتعاقب الوفود والشخصيات العالمية على بغداد من الرئيس النمساوي كورت فالدهايم والمستشار الالماني الغربي الأسبق فيلي براند والأمين العام للأمم المتحدة بيريز دي كويلار ، الخ . وقد سمح العراق بمناسبة هذه الزيارات بإطلاق سراح بعض الرهائن الذين عاد بهم الزائرون.

وكانت قضية الرهائن قد استغلت إعلاميا بشكل مكثف شغل الرأي العام الغربي أول الأمر أكثر من الكويت .

وقد حاول الرئيس العراقي تبرير حجزهم باستقبال مجموعة منهم والتحدث اليهم موضحا عبرهم للرأي العام الغربي موقفه من الأزمة مركزا على أنهم " ضيوف " في العراق وأن وجودهم إنما هو لإبعاد شبح الحرب . وقد اعتبرهم العراق أول الأمر " درعا بشريا " واقيا من العدوان ثم وصفهم صدام حسين بسبب ذلك بأنهم " أبطال السلام " . على أن ظهور صدام حسين لأول مرة على شاشة

التلفزة مع الرهائن البريطانيين قد استغله الإعلام الغربي جيدا ضده ، واصفا ذلك المشهد بالفظاعة . ولكن توصل صدام حسين بذلك إلى التأثير على الرأي العام الغربي . إلا أنه فيما يبدو يعترف بأن تلك العملية لم تكن ناجحة إعلاميا . وقد بادر بإطلاق سراح أول فوج بعد ذلك مباشرة . ولم يترك فرصة تمر دون أن يستغلها لإطلاق سراح دفعة منهم بدء بالأطفال والنساء والمرضى والشيوخ . ثم أطلق سراح جميع الرهائن الفرنسيين جزاء الموقف الفرنسي المتسم في البداية بالحث على حل سلمي يحفظ للعراق ماء الوجه .

وقد قام عرفات بدور أساسي في إطلاق سراح الفرنسيين . وجرت بينه وبين الوزير الأول ووزير الخارجية الفرنسيين اتصالات مباشرة نوقش فيها هذا الموضوع . وقد التقى دوما به في تونس يوم 14 - 10 - 1990 .

وتذكر بعض المصادر أن عرفات عمل بذلك على إرجاع دين يتمثل في المساعدة التي قدمتها فرنسا لمنظمة التحرير الفلسطينية سنة 1982 بتسهيل انسحاب القوات الفلسطينية من بيروت . وقد جاءت هذه المبادرة الفلسطينية في إطار مسعى فلسطيني لدى العراق لحثه على الاستجابة للعرض الامريكي بالحوار يوم 90.11.30، ونصحه بالمبادرة بإطلاق سراح جميع الرهائن ثم الانسحاب من الكويت . وقد ضمّن عرفات هذا الموقف في رسالة سرية الى صدام حسين تم تحوّل إثر ذلك إلى عمان للتشاور في الموضوع مع الملك حسين بينما تحول أبو إياد إلى اليمن . وقد آلت هذه الاتصالات إلى

عقد اجتماع في بغداد ضم حول صدام حسين الملك حسين وياسر عرفات ونائب الرئيس اليمني ، وذلك قصد التباحث في خطة لمنع قيام الحرب دون استسلام بلا شروط خصوصا أن اليمن أصبحت ترأس مجلس الأمن .

وقد أعلن صدام حسين إثر هذا اللقاء إطلاق سراح الرهائن . ولا شك أن احتجاز رهائن مدنيين أبرياء من الأعمال المنافية لقيم العدل وحقوق الانسان . وقد يكون جان لاكوتور محقا حين يندد بذلك بقوة في تصريح يقول فيه " كلاّ إن أصدقاء العرب الذين أعجبوا بعبد الناصر وفهموا جبهة التحرير الجزائرية ورجوا منح الفلسطينيين حقوقهم ، لا يعتبرون انتسابا إلى هذه الأمة وهذه الثقافة القائمة على احترام الكرامة الانسانية تصرف من يحتجز الرهائن في بغداد وخطته المتمثلة في المتاجرة بالاطفال ".

لكن قلّ من هؤلاء من يذكر بأن احتجاز الرهائن من تقاليد الغرب في الحروب هكذا فعل الفرنسيون مع الالمان في الحرب العالمية الأولى وهكذا فعل البريطانيون مع الالمان أيضا في الحرب العالمية الثانية فاحتجزوهم في إحدى الجزر .

وقد فعل الامريكيون ما هو أشنع إذ احتجزوا مواطنيهم من أصل ياباني خلال نفس الحرب والأنكى أنه في نفس الوقت الذي احتجز فيه العراق مواطنين غربيين احتجز الغرب مواطنين عراقيين جلهم طلبة متربصون في فرنسا وبريطانيا وغيرهما ولم تطلق بريطانيا سراحهم الا بعد انتهاء الحرب بينما أطلق العراق سراح جميع الغربيين

قبل الحرب ، رغم أنه قد شن عليه حصار يعتبر بمثابة الحرب .
وقد برر صدام حسين قرار تسريح الرهائن بالاستجابة الى مطالب عديد الوفود التي زارت العراق وبموقف أغلبية الديمقراطيين في الكنغرس الامريكي الداعي إلى الحوار وكذلك بالدعوة الموجهة من البرلمان الاروبي إلى وزير الخارجية العراقي للحوار .
فقد أراد العراق دفع عملية الحوار بمنح المنادين به حججا جديدة قوية لحمل الإدارة الامريكية رغما عنها في اتجاه حل سلمي مشرف . لكن دعاة الحرب في امريكا لم يخففوا شيئا من ضغطهم على العراق واعتبروا قضية الرهائن من حصيل الحاصل وعادوا للتركيز على " تحرير الكويت " متظاهرين بانهم ليسوا ضد حل سلمي اذا بادر العراق بالانسحاب . وهكذا اكتسى الموضوع بعدا سياسيا هاما .

مناورة الاتصالات الامريكية العراقية

بعد ان أطمأنت الادارة الأمريكية على الأجل الذي حدده مجلس الأمن بمنتصف جانفي 1991 ، وهو الأجل الذي يسمح لها باستخدام جميع الوسائل بما فيها القوة لإخراج القوات العراقية من الكويت ، سعت إلى تخفيف الارتسام الحاصل لدى الرأي العام من أسلوبها في معالجة أزمة الخليج و ما تميز به من تصلب اظهرها في مظهر الحريص على الحرب ، المعرقل لجميع الحلول السلمية ، وذلك باقتراحها لأول مرة الاتصال مع العراق وهو ما كانت رفضته

من قبل . وقد استبشر العالم فعلا لذلك وظن أن كفة السلام بدأت ترجح وأوهمت امريكا العالم بأنها لا تريد أن تترك فرصة للسلام تمر دون أن تستغل . ولكنها في نفس الوقت حرصت على إحاطة المبادرة بجميع عوامل الفشل فقد ضبطت أول الأمر موعدا لاستقبال بوش لطارق عزيز بواشنطن وضبطت أيضا موعدا لاستقبال صدام لبيكر ببغداد وهو ما رفضه صدام محتفظا لنفسه بحق ضبط الموعد طبقا للاعراف الديبلوماسية . كما أن بيكر قد صرح بأنه لن يتفاوض مع صدام حسين وإنما يريد أن يبلغه وجها لوجه أن عليه أن يخرج من الكويت ، وهو ما يجعل اللقاء يفقد مسبقا كل معنى .

وإزاء فشل الاقتراح الأول لمثل هذه الاسباب ، تم الاتفاق على لقاء بين وزيري الخارجية في جينيف .

ولعل اهم ما في هذا اللقاء الطويل هو حادث الرسالة التي بعث بها بوش إلى صدام حسين ورفض طارق عزيز تسلمها من بيكر بعد أن اطلع على فحواها . وهذه الرسالة تتضمن تحذيرا وتهديدا بالحرب إذا لم يتم الانسحاب من الكويت حالا وبدون قيد أو شرط مع التطبيق الكامل لجميع القرارات الصادرة عن مجلس الأمن . وفيها يقول له : " لا يمكن أن تكون ثمة مكافأة عل العدوان أو مفاوضات ، ولا يمكن أن يكون ثمة حل وسط على حساب المباديء ". وقد حذره في حالة اندلاع الحرب من مغبة اللجوء إلى الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية ملحا على الدمار الذي سيلحق ببلاده .

وبصفة عامة فان هذه الرسالة قد صيغت بلهجة من التحدّي لا تخلو من الإهانة والحقد ويندر أن نجد

مثيلا لها في العلاقات الدولية أو في علاقات رؤساء الدول بعضهم ببعض .
وهكذا فان هذه المبادرة التي أذكت جذوة الأمل ، كان محكوما عليها مسبقا بالفشل لأنها لم تكن في الحقيقة إلا مناورة لتحميل العراق مسؤولية التصلب وإفشال الحل السلمي برفضه الانسحاب من الكويت . ويبدو أن الإدارة الامريكية كانت تخشى أن ينسحب العراق فعلا فيحرمها من الحرب التي خططت لها حتى ان بعض الصحف وصفت بوش في تلك الفترة بانه يواجه " خطر السلام ". وقد كانوا يطلقون على ذلك اسم " سيناريو الكابوس " الذي يفسد عليهم جميع حساباتهم القائمة على تقدير ثابت وهو أن العراق لن يستسلم بدون قتال ، وقد أصابوا في ذلك التقدير فعلا .

الإعداد للحرب

لقل أجلت امريكا شن الحرب مرارا قصد توفير جميع الظروف الملائمة لإنجاح العدوان على العراق على الصعيدين العسكري والسياسي ، لذلك وظّفت الأشهر الستة لتحوّل شيئا فشيئا وبكثير من الخبث السياسي " درع الصحراء " الدفاعي (الموضوع مبدئيا للدفاع عن السعودية من هجوم عراقي محتمل عليها ، لم تكن الادارة الامريكية تعتقد في جدّيته في الواقع) إلى " عاصفة الصحراء " الهجومية لضرب العراق وتدميره (وهو الهدف الأساسي من كامل هذه الأزمة المفتعلة افتعالا) ولذلك عملت الادارة الامريكية على رفع عدد قواتها

إلى أن بلغت بها حداً يجنبها المفاجآت غير السارة وذلك لتساوي القوات البرية العراقية . لكن ما يضمن النصر هو التفوق الجوي والبحري والتكنولوجي . ومن أهم مظاهر الإعداد المادي إخضاع كامل التراب العراقي والتراب الكويتي للمراقبة بالأقمار الصناعية .

ففي أحد المراكز التابعة لوكالة المخابرات بواشنطن (س . إ.ي) وهو مختص في قراءة الصور التي تلتقطها الأقمار الصناعية ، يعكف منذ 90.8.2 فنيون يعملون 18 ساعة يوميا في سرية مطلقة ، على دراسة صور الأقمار الصناعية التي تراقب العراق 24 ساعة على 24 . ولم يسبق لهذا المركز أن تجنّد بهذا الشكل من قبل . وتتولى وكالة الأمن الوطني معالجة المعلومات المجمّعة بالتنصّت اللاسلكي عن طريق الأقمار الصناعية كذلك . ثم تتولى مصلحة الخرائط استغلال هذه المعلومات لضبط الأهداف التي يمكن ضربها في العراق والكويت وكذلك لتعديل أجهزة التوجيه الالكتروني في الطائرات المقنبلة وفي الصواريخ .

ويجمع الملاحظون على أنه لم يسبق أن وقع في منطقة ساخنة تجميع مثل هذا الحجم من الإمكانات والتجهيزات إطلاقا . وبعد أن كانت النية في أوساط العسكريين تتجه إلى حرب محدودة في التراب الكويتي لإخراج العراقيين ، تم التخلي عن هذا الاحتمال الذي لقي معارضة شديدة وتعويض هذه الخطة بخطة الحرب الشاملة على التراب العراقي إذ حصل الاقتناع بأن إخراج العراقيين من الكويت لا يمكن أن يتم إلا بهزيمة شاملة للقوات

العراقية حتى يمكن تحقيق جميع الأهداف التي رسمتها امريكا لتدخلها . وكان حرص امريكا أن لا تطول الحرب وأن لا تكلف جيشها كثيرا من الأرواح.

وقد تم تعديل سيناريوهات الحرب مرارا عديدة دون تغيير الأهداف الاستراتيجية . فقد وقع التخلي كذلك عن تزامن الهجوم البري مع الهجوم الجوي والإنزال البحري . وتم الاكتفاء في مرحلة أولى بالهجوم الجوي بالقنابل والصواريخ من الطائرات والسفن الحربية قصد إضعاف قوة العراق دون توسيع رقعة الحرب للحدّ من الخسائر الغربية .

وتذكر بعض المصادر الامريكية أن التحضيرات الفنية السرية للحرب كانت تجري في مكان وضعته السعودية تحت تصرف القوات الامريكية وأصبح يطلق عليه لفرط سريته " الحفرة السوداء ".

وقد وضع الخبراء فيه خططهم واعتبروا ان الاولويات الخمس عند بدء الهجوم يجب أن تكون :

- تحطيم شبكة اتصالات القيادة والمراقبة في العراق .
- إعماء الرادارات والصواريخ المضادة للطائرات وشد الطائرات العراقية في الأرض .
- تدمير المصانع والمخازن والمخابر الضرورية للجيش العراقي .
- تخريب المطارات والطرقات والقناطر والمواني .

- ضرب الحرس الجمهوري ضربا مهينا لتحطيم معنويات الجيش .

وقد قامت القيادة العسكرية الامريكية باستشارة

الجامعيين والخبراء في شؤون الشرق الأوسط لمعرفة نقاط الضعف في المجتمع والوسط السياسي العراقيين . وتولت المخابرات الاتصال بالمؤسسات الاروبية والآسيوية التي عملت في العراق وتسلمت منها خرائط المنشآت العراقية كما تولى الخبراء الفرنسيون تقديم المعلومات اللازمة لإبطال مفعول الصواريخ الفرنسية التي اشتراها العراق .

ومن خلال ما تجمع من معلومات توصّل الخبراء الى أن العراق على وشك صنع القنبلة النووية ولذلك وضعوا من جملة الأهداف تحطيم جميع المنشآت النووية .

ومن بين الأهداف الأخرى : مقر حزب البعث ، وجهاز الهاتف المدني وشبكات المياه والكهرباء .

فالأهداف المحددة للتدمير تم ضبطها إذا على أرض السعودية . ومثل هذه الأهداف تدل على أن تحرير الكويت أصبح ثانويا أمام تدمير العراق تدميرا شاملا يرجعه إلى ما قبل العصر الصناعي .

وفي نفس الوقت حرصت الإدارة الامريكية اثناء المدة التي تطلبها الإعداد المادي للعدوان على المحافظة على التحالف الدولي حولها وعلى تواصل عزل العراق ديبلوماسيا واقتصاديا بتحويل المقاطعة الى حظر وحصار كاملين شاملين حتى للغذاء والأدوية خارقة بذلك قرارات مجلس الأمن ذاتها . فضلا عن الأعراف والأخلاق الدولية والإنسانية .

وقد نجحت امريكا بالترغيب والترهيب في جعل العالم يجاريها في هذا التسلط برضاه أو بدونه . ولم يسبق أن قبل العالم بمثل هذه السهولة وهذا التواطؤ قرارات بمثل هذه الدرجة من الجور

والتحدّي مما يجعل هذه القضية سابقة فريدة من نوعها .
فالقرارات المتخذة ضد العراق تتجاوز فضاعة أعمال صدام حسين التي يدّعون مقاومتها . والامكانيات التي تم تسخيرها تتجاوز الأهداف الرسمية وهي " تحرير الكويت " خصوصا أن هذا الهدف كان يمكن تحقيقه بدون حرب . والحصار تجاوز حدوده لتجويع شعب كامل بشكل لم يسبق له مثيل في العصر الحديث ولا يمكن إطلاقا ان يشرف أصحابه . وقد تم تمويل كامل العملية بالاعتماد على العرب أساسا مع مساهمة من اليابان والمانيا ، وهكذا تصرفت الإدارة الامريكية مع جيشها بمنطق المرتزقة حتى ان الصحافيين الامريكيين قالوا ساخرين لوزير خارجيتهم عندما أخذ يطوف لجمع الأموال : " لا تقبل من أحد أقل من مليار دولار" ، وقد قبلت جميع البلدان التي طلب منها تمويل الحرب ذلك طوعا او كرها تجنبا لشر امريكا التي أصبحت تصول وتجول وحدها في العالم . فهذا الشكل من الارتزاق أصبح أشبه شيء بالابتزاز الذي يمارسه الإرهابيون والمافيا ولكن على صعيد عالمي .
فأمريكا تعتبر أنها تقوم بدور الشرطي في العالم ولكنها تحرص على أن تقوم بذلك دون أن يكون على حسابها أو مجانا بل تعيّن من يدفع الثمن وتضبط حصة كل طرف وليس له ان يتلكأ تماما كما يفعل رئيس عصابة مع أفراد عصابته .
وقد تساءل البعض عن حق لماذا لم تلتجيء امريكا الى الشركات البترولية الغربية التي حققت أرباحا خيالية بفضل أزمة الخليج . ويكفي لتصور هذه

الارباح أن نقارنها بالأرباح التي حققتها في سنة عادية هادئة مثل سنة 1989 فقد بلغت أرباحها من تجارة البترول اكثر من 22 مليار دولار . لكن هذا ايضا يدخل في منطق المافيا التي تبتز الأموال عن طريق انماط معينة من التجارة .

شراء الضمائر

ويدخل في منطق الإعداد للحرب شراء الضمائر بالدولار لتوسيع رقعة التحالف وتحييد بعض الاطراف ان لم يتسنّ تشريكها . ومرة أخرى تدفع الأنظمة الخليجية بالخصوص ثمن هذا الإرشاء ذي البعد الدولي .

وهكذا أسقطت هذه الأنظمة ديون مصر التي كانت مكافأتها بحجم مساهمتها العسكرية . وقد أخذت جميع البلدان نصيبها بما في ذلك المغرب وسوريا والسينغال وتركيا .

اما الصين فقد ساومت بصوتها وحقها في النقض فرفعت عنها المجموعة الاروبية العقوبات الاقتصادية التي تقررت بعد حوادث تيان آن مان في جوان 1989 .

وهكذا بلغت هذه المساومة العالمية التي لم يسبق لها مثيل حدّاً جعل واشنطن تحدث للغرض صندوقا خاصا بعد أقل من شهرين من انطلاق الأزمة تم منذ البدء تمويله بثلاثة عشر مليار دولار أكثر من نصفها بتمويل خليجي . وحتى صندوق النقد الدولي والبنك العالمي الشهيران لم يتخلفا عن

الحملة خاصة أنهما مكلفان بدراسة حاجيات البلدان الراغبة في المساعدة بحجة التضرر من أزمة الخليج.
أما البلدان التي لم تساند الحرب فقد اعتبر موقفها هذا مساندا للعراق رغم معارضتها لاجتياح الكويت وضمه ورغم أن البعض منها من أكثر المتضررين من الأزمة مثل الاردن وفلسطين واليمن.
ولم يكفها الضرر الفادح ، فقد عوقبت بقطع المساعدة العربية والغربية عنها .
وقد بلغ الأمر حداً غريبا من النفاق حتى ان أحدهم عرّض بالسودان قائلا إنه "قد فقد المصداقية في مجال حقوق الانسان الى حدّ أنه لا أحد يمضي معه اتفاقا ".
بل ان بلدا مثل تونس اشتهر باعتدال مواقفه يصبح هدفا للعقاب ايضا فتخفض امريكا من مساعدتها السنوية له بإسقاط ثلاثة أرباعها . وقد مسّ العقاب حتى موريطانيا .إن هذه الضغوط الاقتصادية حرب أخرى موازية ذات بعد دولي . وما هذه إلا نماذج صارخة من هذه العقلية الجديدة التي سادت العالم والعلاقات الدولية في ضوء أزمة الخليج ، وأصبحت عاملا أساسيا من عوامل الإعداد لهذه الحرب الغربية التي توفرت جميع الظروف الملائمة لشنّها بنجاح عسكريا وسياسيا وماليا وإعلاميا ونفسيا ، وذلك بتوظيف إمكانيات ضخمة وباتخاذ إجراءات تتجاوز إلى حدّ كبير حجم القضية ومستلزمات فضها .
وكأن صدام حسين قد أوعز إلى امريكا شكل الحرب التي عليها أن تشنها عليه حين صرح للقناة الأولى للتلفزة الفرنسية يوم 29 اوت 1990 " لا يمكن

لامريكا أن تنتصر الا اذا نجحت في ثلاث جبهات ، بالتغلب أولا على الجيش العراقي ، ثم بسحق الاقتصاد العراقي وأخيرا بإسقاط النظام العراقي ، أما تحقيق انتصار واحد من هذه الثلاثة فلا يكفي".
وفعلا فان امريكا قد عملت على تحقيق هذه الأهداف الثلاثة لكن بدءا بتدمير العراق واقتصاده قبل تدمير جيشه .

العدوان على العراق

عند انتهاء الأجل الذي حدد للعراق ، بدأ تنفيذ التهديد بالعدوان عليه . ففي صباح يوم 1991.1.16 كان أول من بادر بيكر وزير الخارجية الامريكي بإعلامه بقرار الهجوم هو بندر بن سلطان سفير السعودية بواشنطن الذي سارع إلى تنفيذ الاجراءات المتفق عليها منذ أشهر فتولى من مقر الخارجية الامريكية الاتصال بواسطة هاتف خاص بالملك فهد مستعملا رموزا خاصة ، فأجابه بالرموز المقابلة التي تعني الموافقة على بدء الهجوم .
ثم قدم إلى نفس المقر بعد ساعات سفير اسرائيل الذي تأكد من أن الأهداف الأولى للقصف ستكون منصات الصواريخ العراقية التي سبق لصدام حسين أن هدد بإطلاقها على اسرائيل إن هوجم العراق . بعد ذلك أعلم بيكر زميله السوفياتي بسميرتنيخ ثم زملاءه في التحالف الاروبيين والعرب وختم بالمانيا واليابان .
وفي المساء ، قام الرئيس الامريكي بالإجراءات الدستورية وذلك بإعلام النواب ثم اتصل برؤساء

الدول الحليفة لإعلامهم رسميا . وفي الساعة السابعة مساء كان مبعوث شبكة س. ن. ن الامريكية إلى العراق يعلن على شاشات التلفزة في العالم أن السماء قد اشتعلت في جنوب العراق وأنه سمع دوي انفجار وأن الحرب قد اندلعت . فقد أقلعت الطائرات المقنبلة من السعودية في اتجاه العراق .
هكذا بدأ العدوان على العراق باطلاق " عاصفة الصحراء " .

وهبّت " العاصفة "

في الليلة الأولى من هبوب "العاصفة " قامت ست مائة طائرة مقنبلة بالهجوم على العراق وخاصة العاصمة بغداد وبلغ عدد غاراتها ألفين في الأربع والعشرين ساعة خلال الأيام الأولى من بدء العدوان. ففي اليوم الأول من العدوان سقط على العراق ما يقارب عشرين ألف طن من المتفجرات وهو ما يعادل قنبلة هيروشيما النووية .
وقد شاركت جميع أنواع الطائرات المقنبلة ولا سيما ب 52 العملاقة وف 117 الخفية .
وبالاضافة إلى ذلك ، انطلقت من البحر حوالي مائة من صواريخ طوماهوك الرهيبة وهي أشبه ما تكون بطائرات بدون سائق قادرة على حمل 150 قنبلة انشطارية ، وعلى تجنب الحواجز المفاجئة – ذاتيا – ولذلك توصف بانها قنابل " ذكية " وقد تم صنعها خصيصا لضرب الاتحاد السوفياتي وهي من مفاخر أسلحة الدمار الامريكية .
هكذا بدأت " الحرب النظيفة " كما وصفها أصحابها

تلطفا لأنهم ارادوها ان تكون حربا " جراحية " حسب تعبير هنري كيسنجر .

ولقد ظنوا أنها كانت كذلك إذ أعلنوا عقب اليوم الأول أن القوة العراقية قد دمرت مستغربين من سهولة هذا التدمير ومن ضعف ردّ الفعل العراقي . لكن التقديرات الأولى كانت خاطئة الى حدّ بعيد اذ فوجئت القوات المعتدية تدريجيا ومنذ اليوم الثاني إطلاق أول صاروخ عراقي على تل ابيب كما وعد بذلك صدام حسين من قبل في حين ظنت امريكا أنها قد دمرت منصات الاطلاق . كما تبين أن ما تم تحطيمه يتضمن نسبة لا يمكن تقديرها من الأهداف الوهمية والحيل الخادعة إلى حد أن الصواريخ اختلطت لدى المعتدين بالمخروطات المعدنية وبجذوع النخل المموّهة .

كما اكتشفت القوات المعادية للعراق أنه قد استغل إلى حد كبير مخابىء تحت الأرض لإخفاء صواريخه ومنصّاتها المتنقلة وتأمين طائراته وذخيرته والكثير من حاجياته . وهكذا لم تعد قادرة على معرفة حجم خسائر العراق ولا حجم عتاده وحل الشك والقلق محل فرحة اليوم الأول ، بينما عم الفرح الشارع العربي بعد إحباط اليوم الأول واشتد نتيجة ذلك التكالب على ضرب العراق ضربا عشوائيا وتحوّلت الحرب " النظيفة " ذات " العمليات الجراحية " إلى حرب تدمير شامل وحرب مجازر بشرية كانت قمة الوحشية فيها تدمير ملجأ العامرية الذي يحتمي فيه المدنيون من الغارات الجوية استهانة بالاتفاقيات الدولية المتعلقة بالحرب وبحماية المدنيين خلالها . وهي جزء من القانون

الدولي الذي يدعي الغرب حمايته . وقد قتل في هذا الملجأ مآت من العراقيين وأبيدت عائلات بأكملها وبدأ الرأي العام العالمي يكتشف بشاعة هذه الحرب " النظيفة " وقنابلها " الذكية " التي ادعوا أنها تدمر المنشآت ولا تقتل المدنيين . وقد أنكر القادة الغربيون الصبغة المدنية لهذا الملجأ أول الأمر ، ولكنهم أجبروا على الاعتراف بالحقيقة بعد ذلك أمام الصور التي بثتها قنوات التلفزات الغربية ذاتها ، فادعوا بكل وقاحة أن السلطات العراقية قد وضعت المدنيين عمدا هناك لاستغلال الأزمة إعلاميا والتأثير على الرأي العام الغربي ، كما لو كان العراق يعرف نوايا القوات المعادية وسر عزمها على قصف الملجأ . لكن بعد أن هدأت النفوس ، بدأت بعض التصريحات المحتشمة تطفو ليعترف بعضها بالخطأ أو ليشير بعضها الآخر إلى هدف التأثير على معنويات الشعب العراقي لإثارته ضد قيادته ، خصوصا أن القصف قد تم بطائرات ف 117 الخفية . وقد تواصل القصف بالقنابل والصواريخ على أهم المدن العراقية وخاصة بغداد والبصرة بضراوة تراوحت بين ألفين وثلاثة الآف غارة يوميا وشمل التدمير كامل التراب العراقي حتى ان أحد الطيارين شبه ارض العراق بسطح القمر لكثرة الحفر التي أحدثتها القنابل .

وقد تواصل القصف والتدمير أكثر من أربعين يوما سقط فيها على أرض العراق اكثر من مليون طن من المتفجرات ، حتى ان احد الطيارين وصف اول يوم المشهد بقوله " إنها أجمل شماريخ رأيتها ، وأجمل شجرة نوال في حياتي " .

ولقد كان من نتائج ضرب المدنيين تنامي الحقد بينهم على المعتدين حتى ان امرأة صرحت لأحد الصحافيين بقولها " لو أمسكت طيارا لمزقته بيدي ، ليس هكذا تكون الحرب ، على النساء والاطفال ".
ولم يكن بإمكان أحد أن يعرف حجم الخسائر البشرية لصعوبة ذلك من ناحية ولتكتم جميع الأطراف من جهة أخرى ، حتى ان الخبراء أضحوا يعتمدون التقديرات القائمة على التخمين والمقارنة بالحروب السابقة . فقد قارنوا بالحرب العالمية الثانية حيث كان المعدل قتيل واحد مقابل 1ر1 طن من المتفجرات وفي الحرب الكورية والفيتنامية ارتفع المقابل تباعا الى 6ر5 و17 طنا .
فاذا تم الاقتصار على المقياس الاخير فإن العراق يكون قد فقد 30 ألفا قبل بدء المعركة البرية . وإن الرأي العام العالمي وخاصة العربي لم يكن بإمكانه أن يفهم أو يهضم أن يكون ثمن اجتياح بلد صغير تدمير بلد أكبر أو أن يكون ثمن بضع مآت من القتلى خلال الاجتياح عشرات آلاف القتلى عند الإجلاء . "فتحرير الكويت" يتم بثمن لا يمكن تبريره إطلاقا مما يجعل الانتصار لا فضل فيه ولا أخلاق .
وبعد أن كانت الطائرات تقلع من السعودية والخليج برا وبحرا أصبحت تقلع من كل مكان ، من تركيا وبريطانيا واسبانيا .
وقد شمل التدمير جميع المنشآت العسكرية والاقتصادية وكذلك المدنية والاجتماعية والثقافية .
وقد تكثف القصف على بغداد مباشرة إثر المحاولة السوفياتية لإيجاد مخرج قبل الحرب البرية فتضاعف التدمير الشامل .

ولما كانت القنابل تسقط موجهة بالليزر من ارتفاع لا تطوله المدافع المضادة للطائرات ، فإنه يندر الحديث عن " أخطاء " وإنما أصبح واضحا أن الهدف إنما هو تدمير العراق تدميرا شاملا وقتل أكبر عدد ممكن من العراقيين دون ميز بين العسكريين والمدنيين لتحطيم معنويات الشعب العراقي بتحطيم منشآته الحيوية . ولهذا وقع الاعتماد أساسا على طائرات ف111 وخاصة الطائرات ف117 الخفية التي لا تكشفها الرادارات . ورغم ان نسبتها من مجموع الطائرات المستعملة في هذه الحرب لا تتجاوز 3٪ ، فان نسبة دمارها تجاوزت 40٪ .

ولقد اضطرت امريكا الى استعمال تجهيزات حديثة مازالت في طور التجربة وكانت تجربتها في العراق " ناجحة " وخاصة أنظمة توجيه الطلق من الطائرات ف 15 الموجه نحو منصات إطلاق صواريخ الحسين العراقية .

وفي نفس الوقت الذي بدأ المعتدون يلوحون باستخدام الأسلحة غير التقليدية لإجبار العراق على الاستسلام دون حرب برية ، عمدوا إلى استعمال قنابل رهيبة منها التي تسمى "قنبلة الفقراء النووية "التي تشتعل في الجو و تحرق الاكسجين فيختنق كل حي يوجد تحتها اختناقا فظيعا يجتث منه الرئتين .

وقد عاش الشعب العراقي بدون كهرباء ولا هاتف ولا ماء ولا بترول بعد تحطيم محطات تكريره ، فقد أصبحت المدن الكبرى شبه ميتة. ولا شك أن مما أثر في معنويات العراقيين هو أنهم لا يرون الطائرات المغيرة لارتفاعها الشاهق ولكنهم يسمعون

دوي الانفجارات باستمرار وبدون انقطاع ليلا نهارا مما يؤثر حتما وبصفة طبيعية على الأعصاب .والأخطر من كل ذلك هو خطر تفشي الأوبئة إذ أن مضخات الخنادق لم تعد تعمل بدورها وقل الماء الصالح للشراب واستحال التبريد والتعقيم والخزن في ظروف صحية دنيا وفسدت المواد الغذائية المخزونة .

ويؤكد بعض الأطباء ظهور وباء الكوليرا في بعض المناطق . ورغم ذلك فإن صمود الشعب العراقي وصبره كانا باعثين على الإعجاب . وقد اختار العراق امام تفاوت القوى أسلوب الصمود والثبات في المقاومة أطول ما يمكن مع المحافظة قدر الإمكان على أكثر ما يمكن من قواه وإمكانياته .والواقع أن إصرار العراق على الصمود قد أذهل الملاحظين وخصوصا أن الوضع الدفاعي لم يمنع العراق من أن يحاول الهجوم لإرباك المعتدين كما فعل بهجومه البري المفاجيء على مدينة الخفجي السعودية المتاخمة الواقعة على بعد 20 كم داخل الحزام العسكري الامريكي السعودي وذلك بعد أسبوعين من بدء الحرب . وأغلب الظن أن العراق أراد بذلك إذاقة المعتدين طعما أوليا للحرب البرية قصد ردعهم عنها أو جرهم إليها سريعا . وفعلا فإنهم قد ترددوا كثيرا في شنها وأجلوها مرارا . فهذا الهجوم مع تواصل إطلاق عشرات من صواريخ الحسين على امتداد فترة الحرب على كل من اسرائيل ومقر قيادة التحالف في السعودية ، لهما مفعول نفسي لا يستهان به وهو أهم بكثير من مفعولهما التدميري الذي لا يمكن إطلاقا مقارنته بالمفعول التدميري لأسلحة المعتدين

لا من قريب ولا من بعيد . خصوصا أن التحالف قام في أربعين يوما بحوالي مائة الف غارة تم فيها إسقاط كمية من المتفجرات تعادل ما تم إسقاطه على المانيا طيلة السنوات التي استغرقتها الحرب العالمية الثانية .

وقد ركز المعتدون هجوماتهم بالإضافة الى المنشآت على الحرس الجمهوري لضرب معنويات الجيش العراقي . لذلك كان الطيران المغير يقوم يوميا بعمليات استطلاع على مواقع الحرس الجمهوري وتحصيناته فتتولى طائرات كشافة إلقاء قنابل فوسفورية تكون علامات للطائرات المقنبلة التي تلحق لإبادة الاهداف وهي التي يسمونها " النحل القاتل ". أما صواريخ الحسين فإن الأقمار الصناعية هي التي تتولى الكشف عن منصاتها ومواضع إطلاقها . لكن ذلك لم يمنع العراق من إطلاق حوالي ثمانين صاروخا في الجملة .

وبعد أن أيقنت امريكا أن التدمير بلغ حدا مرتفعا بدأ التفكير الجدي في الهجوم البري . وقد أطلق فيما بعد على المعركة البرية آسم "حرب المائة ساعة" ولكن هل وقعت حقا معركة برية كما يقال ؟

" ام المعارك " لم تقع أو ملابسات المعركة البرية الوهمية

لقد أظهر العراق حرصا شديدا على خوض المعركة البرية وبدا كانّه وضع كل آماله فيها لاقتناعه بأن تواصل القصف بالقنابل والتدمير سيجعل هذه

المعركة مخسورة مسبقا . ولم يكن بإمكان العراق شنها بالمبادرة بالهجوم لأن قواته أقل حركية معتمدة على التحصينات التي لا يمكنها مبارحتها وإنما تنتظر مقدم العدو إليها حتى لا تعرض نفسها للإبادة ، هذا بالاضافة إلى أنها تشكو صعوبة الإمداد نظرا للتدمير الذي أصاب المواصلات .

ولكن بعد أن فشل العراق في جر التحالف إلى الحرب البرية خلال الأسبوعين الأولين من بدء الحرب ، وبعد أن فشل في جر اسرائيل لتوسيع رقعة الحرب والخروج من العزلة ، وعندما بدأ يشعر أن معنويات الشعب اصبحت تتأثر من كثافة القصف والتدمير وارتفاع عدد الضحايا بمثل قصف ملجأ العامرية وأن صعوبة إمداد القوات في الكويت أمست تتزايد ، بدأ التفكير جديا في الجلاء عن الكويت وقبول قرار مجلس الأمن 660 يأسا من جدوى معركة برية تأخرت عن الموعد الذي يمكن للعراق أن يجني فيه شيئا منها . هذا التأخر قد يجعل منها بالعكس كارثة . لأجل ذلك ، بادر العراق يوم 91.2.15 ، بعد شهر كامل من الصمود أمام التدمير الشامل ، بتقديم مقترحات سلام في سبع نقاط تمثل شروطا رفضتها امريكا رفضا باتا لأنها قدّرت أن قبولها انتصار سياسي للعراق بدون هزيمة عسكرية رغم أن الجلاء عن الكويت يمثل انتصارا سياسيا لامريكا أيضا .

فهذا الحل المثالي للسلام الذي يحفظ ماء الوجه للجميع رفضته أمريكا بشدة داعية إلى قلب صدام حسين بعد أن فهمت أنها كسبت الحرب قبل شن المعركة البرية . ولذلك طالبت من جديد بالاستسلام

دون شروط والانسحاب من الكويت . لكن العراق كان يعرف أنه لا يمكنه بدون ضمانات الإعلان عن بدء الانسحاب لأنه يعرض بذلك قواته إلى التقتيل في أسوأ وضع وهو وضع الانسحاب في العراء خارج التحصينات . ولهذا شرع العراق في سحب قواته دون الإعلان عن ذلك رسميا إذ لم يعد ثمة مبرر لتواصل بقائها في الكويت بعد الإعلان عن قبول مبدإ الانسحاب يوم 91.2.15 . فأي جيش سيقاتل بمعنويات مرتفعة بعد أن علم أنها لم تعد أرضه وأنه سينسحب منها ؟ . فالقتال من أجل الكويت فقد كل معنى بعد ذلك التاريخ . وقد تم فعلا سحب عدد هام من القوات العراقية خلال الأيام التي تلت الإعلان وذلك تحت جنح الظلام أو تحت جنح سحب الدخان الكثيفة المنبعثة من آبار النفط المحترقة .

وقد تقدم الاتحاد السوفياتي لإنقاذ الموقف بحل في ثماني نقاط أعلن العراق قبوله له ليلة 91.2.20 وأرسل طارق عزيز إلى موسكو للتشاور. وقال صدام حسين في خطابه يوم 91.2.21 " اذا رفضت مقترحاتنا ، تكون الأقنعة قد سقطت لتكشف المعتدين " وآنتقد مزايدات بوش وفهد الذين أصبحا يطالبان بأكثر مما كانا يطالبان به في البداية .

وفي هذا الخطاب الشديد اللهجة عبر عن الاستعداد للتفاوض والانسحاب من الكويت لكن بدون استسلام .

ورغم أن الاتحاد السوفياتي قد عدّل مقترحاته مرارا بقبول أهم شروط أمريكا فان ردّ امريكا كان الرفض والحث بصفة مفضوحة على قتل صدام حسين .

وكان واضحا ان الموقف السائد آنذاك في امريكا هو نفس الموقف الاسرائيلي وهو ما عبر عنه أحد الصحافيين الامريكيين بقوله : " اذا خرج صدام حسين من الازمة بجيشه سالما ، فاننا نفقد مصداقيتنا في العالم ، وتتزعزع أنظمة حلفائنا العرب ..."

لذلك بادرت الادارة الامريكية بإصدار إنذار جديد يوم 91.2.22 لا يترك للعراق إلا أربعا وعشرين ساعة للانسحاب . وحين أعلم الاتحاد السوفياتي امريكا بقبول العراق للحل السوفياتي كان الجواب أن الوقت قد فات وأن المعركة البرية قد بدأت بعد فجر يوم 91.2.24 . لكن هل جرت هذه المعركة حقا ؟

وهل كان تصلب الموقف الامريكي تعحيزا للعراق وإصرارا على الحرب والتدمير فحسب أم دليلا على أن بوش كان يعلم آنذاك أن الجيش العراقي بدأ الانسحاب منذ أيام وفهم أنه إن لم يعجل بشن المعركة البرية فانها لن تقع . أغلب الظن أن كل ذلك يكمن وراء التعجيل بتقصير المدة الممنوحة للعراق من أسبوع الى يوم واحد .

وقد تظاهر الغرب بأنه فوجيء بضعف المقاومة العراقية في الكويت ليبرز سهولة نصر وهمي لأن أهم القوات العراقية قد انسحبت بعد . ومع ذلك فقد صبت القوات الامريكية نقمتها على فلول الجيش العراقي التي مازالت بصدد الانسحاب وأعملت فيها التقتيل بشكل وحشي بشع مقترفة مجازر فظيعة للغاية .

قافلة الموت

ومن أشد هذه المجازر ما حدث يوم 91.2.26 لتلك القافلة الضخمة المتركبة من حوالي ألف عربة ملأى بالعائلات العراقية والفلسطينية والجنود في طريقهم من الكويت إلى البصرة على امتداد عشرة كيلومترات . وكانت تتقدم قافلة العربات المدنية بضع عشرات من الدبابات .

وبينما القافلة تتقدم متراصة على الطريق هاجمتها فرقة من الدبابات الأمريكية ودار قتال عنيف مع الدبابات العراقية التي تتقدم القافلة بجنود يريدون العودة إلى ديارهم بعد أن تقرر الانسحاب فاضطروا إلى القتال اضطرارا فكان قتال اليأس . ورغم رفع المدنيين في القافلة الأعلام البيضاء ، فان الطائرات الأمريكية قد جاءت لتكمل عمل الدبابات بإلقاء قنابل النابالم الحارقة والقنابل العنقودية التي تحوي كل واحدة منها حوالي 250 قنبلة صغيرة تنفجر الى حوالي ألفي شضية .

وهكذا تحولت القافلة بأكملها في نصف ساعة بعرباتها ورجالها ونسائها وأطفالها إلى مارد من نار تأتي على كل شيء . فكان مشهدا مريعا شبهه ضابط بريطاني بيوم القيامة وأكد غيره أنه لم ير قط مشهدا أفظع ولا يظن أنه حدث منذ هيروشيما أن تجمّع مثل ذلك العدد من الموتى في المتر المربع .

وفي نفس ذلك اليوم المشؤوم ، تكررت المجازر على

جميع الطرق التي مرّ منها المنسحبون او الفارون من الكويت الى العراق .
ورغم هذه الفضاعة التي لم يكن ثمة ما يبررها إطلاقا لم يتورع بوش من ان يعلن من الغد 91.2.27 أن هذا النصر " نصر للجنس البشري من أجل القانون والخير ".
وتؤكد جميع الشهادات وخاصة شهادات الأطباء الذين تطوعوا للعلاج في العراق أن المعتدين على العراق قد تعمدوا ضرب الأحياء الشعبية والتجمعات السكنية وأن المدنيين قد عانوا من المجاعة ، وأن عدد الضحايا يعد بمآت الالاف ، لان عدد الجرحى يعادل عدد الموتى ولكنهم في الغالب يموتون بدورهم لنقص العلاج والأدوية ، كما توفي آلاف الاطفال بالإضافة إلى ذلك نتيجة سوء التغذية وسوء الأحوال الصحية . فالمقاطعة حرمت الأطفال حتى من الحليب رغم أن ال[illegible] رفع صوريا عن الحليب للأطفال الذين سنهم دون ستة أشهر كأن بقية الأطفال لا يحتاجون إلى حليب ، وكأن أصحاب هذه القرارات الهمجية لا يشعرون بفظاعة الجرائم التي يرتكبونها في حق الإنسانية بمثل هذه التصرفات التي لم يكن أحد يتصور أنها مازالت تحدث في العالم الغربي المتحضر وهو على أهبة دخول القرن الواحد والعشرين .
إن العالم لن يعرف قريبا عدد الضحايا في العراق وربما لن يعرف ذلك أبدا ولكنه يبقى دون ريب رقما مهولا .

وقف القتال وملابساته

والواقع أن الأيام والساعات التي عقبت شن الهجوم البري على القوات العراقية كان بمثابة السباق مع عقارب الساعة ، فقد كان ممثل العراق لدى الامم المتحدة يتصل ببلاده عن طريق السوفيات لانعدام المواصلات المباشرة نتيجة التدمير. وقد بقي أكثر من ثلاثة أيام ينتظر الجواب من صدام حسين على الشروط الأمريكية . وعندما وصلته رسالة طارق عزيز متضمنة قبول القرارات 660 (اي الانسحاب من الكويت) و674 (اي التعويض) بشرط وقف القتال حالا وإلغاء باقي القرارات ، سارع بإيصالها الى مجلس الأمن فكان الجواب هو رفض أي حوار حول وقف القتال ما لم يتم قبول جميع القرارات (وعددها 12) . واشترطت امريكا رسالة أخرى في الغرض . وقد اتضح أن هذه المناورة الامريكية الجديدة إنما كانت تهدف إلى إعلان امريكا إيقاف القتال قبل أن تصل موافقة العراق . ففي نفس الوقت كان قائد القوات الامريكية في الخليج شوارزكوف يعلن مباشرة عبر قناة س. ن . ن عن النصر ، ولذلك قرر بوش تقديم موعد الإعلان عن وقف القتال حتى يتم من جانب واحد قبل وصول رد العراق وحتى يكون وقفا من جانب المنتصر وكي يكون قبول العراق مجرد إقرار بالأمر الواقع لا نتيجة تفاوض فيحرم حتى من فضل المشاركة في إيقاف المعارك .

بيد أن الشكل الذي تم به إعلان امريكا وقف

القتال ، لم يخل من المفاجأة وإثارة التساؤل ، ذلك أن أحد الأهداف المعنلة لم يتحقق وهو الإطاحة بنظام صدام حسين . فلم سارعت امريكا إلى وقف القتال قبل الوصول إلى بغداد للاطاحة بنظامها ؟ لقد كان ذلك مصدرا لعديد الافتراضات المتباينة التي لا تخلو كل واحدة منها من جزء من الحقيقة المعقدة .

أغلب الظن أن امريكا اعتبرت أنها قد حققت انتصارا سهلا نسبيا لأن الجيش العراقي انسحب من الكويت دون معركة برية حقيقية كان التحالف أول الامر يخشاها ويتجنبها بالتأجيل ، فخسائر التحالف خلال المعارك لم تبلغ 300 قتيل حسب المصادر الغربية الرسمية . أما بعد أن دخلت القوات الأمريكية أرض العراق وبدأت تواجه الحرس الجمهوري ، فإن توغلها في أرض العراق إن هي أرادت بلوغ بغداد لا يكون سهلا ، فالجيش العراقي هنا ليس فلولا منسحبة إنما هو في عقر داره وسط شعب مسلح ، فالخسائر الامريكية في هذه الحالة لا يمكن أن تكون طفيفة . ثم إن احتلال العراق لن تكون له في نظر العالم ونظر الرأي العام الامريكي نفس مشروعية " تحرير الكويت " . فالرأي العام الغربي الذي ساند الحرب عموما الى هذا الحد ، من الأرجح أن لا يساندها فيما بعد إن هي خرجت عن إطار قرارات الأمم المتحدة بشكل مفضوح أكثر مما حدث . فإيقاف القتال من موقع قوة مع احتلال جنوب العراق وفرض كامل الشروط الامريكية عليه، يجعل امريكا مبدئيا قادرة على تحقيق ما شاءت من الأهداف بعد ذلك بطرق أخرى غير الحرب

ودون فضائح أو تكاليف باهضة وبأساليب أخرى أكثر نجاعة وخبثا . كما أنها توفر لنفسها الوقت لتقييم الأوضاع في كامل المنطقة تقييما يمكنها من ضبط المستقبل الذي تريده للعراق دون تسرع أو ارتكاب لأخطاء قد تندم عليها بعد فوات الأوان ، بما في ذلك مصير صدام حسين الذي يحتاج في الظرف الراهن الى تحليل دقيق قبل البت فيه خصوصا في ضوء تمرد الشيعة الموالين لايران في جنوب العراق وتمرد الأكراد في شماله .

أما من جانب العراق ، فإن قبول جميع الشروط الامريكية كان في نظر جانب من الرأي العام العربي خيبة أمل كبرى بمثابة الهزيمة ، بينما كان بالنسبة الى البعض الاخر انتصارا لأن صدام حسين بقي حيا يحكم العراق ولم يفقد كامل قدراته . هذا فضلا عن أصوات الشماتة لدى البعض الآخر من الذين لهم حساب خاص مع شخص صدام حسين .

والمهم في موقف القيادة العراقية هو أنها كانت في النهاية واقعية إذ فهمت أنها وصلت إلى أقصى ما يمكن لها أن تصل إليه من الصمود وأن المواصلة تعني الانتحار خصوصا بعد أن أعلنت منذ 91.2.25 استعدادها لإجلاء الكويت ، فأي معنى لمواصلة القتال بعد الاعتراف بانها لم تعد قادرة على ضم الكويت ؟ لذلك فضلت القيادة العراقية المحافظة على ما تبقى لها من قوة عسكرية لمجابهة المخاطر الداخلية التي تغذيها دون ريب أطراف خارجية . فلو تواصلت الحرب وتواصل التدمير لارتفعت الخسائر من الجانبين ولكن العراق يصبح في وضع لا يسمح له بالحفاظ على وحدته . فالاختيار كان لأخف

الضررين . فمن البساطة اعتباره نصرا ولكنه إيقاف للنزيف لا ينقص كثيرا من قيمة صمود العراق صمودا اضطر إليه بعد أن سدت أمامه الأبواب فلم يبق إلا الاستسلام أو الصمود إلى آخر حد ممكن .

لكن بإيقاف القتال ، هل انتهت الحرب وأسدل الستار على أزمة الخليج ؟ كلا ، فالوضع أصبح اكثر تعقيدا لأن مخلفات الأزمة وأبعادها أكثر من أن تحصر . لذلك يكون من المفيد ، لفهم هذه الأبعاد والمخلفات ، تحليل مواقف جميع الأطراف المعنية منها .

III

الأطراف الفاعلة

المواقف والمسؤوليات

لقد حصل شبه إجماع دولي على إدانة عملية اجتياح الكويت في 2 -8 - 90 ومع ذلك ، فالعراق ليس البلد الوحيد الذي يجتاح بلد آخر ، فالعالم مفعم بالأحداث التي يمكن أن تقارن إجمالا باجتياح الكويت وإن لم تماثله تفصيلا .

فاسرائيل في نفس المنطقة تحتل الأراضي الفلسطينية بالقوة منذ أكثر من أربعين عاما وتحتل أراضي عربية أخرى في سوريا ولبنان منذ سنين عديدة بمنطق القوة ، والصين التي أدانت العراق تحتفظ بالتبت بنفس منطق القوة .

والولايات المتحدة اجتاحت قرانادا وباناما وغيرت بالقوة حكامها . فهل يكمن الفارق في أن العراق اجتاح بلدا عضوا في الامم المتحدة وأعلن ضمه اليه ؟ أم في أن البلد المعني زاخر بالبترول ؟ أم في أن صدام حسين لم يحسن تقدير العواقب ولم يهيء الرأي العام الدولي للعملية التي أقدم عليها بحكم ما ينسبه إليه بعض الملاحظين من أن في طبعه خاصية تتمثل في أنه يبادر بعمل غير مدروس جيدا ثم يعكف على معالجة نتائجه ، فضلا عما ينسب إليه

من سوء معرفة بالعالم الخارجي وما وصف به الاعلام العراقي في هذه الأزمة من قصور عما يتطلبه الحدث ؟ أم إن الأمر يكمن في كل ذلك معا وفي غيره من العوامل المتصلة باختلاف الوضع الدولي وتطوره بالمقارنة مع ما كان عليه من قبل في الأزمات الاخرى ؟ .

إن محاولة الإجابة عن مختلف هذه التساؤلات يقتضي استعراض مختلف المواقف وتبين مسؤوليات جميع الأطراف الفاعلة بصفة مباشرة أو غير مباشرة في هذه الأزمة الخطيرة لفهم المنطق المتحكم في هذه المواقف ولتحديد المسؤوليات ، في المستويين العربي والدولي .

المواقف العربية والإسلامية
العراق ومنطق التحدي

من خلال هذه الازمة لا يمكن فهم مواقف العراق بدون محاولة فهم شخصية صدام حسين التي طبعت مواقف العراق في السنين الاخيرة الى حدّ الامتزاج ويمكن تبين السمات البارزة في هذه الشخصية من خلال المواقف والتصريحات والسلوك السياسي والتعامل مع أزمة الخليج بالخصوص ومن خلال شهادات الذين اتصلوا به .

شخصية صدام حسين

ليس الهدف من هذه الفقرة تحليل شخصية صدام حسين باعتماد علم النفس أو بالرجوع إلى طفولته ومراحل حياته الخاصة والعامة وإنما الخروج بصورة عامة عن شخصيته قائدا من خلال الصورة التي يحملها عنه الذين تعاملوا معه من غير مساعديه ، لأن ذلك هو الذي قد فسّر سلوكه السياسي مع الغير وسلوك الغير معه .

من السياسيين غير العرب الذين مارسوا صدام حسين ممارسة قد تسمح لهم بإصدار أحكام لا تخلو من المصداقية لأنها قد تكون أكثر موضوعية ، نجد الديبلوماسي السوفياتي اندري بريماكوف الذي كان الوسيط الأساسي بينه وبين القادة السوفيات في السنين الأخيرة . وهو يصف صدام بأنه شديد الى حدّ القسوة ، ذو إرادة صلبة الى حدّ التعنت مع نزعة إلى الارتماء في اتجاه الهدف دون تقدير العقبات أو الثمن . ويرتبط ذلك كله بتصور مفرط للكرامة والشرف ، ورغم انه عقلاني فانه يمكن أن يفاجيء بالانعطاف وتغيير الاتجاه . ويضيف بريماكوف أن صدام لم يكن يهتم الا بالأخبار الإيجابية وان من يريد أن يعلمه بالسلبيات كان يخشى على نفسه منه . لكن بشير بومعزة في حديثه عنه لمجلة جون افريك (عدد 1577بتاريخ 20 / 26-3-1991) يؤكد على أن قدرته على الاستماع كبيرة ويعتبر انه يريد بذلك الإفلات من حصار الحكم . أما محمد البصري فانه

يصفه في حديث لنفس المجلة (عدد 1550 بتاريخ 18/ 12-9-1990) بانه عنيد لا يخضع للعواطف ، عنيف وانه رجل صراع وتحدٍّ مع عزة نفس واحساس قوي بالكرامة وينسب اليه قوله " لا يمكن بلوغ الهدف بدون ضغط أو عنف " ويقول عنه وزير دفاع امريكي أسبق وهو كاسبار واينبرغر انه قد يكون مغامراً ولكنه ليس متهوّراً . وهو طموح يحسب ، قادر على ان يكون مرنا .

والصورة التي حرص الغرب السياسي والإعلامي على تقديمها عنه خصوصا منذ انطلاق أزمة الخليج هي اتسامه بالدكتاتورية والقسوة والطموح الجامح . ولكن ما يجعل هذه الحملة ضده فاقدة للمصداقية هو ان هذه العيوب ليست حكرا عليه في المنطقة ولم تستغل ضده الا منذ اندلاع الأزمة الأخيرة . بل لعل بعض الذين يشاطرونه هذه العيوب في المنطقة يقلّون عنه شعورا بالكرامة ورغبة في التقدم وحرصا على الاستقلال . ولعل الصفة التي بهرت جميع من اتصلوا به خلال الأزمة الاخيرة هي رباطة الجأش والتحكم في الأعصاب . وقد عاد الامين العام للامم المتحدة بريز دي كويار من آخر لقاء معه مبهوتا من ذلك رغم الأخطار المحدقة به ورغم حرب الأعصاب التي شنها عليه الغرب طيلة أشهر حتى إن البعض أصبح يشك في وعيه بتلك الأخطار رغم أن البعض الآخر مثل المبعوث الفرنسي ميشال فوزال يؤكد ان صدام واع تماما بما قد يلحقه من دمار في حالة نشوب الحرب .

وقد عبر بيتر ارنات مبعوث الشبكة التلفزية الامريكية " س – ن – ن " الذي أجرى معه حديثا في

أوج الحرب عن تعجبه من هدوئه رغم عنف القصف الجوي على بغداد . فهل يكمن سرّ ذلك في ما وصفه ماكسيم رودنسون بتناذر اللاعب وهو ما يجعله يضع مطامحه في مستوى رفيع جداً ؟ وهل بالغ اذا في مطامحه وفي تقدير قواه ؟ وهل طالب شعبه وجيشه باكثر من طاقتهما ؟ وهل كان متصلبا اكثر من اللزوم ؟ ام كان تقديره لقوى الخصم دون الحقيقة ؟

مدى الوعي بالمشاكل الأخطار

يبدو ان صدام حسين كان واعيا تمام الوعي بالمشاكل والأخطار المحدقة به . فقد رأينا أنه كان يشعر أن الغرب يريد به شرّاً بتأثير الأوساط الصهيونية . وقد صرح بذلك منذ أوائل سنة 1990، كما بدأ يشعر أن التفاوض مع الغرب لم يعد يجدي نفعا لأن الغرب لم يشأ فهم المغزى من الإعلان عن قدرته على تدمير نصف اسرائيل إن هي هاجمته . فلم ير في ذلك الا التهديد وتغافل عن الردع حتى لا يتكرر العدوان ، ثم بدأ يشعر أن الغرب يسعى الى استغلال اجتياح الكويت لسدّ المنافذ أمامه قصد ضربه ، وأيقن أن لا مفرّ له وأن عليه أن يدافع عن نفسه وبلاده . ويتضح ذلك بجلاء من خلال حديثه مع السفيرة الأمريكية قبل الاجتياح ومع نائبها بعد الاجتياح وكذلك مع دي كويلار وبريماكوف .

ويذكر بريماكوف في هذا الصدد ان صدام حسين يعتبر ان العراق أصبح هدف " مؤامرة متعددة الاطراف " منذ انتصاره على ايران ، يشارك فيها

الى جانب اسرائيل وامريكا بالخصوص الكويت وبعض حكام الخليج . وان الهدف من ذلك هو دفع العراق الى الانهيار الاقتصادي .
ولعل هذا الشعور بالمحاصرة والمضايقة هو الذي يدفعه أحيانا الى التصلب . لكن مواقفه لم تخل رغم ذلك من مظاهر المرونة والبحث عن المخرج من المآزق . فرغم أنه خلال حديثه مع بريماكوف هدد في حالة الحرب باستعمال جميع ما لديه من عتاد وبتوسيع رقعة الحرب الى اسرائيل مؤكدا قوله : " اذا وجب الاختيار بين الاستسلام والقتال فاني أختار القتال " ، رغم ذلك اضاف طالبا من مخاطبه نقل كلامه بدقة وأمانة "انني واقعي وأفهم حقيقة الوضع ، ولكني لا أستطيع حل مسألة الكويت اذا لم يكن ذلك مرتبطا بحل القضايا الاخرى بالمنطقة كما قلت يوم 12-8-90 . ولكني أريد ان أكون واضحا ، فرزنامة حل القضية الفلسطينية يجب ان تناقش في اطار مفاوضات". واعتمادا على هذا الكلام قرر غورباتشوف مواصلة المساعي من اجل حلّ "يحفظ لصدام حسين ماء الوجه دون مكافأة على عدوانه".
وقد لاحظ بريماكوف في لقائه الموالي بصدام حسين تطوّرا في موقفه في اتجاه المرونة ، فلم يعد الى موضوع الحق التاريخي على الكويت وانما ركز حديثه على الضمانات في حالة الانسحاب . وعندما أكد له مخاطبه أن الهجوم على العراق لا مفرّ منه بدون انسحاب فعلي من الكويت أجابه : كيف يمكنني الإعلان عن انسحاب القوات إذا كنت لا أعلم كيف سيتم جلاء القوات الامريكية من السعودية وهل سترفع العقوبات المقررة ضد العراق وكيف

يتم ضمان المنفذ البحري الضروري لبلادي ، وهل يوجد ربط ما بين الانسحاب من الكويت وحل القضية الفلسطينية ؟ فبدون معرفة ذلك لا يمكن القيام بأي شيء لأن ذلك يكون بمثابة "الانتحار" ليس بالنسبة إلي فحسب وإنما كذلك بالنسبة إلى العراق .

واعتمادا على هذا الموقف المتهيء للحلّ ، طلب بريماكوف إرجاء صدور قرار تحديد تاريخ لانسحاب العراق لاعتقاده ان صدوره يدفع بصدام الى التصلب من جديد . وهو ما حدث فعلا عندما لم تستجب امريكا للطلب السوفياتي وعملت على صدور القرار 678 القاضي " باستعمال جميع الوسائل اللازمة " اذا لم ينسحب العراق من الكويت قبل 15-1-91 .فجاء الأجل ولم ينسحب كما كان متوقعا .

خطاب صدام بين العقلانية والغيبية

ويتضح من كل هذا ان صدام حسين كان يعتبر أن الإعلان عن الانسحاب بدون اي ضمان هو استسلام يساوي الانتحار ، يفضل عليه حربا مخسورة مسبّقا لكن فيها شرف المقاومة . فقد سلم اذا أمره إلى الله . وبعد ان كان خطابه عقلانيا بالاساس أصبح بعد تضييق الخناق عليه مزيجا من العقلانية والغيبية كما يتبين ذلك خاصة في اول حديث له مع شبكة س -ن-ن بعد اكثر من عشرة أيام من بدء الهجوم الجوي على العراق . فهو من جهة يحلل تناقض الغرب الذي يحجز العراقيين بعد أن اطلق العراق سراح الغربيين ، ويؤكد حرصه على كشف الحقيقة للشعب

الامريكي لأن بوش كذب على شعبه واقتناعه بان الشعوب الغربية في حاجة الى صمود العراق ورفضه لعسف قادتهم ، وهو يبين أن دعوة بوش الى الحوار قبيل الحرب لم تكن الا مناورة وأنه أيقن عند ذلك أن بوش قرر الحرب ولكنه اراد الايهام بانه لم يترك فرصة لم يستغلها للوصول إلى حل سلمي . وانتقد نفاق بعض السياسيين الغربيين الذين زاروه وأكدوا له ان الحرب لن تقع الا من أجل الرهائن ، فاذا أطلق سراحهم لا تقع الحرب ، وتبين له من بعد أنه لو ابقى عليهم في بغداد لما هاجمها بوش . ولكنه لا يشعر بالندم على ما فعل لانه يريد ان تكون حربه نظيفة .

ويسخر من امريكا التي أصبحت تستجدي المال للعدوان على بلد صغير وتجمع حولها للغرض ثلاثين دولة ، معتبرا أن قرار الحرب افقد امريكا مكانتها كدولة عظمى . ويتهكم على ممارسات الصنصرة في بلاد الديمقراطية ويؤكد أنه يميز بين الشعوب الغربية وقادتها الأشرار الذين يغالطونها . ويعلل إطلاق صواريخ الحسين على اسرائيل بانها هي سبب الحرب الرئيسي معتبرا ان هذه الحرب هي حرب الصهيونية التي تحتل الاراضي العربية وتقتل الفلسطينيين . ويتهم امريكا بتحريض الكويت للتآمر على العراق وببدء الحظر في الحقيقة قبل 2-8-90 بخمسة أشهر كما يحملها مسؤولية تلوث مياه الخليج نتيجة قصفها ناقلات النفط العراقية . ويؤكد أنه سعى إلى تجنب اراقة الدماء وان الحل ليس في الحرب .

ومن جهة أخرى يخلط هذا الخطاب السياسي

العقلاني بخطاب غيبي لا يمكن للرأي العام الغربي أن يفهمه أو أن يقتنع به إطلاقا . فهو يعلل إطلاق اسم "ام المعارك" على هذه المعركة بأن الله يقودها وبأنها حرب ضد الشيطان الذي في بوش ومن كان الله معه لا يغلب . وعلى هذا الاساس يعتبر ان النصر او الهزيمة ليسا في كسب معركة او خسرانها وانما في كسب رضا الله وكسب قلوب الناس ، فالمهم ليس من سينتصر ومن سينهزم وانما هو الله مع من والشيطان مع من ؟ . هذا الخليط من العقلانية والغيبية يوقعه كما نرى في التناقض ويضعف من قوة الحجة والاقناع . ولنا أن نتساءل هل اثر هذا المنطق في موقف العراق تجاه الحرب ؟

الخطة العراقية لمواجهة الازمة

إن أبسط طريقة في الحكم على خطة من الخطط تتمثل في تقييم نتائجها ، فيحكم لها بالنجاح أو عليها بالفشل طبقا لما آلت اليه . لكن الموضوعية تتطلب تحليل نقاط القوة ونقاط الضعف فيها في حدّ ذاتها باعتبار أن النجاح او الفشل مسائل غير مطلقة وإنما هي نسبية ، بالأضافة إلى تأثير عوامل خارجية عنها قد تدخل ضمن الحساب وقد لا تدخل . وعلى هذا الأساس نحاول أن نبين خصوصيات الخطة العراقية لمواجهة الأزمة سياسيا وإعلاميا ولمواجهة العدوان عسكريا .

الخطة العراقية السياسية

لا يمكننا أن نتحدث عن خطة عراقية لاجتياح الكويت أو ضمه لأننا لم نلمس ما يؤكد وجود إضمار وسياسة مسبقة تهدف إلى تحقيق ذلك بل جلّ المؤشرات تدل على أن قرار الاجتياح حديث العهد وقد لا يتجاوز الأسابيع أو حتى الأيام . فمن يريد الإقدام على عمل بهذا الحجم يمثل سابقة منذ انبعاث منظمة الامم المتحدة . لا بدّ أن يهيء الرأي العام الوطني والعربي والدولي . أما اجتياح الكويت بمثل ذلك الشكل فلا يخلو من عنصر المفاجأة . والذين يذهبون إلى أن مرد ذلك هو أن القوات الامريكية كانت تعتزم دخول الكويت في نفس الوقت وأن العراق علم بذلك فسبقها فأغلب الظن أن المعطيات تفنّد هذا الرأي وتؤكد بالعكس أن المناخ قد تهيأ بدفع العراق الى هذه المغامرة دفعا كما سبق أن رأينا .

فالخطة العراقية تبدو قد ضبطت بعد 2 أوت شيئا فشيئا ، فلم تخل نتيجة ذلك من بعض الارتجال ومن بعض أخطاء التقدير إلى جانب نقاط قوة ثابتة .

فمن مظاهر الارتجال تبرير الاجتياح بتلبية نداء المعارضة الوطنية الكويتية ، وتكوين حكومة كويتية وهمية لم تتخذ الا قرارالمطالبة بالوحدة بعد أربعة أيام . فعملية الوحدة أو ضم الكويت الى العراق ، قد عقدت الأمور وجعلت التراجع أعسر وشكلت ضربا من الهروب إلى الأمام . ولذلك أيضا لم يخل التراجع من مظاهر الارتجال وأخطاء التقدير حتى

ان صدام حسين قارن اجتياح الكويت بفتح القسطنطينية الذي لم يتم من الوهلة الأولى . هذه المقارنة لم تكن في محلها من جميع النواحي ، وتركت انطباعا بأنه ان تراجع اليوم اضطرارا فانه قد يعيد الكرة في ظروف أخرى . فهو يبدو بمثل هذا الكلام غير مقتنع بالأخطاء ، وقد اعتبر كثير من الملاحظين أنه لو اقتصر على احتلال المناطق الحدودية المتنازع عليها ودخل بذلك في مساومة مع الكويت لكان الوضع مختلفا جوهريا . ولعل هذا هو أهم الأخطاء التي تعاب عليه عربيا ودوليا .

وبصفة عامة سعى العراق الى بناء خطته على اساس تعدد الأبعاد بعد الأخطاء الأولى : فالبعد العربي يتمثل في ربط قضية الخليج بسائر قضايا الشرق الأدنى ولا سيما القضية الفلسطينية . والبعد الاسلامي يتمثل في تقديم الأزمة في شكل صراع بين الإيمان وقوى الخير من جهة والكفر وقوى الشر من جهة أخرى . فالله مع العراق والشيطان مع أعدائه . وقد كان مما يبرر إبراز هذا البعد وجود بعض المؤشرات التي تجعل العدوان على العراق يبدو كانه حرب صليبية جديدة في أشكال أخرى خصوصا أن نزول قوات امريكية وغربية بالأراضي العربية في الجزيرة عدّ في نظر كثير من المسلمين تدنيسا لها ودوسا للمقدسات الاسلامية لأن كامل تلك الرقعة من الارض العربية قد أعلنت رسميا منطقة مقدسة . ولذلك حرص العراق على إضفاء صبغة القداسة والجهاد على هذه الحرب فرمز الى ذلك بتغيير العلم العراقي وإضافة عبارة "الله اكبر" فيه . اما البعد العالمي فيتمثل في تقديم هذه الحرب

على انها حرب الاغنياء على الفقراء وحرب الشمال على الجنوب . ولذلك وضع العراق شعار العدالة والنظام الاقتصادي العالمي الجديد ، ومقاومة الحيف والاستغلال وشعار استقلال القرار الوطني والتحكم في الثروات الوطنية والقومية . وقد بدأ العراق يبلور هذه الخطة المتعددة الأبعاد منذ 12-8-90 ثم أعطاها شكل حلّ في 15-2-91 . لكن مقترحاته قابلتها امريكا بالرفض البات في جميع الحالات جملة وتفصيلا .

ومن جهة أخرى بنى العراق هذه الخطة على جملة من المراهنات التي لم تكن في بعض الأحيان في محلّها :

فقد راهن على الجماهير العربية والاسلامية للتأثير على أنظمتها السياسية والضغط عليها في اتجاه تغيير موقفها من الأزمة . ولئن تعاطفت الجماهير العربية والاسلامية عموما مع العراق ضد المعتدين الغربيين فان ذلك لم يترجم سياسيا بعمل عميق من شأنه أن يغيّر الأوضاع أو المواقف والسياسات . كما راهن على الخلافات في صلب العائلة الحاكمة في السعودية بحكم اختلاف تقييم أفرادها للأزمة ووجود معارضة في صلبها لاستقدام القوات الامريكية وبحكم الخلافات التقليدية التي لها مع الأسرة الحاكمة في الكويت .

وكان تقدير العراق أن من مصلحة سوريا أن تفضل حلا سلميا على حلّ عسكري . كما سعى إلى كسب الرأي العام الغربي ولكنه لم يفلح في ذلك .

ومن جهة أخرى راهن العراق على مواقف متميزة للاتحاد السوفياتي والصين الشعبية وفرنسا ،

فالثلاثة أعضاء بمجلس الأمن وبامكانهم الحدّ نظريا من غطرسة امريكا وتبعية بريطانيا .
ومن أبرز مظاهر هذه الخطة ، السعي إلى الظهور في مظهر المتصلب لترهيب الخصم مع إظهار بعض المرونة من حين الى حين لتجنب الاستفزاز وترك الباب مفتوحا للتفاوض ، ولذلك دعا صدام حسين الى حوار تلفزي قائلا "اني مستعد للمشاركة حالا في مقابلة تلفزية مع بوش وتاتشر حتى يعرف العالم كل شيء ".

الخطة العراقية العسكرية

وبناء على هذه التقديرات التي لم تكن نظريا خاطئة ولكنها لم تحقق النتائج المرجوة منها بحكم ملابسات أخرى معقدة سنراها من بعد ، حدد العراق خطته العسكرية في جانبيها الردعي والميداني .
فالخطة العسكرية العراقية قامت أساسا على الجانب الردعي وذلك بكسب الوقت وتطويل مدة الأخذ والردّ حتى يفوّت على أعدائه فرصة الحرب والعدوان عليه . وقد نجح في ذلك نسبيا إذ تأخر موعد الهجوم مرارا وكادت ترجح كفة الحل السلمي احيانا كما رأينا .
وقد عمل العراق من أجل ذلك على اقناع الغرب أن إيهامه بأن الحظر لن يفلّ من عزمه ، وبأن الحرب إن اندلعت لن تكون قصيرة وانما تكون طويلة باهضة الثمن ، وبأن العراق لن يكون فيها وحده مما يجعل رقعة الحرب تتسع بشكل يتجاوز تقديرات أعدائه .
وفي هذا الاطار يندرج تهديده بتوسيع الحرب الى

اسرائيل باعتبارها وراء الأزمة وبأن أول صاروخ يسقط على بغداد يقابل بإسقاط أول صاروخ عراقي على تل ابيب . ويندرج في ذلك ايضا إلحاح صدام حسين على عدم جدوى التفوق الجوي . من ذلك قوله مخاطبا الغرب " تعلمون ان الطيران لا يمكن ان يحسم المعركة البرية . هذا قانون أثبتته جميع المعارك التقليدية ومعارك التحرير وآخرها حرب فيتنام " . وقد بالغ العراق في تقدير قوته لترهيب خصومه ، ولكنه ساهم بذلك في تغذية الدعاية الغربية ضده ، فأظهرته في مظهر القوة الرابعة في العالم لتبرير ضربه بقوة . وبديهي أن كل ذلك يدخل في الجانب الوقائي أو الردعي من هذه الخطة . وإلى جانب ذلك ركز العراق خطته على وضع جهاز دفاعي قادر في نظره على ردع خصومه عن مهاجمته بسرعة . وقد مكنه ذلك ايضا من كسب الوقت اذ اقتنع الخصم بضرورة رفع عدد قواته الى مستوى عدد القوات العراقية . فربح الوقت أساسي في هذه الخطة على أمل تغيّر الظروف لصالح الحل السلمي . ولهذا عمد العراق الى نشر قواته على كامل التراب الكويتي لتعطيل الهجوم البري والإنزال البحري . لكن هذا النشر يجعل هذه القوات من جهة أخرى مشتتة معرضة للعزل والتدمير .

وإذا كان الجانب الردعي قد مكّن من كسب الوقت فانه لم ينجح في ردّ المعتدين عن الهجوم بعد أن استكملوا الإعداد له خلال ستة أشهر تقريبا .

وقد نجحت اسرائيل بتنسيق مع امريكا في الإيهام بانها بقيت على الحياد في حين أن مشاركتها مع القوات الامريكية في العدوان بأشكال مختلفة يكاد

يكون من طبيعة الأشياء . وقد جعل هذا الإيهام العراق يبدو كانما فشل في جرّ اسرائيل لتوسيع رقعة الحرب .

أما في مستوى الخطة الميدانية ، بعد بدء الهجوم ، فان العراق نجح أول الأمر في استعمال بعض الخدع الحربية التي أدخلت الشك والبلبلة في صفوف المعتدين بعد أن ظنّوا في اليوم الأول أنهم دمروا الجزء الأهم من القوة الحربية العراقية ولا سيما منصات إطلاق الصواريخ . وكان أول تكذيب هو إطلاق صاروخ الحسين على تل أبيب ، وقد أصبح المعتدون عاجزين عن تقدير خسائر العراق وإمكانياته الحقيقية فتكاثرت التصريحات والتقديرات المتناقضة واستغل ذلك مرة أخرى لتضخيم قوة العراق وأهمية مخابئه الأرضية ولتبرير عمليات التدمير الشامل .

وإلى جانب هذا عمل العراق على عدم تعريض سلاحه الجوي للتدمير ، فخبأ ما أمكن وهرّب الباقي إلى ايران ليقينه أن ذلك لن يفيده في هذه المرحلة من القتال وان المكاسب من استعماله دون الخسائر بكثير .

والواقع أن نجاح هذه الخطة في البداية قد جعل خصوم صدام حسين يغدقون عليه صفات القائد المحنك الذكي صاحب الخداع والحيل الحربية بشيء من الإعجاب الممزوج بنية إظهاره في مظهر العدو الخطير الذي يجب كسر شوكته . ويذكرنا تعامل الإعلام الغربي المدني والعسكري مع هذا الجانب من الخطة العراقية بسلوك الفرسان من أمثال عنترة بن شداد الذي يمجّد خصمه ليبرّر فخره بالانتصار

على " مدجج كره الكماة نزاله ".

خطة الانسحاب والحفاظ على القوى

واذا كانت الخطة العراقية من أسباب تأخير المعركة البرية ، فانها كانت من أسباب تكثيف الغارات الجوية على العراق طيلة أكثر من أربعين يوما حتى تجاوزت المائة الف غارة قصد تدمير العراق تدميرا شاملا يشل قواه ويجعله عمليا عاجزا عن خوض المعركة البرية .

وبعد أن كان العراق يراهن على المعركة البرية ، فهم أن خطة أعدائه المتمثلة في تدميره بالقنابل لن تمكنه من جني اي ثمرة من خوض المعركة البرية فعمد بعد أقل من شهر من بدء عمليات القصف ، إلى تغيير خطته من الصمود الى الانسحاب من الكويت دون الإعلان عن ذلك أول الأمر . ولم يعلن العراق عن استعداده للانسحاب من الكويت الا بعد ان شرع فعلا فيه تحت جنح الظلام وسحب الدخان المتصاعد من آبار النفط الكويتية المحترقة .

ولقد أشار الغربيون إلى وجود تحركات عسكرية عراقية غير مفهومة ، فهل كانت فعلا كذلك أم إنهم تظاهروا بذلك للإيهام بأنهم خاضوا فعلا معركة برية وانتصروا فيها ؟ .

ولقد أكد استنطاق بعض الأسرى العراقيين أن الإعلان عن الاستعداد للانسحاب في 15--2--91 ، قد مس معنويات من تبقى من الجنود العراقيين في الكويت إذ لم يعد ثمة في نظرهم ما يبرر الدفاع عن الكويت . كما ان قلة عدد الأسرى نسبيا وانعدام

الضباط السامين ضمنهم يؤكد ايضا أن الجزء الأهم من القوات العراقية في الكويت قد تم سحبه قبل الإعلان عن قبول الانسحاب . ولئن بدت هذه الخطة مناقضة تماما للتصريحات العراقية العديدة المراهنة على المعركة البرية ، مما أصاب الجماهير العربية بخيبة أمل كبرى ، فإنها في الحقيقة تندرج ضمن الجانب الأهم من الخطة العراقية الكبرى وهو المحافظة على أكبر جزء من القوى وعدم تعريضها الى التدمير المجاني وذلك للمحافظة على ما تعتبره القيادة العراقية أهم من الكويت وهو وحدة العراق من جهة وبقاء نظامه من جهة أخرى . وقد بينت الأحداث فيما بعد ، عندما اندلعت ثورة الشيعة في الجنوب وثورة الاكراد في الشمال ان هذه التقديرات العراقية لها ما يبررها .

نقائص الاعلام العراقي

واذا كانت الخطة العراقية على الصعيدين السياسي والعسكري لا تخلو في نفس الوقت من نقاط قوة ونقاط ضعف قد تختلف فيها الآراء والتقييمات فان الخطة الإعلامية بقيت تشكو فيما يبدو لنا نقائص كبرى .
فكأن الإعلام موجه بالأساس الى الرأي العام العراقي . أما الرأي العام الغربي الذي لا يمكن التأثير فيه الا باختراق إعلامه ، فان المحاولات التي تستحق الذكر لا تكاد تتجاوز بعض تصريحات صدام حسين المتفاوتة النجاح .
ولم تخل تصريحات بعض المسؤولين العراقيين من

الضعف مثل تصريح وزير الإعلام على شاشة التلفزة الفرنسية بأن كل طيار يسقط في العراق يؤكل لحمه . فهذا الكلام من قبيل التخويف ولكنه يؤلب " العالم المتحضر " ضد " الوحوش ".

الأخطاء العراقية

ولقد أكدت كثير من المصادر الإعلامية على " أخطاء " صدام حسين . ونحن نعتقد أن ثمة اخطاء فعلا ، كما ذكرنا ، ولكن في كثير من الاحيان يبقى الأمر نسبيا لا بدّ فيه من أن نأخذ بعين الاعتبار جميع المعطيات والملابسات بما في ذلك ما هو خارج عن الإرادة الذاتية وإن أمكن إقحامه بدوره في أخطاء التقدير والحساب .

هذه النسبية هي التي تدفعنا الى عدم الخوض في جدل الأخطاء رغم أن الأسئلة التي يمكن إلقاؤها في هذا الصدد عديدة لا تحصى . فما الجدوى مثلا من طرح السؤال عن عدم استخدام جميع الأسلحة بما فيها الأسلحة الكيمياوية كما هدد بذلك العراق في البداية ؟ .

جزء هام من الرأي العام العربي يعيب عليه ذلك ، في حين أنه قد يكون من البديهي أن قوة الردّ الغربية في هذه الحالة تتجاوز بكثير قوة الردع العراقية بما فيها الكيمياوية .

إن عشرات الاسئلة من هذا القبيل يمكن أن تلقى وأن تكون موضوع جدل ليس دائما عقيما .

بيد أن بعض الأخطاء في التقدير تبدو لنا غير

قابلة لأن تكون موضوع خلاف جوهري . من ذلك مثلا سوء التقدير لتغيّر موازين القوى الدولية وما آل اليه من نهاية الحرب الباردة بنهاية الاستقطاب الثنائي وتفرد الولايات المتحدة بالهيمنة على العالم ، ولطبيعة الوضع العربي كذلك . فقد دافع العراق مثلا بحماس عن عودة مقر الجامعة العربية من تونس إلى القاهرة في حين ان الأسباب التي أدت إلى نقلها لم تنتف ولم يتغيّر منها اي شيء .

لذا فاننا نكتفي هنا بهذه النماذج من التساؤلات لأنها عديدة جداً وقد لا تكون لبعضها إلا فائدة منهجية .

بين الهزيمة والانتصار

ولعل من اهم التساؤلات التي شغلت الناس في كل مكان اثر الاعلان عن إيقاف القتال ، التساؤل المتصل بمن انتصر ومن انهزم . ولقد وجد من العرب كثيرون اعتبروا أن العراق قد انتصر إذ أوقفت امريكا الحرب قبل تحقيق أحد اهدافها وهو الإطاحة بنظام صدام حسين . لكن جلّ هؤلاء عدّلوا موقفهم حين توالت استجابة العراق لجميع شروط خصومه المجحفة .

أما وسائل الإعلام عموما فانها تعتبر العراق قد انهزم في هذه الحرب . والواقع أنه من التجاوز الحديث عن نصر أو هزيمة لأن هذه الأزمة لا يمكن أن تعالج معالجة حرب عادية مثل التي تواجه فيها المحور والحلفاء منذ نصف قرن حتى يمكن الحديث عن منتصر ومنهزم ، ذلك أن هذه الأزمة ليس لها

بعد عسكري فحسب وانما لها أبعاد متعددة تجعل تقييمها يعتمد مقاييس عديدة تتجاوز مجرد المقاييس العسكرية كما سنرى في القسم الأخير .

التحالف العربي ضد العراق

لقد شمل التحالف العربي ضد العراق ثمانية بلدان هي الستة الخليجية وأهمها الكويت والسعودية تضاف إليها مصر وسوريا ، إذا استثنينا المغرب الذي لا يخلو موقفه من التميّز رغم مشاركته الرمزية مع التحالف .

وقد اجتمع وزراء الخارجية الثمانية في القاهرة يوم 16-2-1991 قبيل وقف إطلاق النار وأعلنوا عن بعث صندوق محلي للتنمية بخمسة عشر مليار دولار . والغرض منه أساسا مكافأة مصر وسوريا من جهة وتمويل النظام الامني بالمنطقة طبقا للخطة الامريكية أي تمويل البلدان الخليجية الستة لقوات من مصر وسوريا للقيام بدور الشرطة بالجهة نيابة عن القوات الامريكية ولكن بتوجيه منها . وهكذا يتّم تكريس انضواء هذا التحالف تحت المظلة الامريكية وتنفيذ سياستها بعد ان أضفى هذا التحالف الغطاء العربي على العدوان الامريكي على العراق . وقد وصفت مجلة جون افريك في عدد 1568 هذا العدوان بأنه يتم " بتواطؤ نشيط إجرامي لحفنة من القادة العرب الذين أعمتهم عواطفهم إلى حدّ أنهم أصبحوا لا يشعرون أنهم يحفرون قبورهم بأيديهم".

ولعل من المفارقات أن هذا التحالف يضم الأقطار

العربية التي كانت أشد تحمسا للوحدة العربية مثل مصر وسوريا .
فما الذي يميز مواقف كل من هذه الأقطار العربية وما هو المنطق الطاغي المتحكم في هذه المواقف ؟

الكويت ومنطق الولاء

لقد سبق أن قلنا ان اجتياح الكويت وضمه الى العراق كان خطأ فادحا من قبل القادة العراقيين . ولكننا رأينا ايضا ان لحكام الكويت مسؤولية كبيرة في ذلك سببها الرئيسي الولاء المفرط للولايات المتحدة الامريكية التي وضع حكام الكويت أنفسهم في حمايتها لأنهم يظنون أن مصالح بلادهم لا تنفصل عن المصالح الامريكية . وقد تصرفوا دائما كما لو كانت الكويت محمية امريكية . فخلال حرب العراق مع ايران ، كانت السفن الكويتية تحمل العلم الامريكي بدل العلم الكويتي حتى لا تمسّ بسوء ، فليس غريبا بعد ذلك أن يصيح الكويتيون العائدون بعد الحرب "يحيى بوش". ولا نعود هنا إلى الأخطاء التي ارتكبها حكام الكويت قبل اندلاع الأزمة فقد تعرضنا اليها فيما سبق . ولكننا نسعى هنا الى أن نتبين من خلال تصرف الحكام الكويتيين هل استخصلوا العبر من هذه المحنة التي ألّمت بهم وهل يتعاملون الآن مع مخلفاتها بأسلوب حكيم أم انهم يواصلون ارتكاب نفس الاخطاء ؟
ان الكويتيين لم يفهموا خلال هذه الأزمة لماذا لم تتعاطف الجماهير العربية معهم وهم الضحية بينما تعاطفت مع العراق وهو المعتدي ؟ ليس المقصود

هنا موقف الحكومات العربية ، فموقفها الرسمي بدون استثناء ضد اجتياح الكويت وضمّه رغم اختلاف تقييمها للأزمة وطرق معالجتها .
لكن الاختلاف الحقيقي كان في صلب الرأي العام العربي الذي انقسم إلى مؤيد للعراق ومناهض لضمّه الكويت من منطلق مبدئي شرعي لكنّ عندما تدخلت القوى الامبريالية لإجهاض كل حلّ عربي بدعوة من الكويت ثم السعودية شكليا على الأقل ، فقد الكويت في نظر الجماهير العربية مبررات التعاطف الذي تحظى به الضحية عادة . ويمكن أن نرجع أهم أسباب فقدان التعاطف العربي مع الكويت الى ما يلي مما رددته كثير من وسائل الإعلام :
- الولاء للغرب يجعل المواطن العربي يشعر ان الوطن العربي لا يخرج من الهيمنة الاستعمارية أو الامبريالية .
- استثمار الثروات المتأتية من النفط في الغرب أكثر من استعمارها في الوطن العربي وخاصة في الأقطار الفقيرة أو ذات الكثافة السكانية .
- الممارسة العنصرية داخل الكويت حتى مع بعض العرب الذين ولدوا فيها فيميّزون في جوازات سفرهم بعبارة "بدون" اي بدون جنسية .
- استغلال الدعاية الغربية والصهيونية المضادة للعرب لتصرفاتهم في اوروبا مثل سائر أثرياء الخليج ، لتشويه صورة العربي في العالم وتقديمه في صورة شخص متخلّف منّت عليه السماء بثروة لم يتعب في خلقها وجمعها فأخذ يبدّدها في الملاهي والقمار والعبث والملذات .

هذا رغم أن الكويتيين قد تصرفوا في ثرواتهم تصرفا أفضل نسبيا من تصرف بقية عرب المنطقة مما جعل مداخيل الكويت من استثماراته الخارجية تفوق مداخيله من النفط . وقد حمل ذلك بعضهم على القول إن الكويت هي البلد الوحيد الذي يساس كبنك حتى من الخارج . وقد وزعت السلطات الكويتية بعد الاجتياح مصالحها على النحو التالي :

- الادارة السياسية في السعودية (بنزل شيراطون بالطائف) .
- الادارة الاقتصادية بلندن كالعادة .

واستقر وزير التربية بمصر بدعوى إعداد إصلاح تربوي هناك . وعلى هذه الأقطار الثلاثة توزعت صحف الكويت تباعا "السياسة" وا"لقبس" و"الأنباء" . وهذا ما جعل مسؤولا كويتيا يصرح في باريس بكل جدّ بأن "الأمير يسيطر تماما على الوضع".

وقد كانت المعارضة تتهم السلطة الكويتية بتبذير ثروات البلاد خاصة ان ديوان الاستثمار الكويتي تسيره أسرة الصبّاح تسييرا مطلقا تدعّم أكثر في ضوء الأزمة حتى إن 17 إطارا ساميا قد استقالوا منه في أواخر سنة 1990 احتجاجا على الخيارات السياسية والاقتصادية للأسرة الحاكمة التي عمدت أيضا الى إقالة أربعة من كبار المسؤولين في الإدارة التي تراقب هذا الجهاز ومختلف دواليبه .

ولئن كانت الكويت بالمقارنة مع غيرها في منطقة الخليج ، تتوفر فيها بعض المؤسسات الدستورية التي تضفي عليها سمة ديمقراطية رغم حدودها مثل البرلمان والنقابات والمعارضة ، فان الحكام كثيرا ما عطلوا هذه المؤسسات وحلوا البرلمان كما حدث في

1976 وفي 1986 . وفي ضوء الأزمة أصبحت المعارضة أكثر تشددا مما دفع بالصبّاح إلى جمع ألف من ممثليها بجدة ووعدهم باحترام القانون الأساسي الصادر منذ سنة 1962 بعد أن خرقته السلطة . هذا رغم أن أغلبية البرلمان موالية للسلطة التي تعين عددا من أعضائه ورغم أن عشر الكويتيين فقط لهم حق الاقتراع الذي مازالت السلطة ترفض تمكين المرأة منه . وعندما عاد الحكام الى الكويت بعد انسحاب القوات العراقية منها أعلنوا حالة الطوارئ بهدف السيطرة على الوضع قبل "المبادرات الديمقراطية" التي تم الإعلان عن تأجيلها الى العام القادم .

وفي ضوء حالة الطوارئ أطلق العنان لنوازع الانتقام والتشفي وتصفية الحسابات تنفيذا للتهديد والوعيد الذي طغا على لغة المسؤولين خلال الحرب في اتجاه كل من يعتبر قد ناصر العراق لأنه لم يؤيد السياسة الامريكية في المنطقة حتى ان كان ضد اجتياح الكويت .

وقد استهدف الانتقام داخل الكويت الفلسطينيين الذين ولد الكثير منهم فيها وقاموا بدور كبير في بناء الكويت وازدهارها فكوّن أبناء الأمراء عصابات عمدت الى اختطاف كثير من الفلسطينيين وتعذيبهم وتقتيلهم بوحشية ، وقد شملت هذه الحملات الإرهابية بعض المعارضين الكويتيين . كما يؤكد ذلك تقرير منظمة العفو الدولية الصادر في 20-4-1991 . وقد أكد عديد المراقبين أن السلطة الكويتية التي وعدت بوضع حدّ لهذا الإرهاب المنظم، أظهرت عجزا كبيرا عن فرض احترام

القانون واحترام حقوق الإنسان وكذلك عن تنظيم إعادة بناء الكويت حتى ان المستشارين العسكريين الامريكيين الذين كلفوا بمساعدة حكام الكويت قد عبّروا عن ضيق ذرعهم بهذا العجز .

وقد أصبح همّ السلطة الكويتية هو تنظيم محاكمات وتنفيذ إعدامات لا لعصابات "الانتقام" الخارجة عن القانون وانما لبعض العراقيين وكذلك بعض الفلسطينيين الذين قد يكونون تعاملوا مع القوات العراقية . وقد طال الجدل الدائر حول مكان نصب المشنقة .

ويبدو ان حكام الكويت يريدون التخلص من الأجانب العاملين بها وهم اكثر عددا من الذين لهم حق حمل الجنسية الكويتية . لأجل ذلك أصبح همّ الأجانب مغادرة الكويت في أقرب فرصة . وقد عبرت إحدى الآسياويات عن هذا الشعور تعبيرا بليغا في حديث لقناة تلفزية غربية بقولها " كنت من قبل أعتقد أنني لن أغادر الكويت الا باكية ، أما الآن فانني سأغادرها باسمة ".

ولقد وصف الذين شاهدوا الكويت بعد الحرب وصفا يوحي بكثير من البؤس والدمار نتيجة احتراق مآت من آبار النفط تتصاعد منها سحب كثيفة من الدخان الأسود والغازات السامة تعفن الاجواء وتلوّث الهواء وتحجب نور الشمس في وضح النهار .

هذا بالاضافة الى الدمار الذي لحق البلاد مدة الحرب ، نتيجة القصف المكثف الذي قامت به القوات الغربية . ويبدو أنه وقع تعمّد تدمير الكثير من المنشآت الكويتية بدون موجب حتى تتولى

الشركات الغربية فيما بعد إعادة بنائها لابتزاز أكثر ما يمكن من الأموال العربية . وقد قدرت بعض الأوساط مدة إعادة البناء بما لا يقل عن عشر سنوات وتكاليفه بحوالي مائة مليار دولار وهي " منّة " تهافتت عليها الشركات الغربية وظفرت من بينها الشركات الامريكية بنصيب الاسد .

وقد وعدت الكويت امريكا بمبلغ 13 مليار دولار مقابل مجهودها الحربي . لكن في الأثناء ، تواصل الكويت نتيجة البطء في اخماد خرائق آبار النفط خسران مائة مليون دولار يوميا ، اذ لم يتم اطفاء الا عشرين بئرا على ستمئة إلى موفى أفريل 1991.

وتؤكد كثير من المصادر أن الفوضى السائدة حاليا في الكويت قد جعلت الحاكم الحقيقي هو سفير الولايات المتحدة الامريكية حتى ان وزير داخلية الكويت اضطر ان يسأله عن كيفية الاتصال بشركة الخطوط الجوية الكويتية . ويلاحظ نفس العجز أسفل الهرم ، فلا يوجد من الكويتيين من تعوّد القيام بالأعمال التي يقوم بها الأجانب من العرب والاسيويين من تشغيل المصانع إلى خبز الخبز اليومي الذي كثيرا ما أصبح يوزّع على المواطنين عجينا غير صالح للخبز .

أما عمليات التوريد فانها في أغلب الأحيان توفر الكماليات ومنتوجات البذخ في الوقت الذي تفتقر فيه البلاد الى الحاجّي من المواد الحيوية . كما تؤكد مصادر عديدة ان الكويتيين الذين بقوا في بلادهم رغم الاحتلال يشعرون بالاحتقار تجاه جميع الذين فرّوا غداة الاجتياح . ولعل هذا الشعور هو الذي يفسر ما تردده بعض المصادر الإعلامية من وجود

حركة ضباط شبان تسمى " حركة 2 أوت " ولعل تكاثر النقد من المعارضة ومن كل جهة هو الذي يكمن وراء استقالة الحكومة في 20-3-91 . وقد تطلب تشكيلها شهرا من الجدال دون أن ترضي المعارضة لان التغيير الاساسي فيها هو أن عدد الوزراء من آل الصباح قد نزل بصفة شكلية من ثمانية الى خمسة على عشرين . لكن ذلك لا يحد عمليا في نظر المعارضة من تحكم آل الصباح في حظوظ الكويت .

وهكذا يجمع المراقبون على ان حكام الكويت لم يتعضوا من الأزمة ولم يستخلصوا الدروس الواجب استخلاصها من المحنة بمراجعة الأخطاء وتجاوزها .ويكفي دليلا على ذلك قرار مراجعة موقف المقاطعة تجاه الشركات الصهيونية او المتعاملة مع الكيان الصهيوني .

فالانغلاق دون العرب وتعميق التبعية للغرب وخاصة امريكا لن تزيد الهوة التي تفصل الكويتيين عن إخوانهم العرب الا عمقا واتساعا مما ينجر عنه حتما مزيد من التحكم الغربي في هذا الجزء الهام من الوطن العربي .

ان مصلحة الشعب الكويتي الموضوعية البعيدة تكمن في الواقع في تجاوز أخطاء الماضي وتداركها بالجواب الصريح عن السؤال التالي : اي الموقفين كان يكون أفضل للكويت والأمة العربية : التوفق الى حلّ وسط مع العراق لم يكن ليكلف الكويت شيئا يذكر بالمقارنة مع فداحة الخسائر المنجرة عن الحرب ام اختيار وضع الرهينة في يد امريكا ؟

فماذا كسب الشعب الكويتي من هذا الاختيار

المؤلم غير تدمير ما انشأه وشيده طوال السنين ، وارتهان ثرواته لسنين أخرى باسم الإدة البناء واستفحال التبعية طوعا او كرها للقوى المعادية للعرب والتي لا همّ لها الا ابتزاز ثروات الكويت باعتبارها جزءا من الثروات العربية ؟ ان مستقبل الكويت يتوقف على نوعية الجواب الذي يقدمه الشعب الكويتي على هذا السؤال .

السعودية ومنطق الحماية

قد رأينا ان السعودية حاولت التوفيق بين العراق والكويت وبذلت جهدا ملحوظا لخلق فرص الحوار والوفاق بين الطرفين . ولئن كان السعوديون يتوقعون هجوما عراقيا على الكويت بعد فشل المفاوضات ، الا انهم فيما يبدو فوجئوا بقوة الهجوم وشمول الاجتياح وهو ما قد يكون بث فيهم شيئا من الرعب استغلته الادارة الامريكية لاقناعهم بنوايا العراق العدوانية على السعودية وبضرورة الاستنجاد بالقوات الامريكية .

هل صدق السعوديون حقا ذلك أم انهم لم يستطيعوا التخلص من الضغط الامريكي ؟ من الصعب الجواب رغم أن جميع المعطيات ترجح أن العراق لا يمكن أن يفكر في العدوان على السعودية التي تربطه بها معاهدة خاصة .

ولعل هذا من العوامل التي ادت الى انقسام الطبقة الحاكمة في السعودية في شأن استقدام القوات الامريكية . وقد يكون من بين المعارضين ولي العهد نفسه . ويبدو أن من أشدّ المتحمّسين

للاستنجاد بامريكا بندر بن سلطان آل سعود ، سفير السعودية في واشنطن على عكس موقف والده وزير الدفاع سلطان بن عبد العزيز الذي تضايقت الإدارة الامريكية كثيرا من تصريحاته . وتؤكد عديد المصادر أن بندر قام بدور هام في الحث على الحرب . ولقد كان واضحا في البداية أن القادة السعوديين يشعرون ببعض الحرج من تواجد القوات الامريكية على ارضهم التي يريدون اعتبار كل شبر منها أرضا مقدسة . ولذلك ألحّوا في عديد التصريحات على ان هذه القوات دفاعية جاءت لحماية السعودية من عدوان محتمل من العراق وأن أرض السعودية لن تكون منطلقا لأي هجوم على العراق . وقد أكد ذلك الملك فهد بنفسه ، وقد احتاج السعوديون كالعادة الى اللجوء إلى فتاوي فقهائهم

لتبرير تصرفاتهم فتجند المفتي السعودي بن باز لذلك ليبرّر تواجد القوات الامريكية وهو المفتي الذي مازال يؤكد أن الأرض منبسطة ، وبفضله وفضل أمثاله مازال يحرّم على المرأة السعودية سياقة السيارة من جملة ما يحرّم عليها ويحلّل للرجل . ولعل الحاجة إلى هذه الفتاوي ترجع كذلك لى وجود أيمة معارضين فقد روّج بعضهم سرّا تسجيلات تنتقد فرط تبعية المملكة لامريكا وتعتبر من الحرام استقدام جيوش " الكفار ". وتعيب هذه الأصوات على السلطة السعودية عجزها عن منع استفحال الأزمة وعن ضمان الدفاع الذاتي .

ورغم هذه التأكيدات المتكررة فان حكام السعودية قد سايروا الادارة الامريكية حين تجاوزت موقف الدفاع الأوّلي الى موقف الهجوم والعدوان على

العراق ثم أصبحوا متحمسين للحرب بعد التورط في دعوة القوات الأجنبية . فمنذ أوائل نوفمبر أصبح موقفهم يتميّز بالهروب إلى الأمام والرغبة في الإسراع بالهجوم على العراق ، لوضع حدّ للأزمة قبل مقدم موسم الحج .

ولقد بات واضحا أنه لم يبق أي أثر للسعودية التي قادت حرب البترول سنة 1973بآستعماله سلاحاً لأول مرة ولكن كذلك لاخر مرة .

أما سعودية اليوم فلم تعد قادرة على ذلك ، فلقد توصل الغرب بعد صدمة سلاح النفط ، إلى تجميع قواه للتحكم في الفائض المالي العربي المتأتي من ارتفاع أسعار النفط وذلك بفضل ما سمي بشيء من التورية " رسكلة البترو دولار " . وهكذا توصل الى الاستفادة من الأزمة وتحويل انعكاساتها المالية لفائدته بالتحكم في الفوائض المالية العربية تحكما غير مباشر ، ولكنه يجعل السعودية عاجزة مستقبلا عن مجرد التفكير في استعمال سلاح النفط فضلا عن التهديد به أو استخدامه .

فالبلدان النفطية الأخرى تعتبر أن للسعودية مسؤولية خاصة في إفراغ منظمة البلدان المنتجة للبترول (اوبيب) من كل نفوذ أو وزن في العالم ، نتيجة توخي سياسة بترولية تخدم مصالح الغرب على حساب مصالح البلدان النفطية .

واذا كانت امريكا قبل الحرب تتحكم عن طريق السعودية خاصة في أسعار النفط وعائداته ، فانها اليوم بعد حرب الخليج وبفضلها ، تعتزم ممارسة هذا التحكم بصفة مباشرة عن طريق مؤسسة تمويل جديدة تنوي بعثها رغم وجود عديد المؤسسات

القديمة الذي تستطيع تحقيق نفس الأهداف تقريبا مثل مختلف الصناديق والبنوك التي تأسست منذ عقدين منها صندوق النقد العربي والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي والبنك العربي للتنمية الافريقية وبنك التنمية الإسلامي .

ورغم أن هذه المؤسسات المالية قد تقلص مفعولها الإنمائي بحكم تراجع العائدات النفطية في الثمانينات فان امريكا تسعى إلى مزيد تهميشها بفضل تزايد النفوذ الامريكي في المنطقة وفي السعودية بالذات التي أصبحت كثير من المصادر الإعلامية تتحدث عنها كما لو كانت الولاية الامريكية الحادية والخمسين . كما لا تخفي عديد المصادر التنسيق بين المخابرات الامريكية والسعودية التي تمول بعض مشاريعها في العالم .

وتقدم بعض المصادر كشواهد على هذه الهيمنة الامريكية المتزايدة تحويل بعض المشاريع لفائدة المؤسسات الامريكية . من ذلك ان مشروع الحماية الالكترونية المزمع نشره في السعودية كان من المفروض اقتناؤه من مؤسسة فرنسية فتحول الآن الى مؤسسة امريكية . كما ان مشروع تعصير الهاتف قد كان التنافس فيه بين فرنسا والسويد لكن تدخل بوش شخصيا حوّله الى امريكا . وقد تكرر ذلك الى حد جعل الوزير الأول البريطاني لا يخفي امتعاضه من هذا الوضع خلال فيفري 1991 وهو الشهر الذي شهدتهافت المؤسسات الغربية على المشاريع الكويتية والسعودية .

ورغم ان السعودية قد رفعت في ظل أزمة الخليج من إنتاج النفط قبل 2-8-1990 من خمسة ملايين

برميل الى ثمانية ونصف يوميا فان متطلبات الأزمة ونشر القوات الأجنبية على أرضها قد دفع بها الى اقتراض 3ر5 مليار دولار من البنوك العالمية وهي أول مرة تصبح فيها السعودية في حاجة الى اقتراض المال من الأسواق النقدية العالمية ، لتدفع القسط الذي وظفته عليها امريكا من فاتورة الحرب التي ضخمتها كما شاءت وكما ضخمت تكاليف "إعادة البناء" . ولا قدرة للسعودية فضلا عن الكويت على مراقبتها أو مناقشتها .

ورغم أن السعودية قد أسقطت الديون التي لها على العراق عقب حربها مع ايران ، وهو المثال الذي لم تشأ الكويت احتذاءه ، فان عديد المصادر تؤكد أن حجم هذه الديون يتجاوزنصف ثروة الملك فهد الخاصة التي تقدر بما يعادل 18ميار دولار ، وهو حجم يجعله في المرتبة الثانية عالميا بعد سلطان بروناي .

واعتبارا لأهمية السعودية ووزنها في العالم العربي ، فانها مبدئيا من أقدر البلدان العربية على العمل من أجل طي الصفحة الأليمة للحدّ من المخلفات السلبية للأزمة على الأمة العربية . ولكن عندما نرى كيف تم التعامل مع مئات الالاف من اليمنيين العاملين في السعودية وكيف تم طردهم فانه من الطبيعي أن يسود الشعور بالخشية من أن يكون السلوك السعودي شبيها بالسلوك الكويتي مع سائر العرب فلا يساعد على اندمال الجراح وإنما يزيدها تعفّنا .

فاذا ما اختارت السعودية سبيل محاولة الانتقام من الأنظمة العربية التي لم تجارها في استقدام

القوات الأجنبية واستخدام ترابها للعدوان على العراق ، فانها تكون بدورها قد اخطأت السبيل مرة أخرى بشكل يرشّح الأقطار العربية بما فيها الأقطار الخليجية لمزيد من الهزات والأزمات ومزيد من الانشقاق والانقسام والتشتت والضياع وهو ما يتناقض موضوعيا مع مصالح الشعب السعودي نفسه .

مصر ومنطق كامب دايفد المتواصل

ان ما يتحكم في الموقف المصري بصفة عامة هو الحاجة والفقر من جهة ومن جهة اخرى تواصل السياسة التي أفرزت اتفاقيات كامب دايفد والاعتراف باسرائيل بصفة منفردة عزلت مصر عن الأمة العربية على الأقل في المستوى الرسمي الظاهر طيلة أكثر من عشر سنوات . فمصر تتلقى الإعانات من امريكا (حوالي ملياري دولار سنويا) فضلا عن مساعدات البلدان العربية الخليجية . لأجل ذلك ، تراجعت مصر بعد أن حاولت في أزمة الخليج القيام بدور الوسيط ورضخت للارادة الامريكية واصبحت من أشد المتحمسين لضرب العراق رافضة أي ربط بين قضية الكويت والقضية الفلسطينية .
وقد اعتبرت بعض المصادر الصحفية أن مصر قد شوّهت ماضيها القومي وكرامتها العربية من أجل حفنة من الدولارات حسب تعبير جون افريك (عدد 1575 بتاريخ 6–12 / 5 / 1991) .
ولئن خسرت مصر نتيجة الأزمة ما يعادل المعونة الامريكية من عائدات قرابة المليون عامل بالعراق

فانها قد اعتبرت ان ما يمكن ان تتلقاه مقابل موقفها الموالي لامريكا أهم من ذلك خصوصا أن مجموع العمالة المصرية في الخليج يقارب المليونين . وتؤمل مصر الآن تصدير العمال العائدين من العراق الى الكويت . ولكن هذا الامل سيخيب في أغلب الظن نتيجة الموقف الكويتي الجديد من العمالة الأجنبية .

ولئن كان عامل المصلحة المادية هاما ، فانه ليس الوحيد الذي يفسّر موقف مصر . فمن العوامل الأخرى وجود شعور قوي بالغيرة من العراق الذي بدا كأنه يريد افتكاك زعامة العرب من مصر بفضل خروجه من الحرب مع ايران بمعنويات مرتفعة وجيش قوي نسبيا . فامكانياته المالية والعسكرية جعلته يتفوق على مصر التي انهزمت في كل مرة أمام اسرائيل . ورغم أن العراق قد قام بدور نشيط في إخراج مصر من العزلة العربية وإرجاع مقر الجامعة العربية إليها وهو ما قد يتناقض مع تعويض مصر في زعامة العرب ، فان الرئيس المصري لم يستطع في بعض تصريحاته إخفاء هذه الغيرة مؤكدا أن الزعامة العربية لن تكون لغير مصر .

وقد رأينا في سياق حديثنا عن ملابسات الأزمة الدور الذي قامت به السلطات المصرية في إفشال الحل العربي نتيجة الضغط الامريكي .أما موقف الشعب المصري فهو الذي بقي غير معروف بما فيه الكفاية حتى ان كثيرا من المصادر الغربية اعتبرته في جملته مساندا للسلطة . والواقع ان الشعب المصري مازال متأثرا بصفة عامة بما يسمى " ثقافة كامب دايفد " التي دعمتها السلطة وتولت نشرها

بعض وسائل الإعلام وحتى بعض الأعلام من رجال الفكر والصحافة والكتاب وبعض دور النشر فضلا عن الأجهزة الرسمية وخاصة التلفزة . ومازالت الجماهير المصرية فيما يبدو ، نتيجة هذه " الثقافة " تعيش وهم الوعود الامريكية والنموذج الامريكي للحياة .

كل هذا جعل مصر تتصرف في طليعة الشق العربي المتحمس للمخطط الامريكي في المنطقة .

في اطار هذه الخلفية العامة توزعت مواقف القوى السياسية والاجتماعية في مصر إجمالا على النحو التالي :

- التيار الإخواني والإسلاموي عموما كان مناهضا للعراق في الجملة .

- حزب الوفد القريب من السعودية ساند الحكومة ولكنه صدم بحجم العدوان على العراق مما حمل بعض قادته على تعديل الموقف كما فعل نائب رئيس الحزب الذي كتب في الاهالي ومصر الفتاة للتعبير عن معارضة العدوان .

- أما بقية الأحزاب كالتجمع والعمل واليسار والناصريين وغيرهم ، فقد كانت مناهضة للعدوان على العراق وراسلت في الموضوع الرئيس المصري ، وأصدرت عديد البيانات وجمعت المعونات ، ولكن الخلافات قد حدّت من فاعلية مبادراتها .

وقد نظمت بعض النقابات المهنية كالصحافيين والمحامين والطلبة اعتصامات احتجاجا على العدوان على العراق .

لكن هذه المواقف لم تؤثر في موقف السلطة المصرية التي تصدّت لكل موقف مناهض فاعتقلت

الالاف وتعرض بعض الطلبة للتعذيب كما يؤكد ذلك مناضلو حقوق الانسان . وقد استغلت السلطة في ذلك حالة الطوارىء القائمة منذ 1981.

وبصفة عامة فان الشعب المصري الذي لم يتحمس كثيرا للعراق لم يكن يتصور أن يتعرض لمثل ذلك التدمير الوحشي من قبل امريكا وحلفائها بتزكية عربية ومصرية بالدرجة الأولى رغم أن الإعلام المصري الرسمي لم يكن ينقل للشعب المصري حقيقة الأوضاع في العراق وإنما كان موجّها ضده عموما .

والآن ، وبعد ان عادت الجامعة العربية الى مصر فلا مناص من الاعتراف بان أول اجتماع لها بها كان كارثة عليها ، ولذا يتعين على مصر ان تعمل على انقاذ الجامعة مما تردت فيه لان لمصر اليوم في ذلك مسؤولية خاصة .

سوريا ومنطق التشفي

ان موقف سوريا من أزمة الخليج لا يمكن تفسيره في ظاهر الأمر الا بالعداء المستفحل بين جناحي البعث خصوصا أن إشعاع البعث العراقي عربيا أقوى بحكم استقرار القيادة القومية بالعراق وبحكم توخي العراق سياسة قومية من شأنها جلب مزيد من الأنصار إلى توجهه . وقد استحكم العداء بين الجناحين وتشخص بشكل مفرط بين صدام والأسد خصوصا بعد أن ساندت سوريا ايران في حربها مع العراق .

لكن موقف سوريا الرسمي من أزمة الخليج

يتناقض جوهريا ، على الأقل في الظاهر ، مع جميع السياسات المعلنة بحكم انتماء سوريا الى "جبهة الرفض والتصدي" لاتفاقيات كامب دايفد وبحكم موقعها في صدارة المواجهة مع اسرائيل ، خصوصا أن جزءا من أراضيها وهو الجولان مازال يرزح منذ ربع قرن تحت نير الاحتلال الصهيوني .

ومهما بلغ العداء تجاه العراق ، فانه لا يمكن أن يقارن بالخطر الصهيوني الذي يجعل سوريا في حاجة موضوعيا الى عراق قوي يحمي ظهرها في حالة حرب جديدة مع اسرائيل . وإن مثل هذا الشعور يبدو سائدا في موقف الشعب السوري المتعاطف مع العراق رغم الإعلام الموجه المضاد لأن الشعب في سوريا يفهم جيدا أن في تدمير القوة العراقية إضعافا لسوريا في مواجهة أي عدوان اسرائيلي . وقد طلبت السلطة من وسائل الإعلام ان تفسر للشعب أن هذه الحرب ليست بين مسلمين وكفار . لكن المواطنين كانوا يستمعون اكثر الى وسائل الإعلام الأخرى لمعرفة ما تخفيه عنهم وسائل إعلامهم . ورغم منع المظاهرات فقد انتظمت بعضها مساندة للعراق في المناطق القريبة من الحدود المشتركة . وقد أكدت السلطة مرارا ان العشرين الف جندي سوري لن يشاركوا في القتال لا في الكويت ولا في العراق .

إن الموقف السوري الرسمي تنم خفاياه إجمالا عن تطور النظرة الى الصراع العربي الصهيوني في اتجاه القرب من منطق كامب دايفد . فهو ينطلق اذا من استبعادها لأي مواجهة جديدة مع اسرائيل وهو ما يفسر مراهنة الادارة الامريكية على جر سوريا

الى اتفاقية شبيهة باتفاقية كامب دايفد . ولولا هذه المراهنة لما قبلت امريكا على الأقل تكتيكيا وظرفيا التعامل مع النظام السوري الذي تعتبره بمقاييسها الخاصة نظاما " إرهابيا " . وفعلا فان لقاء الأسد وبوش في أوج أزمة الخليج قد أخرج سوريا من العزلة التي فرضها عليها الغرب فاذا بالسوق الاوروبية المشتركة ترفع عنها العقوبات التي فرضتها عليها إثر عملية لندن .

وقد ساومت سوريا بموقفها مع التحالف العربي ضد العراق فحصلت مقابله على مليار دولار من البلدان الخليجية باسم تعويض عن الخسائر المنجرّة عن أزمة الخليج .

وقد استغلت سوريا انخراطها في الخطة الامريكية ضد العراق سياسيا كذلك للتصرف في لبنان والتخلص في خصمها ميشال عون . وقد اعتبر الملاحظون ان اغتيال داني شمعون ليس إلا إنذارا لكل من يعارض السياسة السورية في لبنان .

والواقع ان سوريا بدت في أول الأمر مترددة تجاه أزمة الخليج . فلئن كان موقفها مناهضا بشدة لاجتياح الكويت ثم ضمه ، الا انها كانت تعارض في بعض التصريحات ضرب العراق وتبدو أميل إلى الحلّ السلمي الذي يحقق الجلاء عن الكويت . ولعل هذا ما يفسر تحذيرها المتواصل من تدخل اسرائيل في النزاع . ولكنها بعد أن اطمأنت إلى " حياد " اسرائيل في الظاهر أصبحت تشجع على العدوان لإسقاط نظام صدام حسين وأصبحت تعتبر صراحة أن تدخل اسرائيل لن يغير موقفها لانها ستكون في حالة " دفاع شرعي " بعد قذف العراق لها بصواريخ

الحسين .
وقد أصبح من العجب العجاب حديث سوريا عن حق اسرائيل في الدفاع عن نفسها وهي التي ما انفكت تعتدي على العرب جميعا وتحتل أراضيهم بما في ذلك الأراضي السورية فضلا عن تنكيلها اليومي بالشعب الفلسطيني واغتصاب أراضيه وثرواته . إنها لغة جديدة يستعملها العرب المتحالفون مع امريكا ضد العراق لاول مرة في التاريخ ، لذلك هي لغة تنبيء بتحول جذري في المواقف العربية تجاه الكيان الصهيوني .
والجدير بالملاحظة أيضا أن الصحافة السورية قد دعت صراحة الى اغتيال صدام حسين مشجعة بذلك الولايات المتحدة ومخابراتها على اقتراف مثل هذه الجريمة التي كانت المخابرات من قبل تستحي من الإعلان عنها . فالشعور الطاغي يبدو شعور الشماتة والتشفي والرغبة في الإجهاز على الخصم . واذا اضفنا الى كل ما سبق موقف سوريا التقليدي المناهض لمنظمة التحرير الفلسطينية ، اكتملت صورة الموقف السوري بجميع منطلقاته وملابساته.
وليس غريبا بعد هذا ورغم كل الدمار الذي أصاب العراق وشعبه أن نرى النظام السوري يشجع الاكراد العراقيين وجميع المعارضات بما فيها الشيعة على التمرد على نظام صدام حسين ومنعه من تضميد جراحه رغم ما قد ينجر عن ذلك من تقسيم للعراق وإقحام الشعب العراقي في دوامة الحروب الأهلية الطائفية التي هي أدهى وأمر من العدوان الأجنبي لأنها تنخر كيان الوطن من الداخل فتجهز على ما أبقاه العدوان وهو نزر قليل .

وقد اعتبر كثير من الملاحظين أن سوريا بصفة خاصة قد أسءت الى القضية الفلسطينية والعربية بدافع أناني ضيق يتناقض مع ماضيها النضالي وأهدافها القومية التقليدية . وليس من شك في أن تدمير العراق يعرض سوريا لعزلة قد تشتد في مواجهة اسرائيل ويمكن امريكا من شد قبضتها عليها حتى تستسلم للحلول المفروضة خاصة بعد أن فقدت السند السوفياتي . فالحسابات السورية كانت قطرية ضيقة مفتقرة إلى أدنى بعد قومي . فالنظام السوري يريد في نفس الوقت ضرب صدام حسين بدون ان يكون ذلك لصالح اسرائيل على حساب العرب . هذه المعادلة ليست صعبة فحسب وانما هي مستحيلة .

الأقطار العربية المعارضة للحرب

قد يكون من اللافت للانتباه أن أغلب الأقطار العربية في المشرق قد تحالفت ضد العراق في حين أن جميع الأقطار العربية في المغرب قد عارضت العدوان على العراق بما في ذلك المغرب . فالأقطار العربية المعارضة للحرب تشترك في دعوتها الى حل سلمي في إطار عربي . كما أنها تشترك في موقف يتناساه المتحالفون ضد العراق وهو معارضتها لاجتياح الكويت وضمه . فلا يوجد نظام عربي واحد أيد الاجتياح بما في ذلك منظمة التحرير الفلسطينية التي تعمد الإعلام الغربي تشويه مواقفها أكثر من غيرها خدمة للكيان الصهيوني على حساب القضية الفلسطينية .

ورغم هذا فقد اعتبر التحالف ضد العراق هذه الأقطار العربية في صف العراق مساندة له . ومن الواضح أن هذا الاعتبار ينطلق من الموقف الذي ساد في الغرب ولدى حلفائه العرب وهو التعامل مع الغير بمنطق " معي أو ضدّي " فاما حليف وإما عدوّ ، فلا حياد ولا تميّز بموقف آخر . فكل من لم يؤيد الحضور الامريكي الغربي ولم يساند العدوان على العراق فهو مع صدام حسين حتى ان كان ضد ضم الكويت . هذا المنطق يبدو غريبا غير مألوف في الأعراف الديبلوماسية التي تميّز المواقف عادة بمقاييس تراعي أبسط الفوارق ولا تكتفي بألوان قوس قزح فضلا عن العمى عن غير الأبيض والاسود.

وتجدر الملاحظة كذلك أن جلّ الأقطار العربية التي عارضت الحرب والمحترزة هي أقطار عرفت في السنين الأخيرة توجهات ديمقراطية نسبية مثل تونس والجزائر والأردن واليمن كما لاحظت ذلك بعض وسائل الاعلام الغربية ذاتها . فمن المفارقات ان الغرب الذي يدّعي التشجيع على التحول الديمقراطي في الأقطار المفتقرة الى الديمقراطية ، ينفي عن هذه الأقطار العربية حق احترام موقف الاغلبية الساحقة من شعوبها المناهضة للحرب في حين أن ذلك الاحترام هو الشرط الأساسي للديمقراطية . وانطلاقا من هذا المنطق الغريب شنت على هذه الأقطار حملة مزدوجة عربية وغربية.

فالصحافة السعودية وخاصة " عكاظ " تدعو الى سحق الذين لعبوا بمصير السعودية كما لو كان مصير السعودية حقا في الميزان أو كان لمواقف هذه

الأقطار مسّ من قريب أو بعيد بمصالح السعودية . بل بالعكس ، ينطلق هذا الموقف من اعتبار تواجد القوات الأجنبية بالسعودية مهددا لمصالح الشعب السعودي ومصالح جميع العرب والمسلمين .

وقد صرح سفير السعودية بواشنطن ، وهو من أشد المتحمسين للحرب كما رأينا بقوله مهددا ان " كل من وقف مع صدام حسين سيسقط معه ". ويستهدف هذا الموقف بالخصوص الأردن واليمن وفلسطين والسودان وكذلك بدرجة ثانية تونس والجزائر وموريتانيا .

ولم يتخلف الغرب عن مثل هذه الحملة على الأقطار المعنية انطلاقا من نفس المنطق الذاتي مع تناقض الادعاء الديمقراطي . وقد اشترك طرفا التحالف الغربي في شن حرب نفسية وإعلامية على هذه الاقطار تمثلت بالاضافة الى التهديد والوعيد والترهيب في ترويج الأخبار الزائفة . فالسودان وموريطانيا محطتان تخفيان صواريخ ومراكز تجارب نووية عراقية ، هذا فضلا عن لجوء زوجة صدام لجوءا وهميا الى موريطانيا وما الى هذا من الأخبار السخيفة التي لا يليق بالمجال ذكرها .

وإن أقلّ ما يمكن قوله في شأن هذا الموقف من الأقطار العربية المناهضة للحرب هو غياب أي مجهود للتفهم ، فلا مجال الا للغة الانتقام ومزيد تمزيق الصف العربي . ولم تظهر إلى حدّ الآن أي بادرة تنم عن إرادة التجاوز وطي هذه الصفحة السوداء من تاريخ الأمة العربية بخط صفحة جديدة أقل قتامة ولن يكون ذلك الا بالاعتراف بأن العراق رغم فداحة أخطائه لم يكن وحده في الخطأ وبتفهم

مواقف الأقطار العربية الأخرى تفهما موضوعيا . ونحاول هنا رسم معالم مختلف هذه المواقف انطلاقا من المنطق الذي بدا لنا متحكّما فيها .

أقطار المغرب العربي ومنطق تأكيد الذات

عندما انطلقت أزمة الخليج لم يكن يوجد قطران مغربيان لهما نفس الموقف فلكل قطر موقف متميّز مما ينم عن انعدام التشاور والتنسيق . ولكن مع مرور الأيام واستفحال الأزمة واندلاع الحرب وضغط الشارع بدأت المواقف تتقارب شيئا فشيئا وخاصة بعد ان اتضح مآل الحرب ، وذلك بمناسبة انعقاد القمة المغاربية بليبيا يومي 10 و11-3-1991 . هذه القمة التي خصصت أساسا لتقييم أزمة الخليج وانعكاساتها على المنطقة العربية عامة والمغاربية خاصة . ورغم غياب الملك المغربي لأسباب تبدو شكلية فان البيان الختامي قد طالب بإلغاء الحصار المضروب على العراق وعارض كل مس بسيادة العراق ووحدته . وهو موقف يتناقض جوهريا مع مواقف الأقطار المشرقية الثمانية المجتمعة في دمشق قبل ذلك بقليل .

ولا شك أن موقف القمة المغاربية يأخذ بعين الاعتبار كذلك المواقف الشعبية التي تعاطفت بقوة مع العراق لا في ضم الكويت وإنما في رفض التدخل الأجنبي . فالقضية أصبحت كأنها قضية نضال من أجل استقلال جديد أو من أجل استكمال الاستقلال

برفض التدخل الأجنبي في القرار العربي وفي القضايا العربية . لأجل ذلك أصبح صدام حسين في نظر هذه الجماهير بتحديه لامريكا ورفضه لهيمنتها رغم تفاوت القوى رمزا للكرامة العربية التي ديست في كثير من الاحيان .

هذا ما يفسر عديد المظاهرات والمسيرات الشعبية في الأقطار المغاربية ، بمساندة من السلط في بعض الأحيان .

فالمواقف المغاربية الرسمية رغم الاختلافات الهامة في أسلوب التعامل مع الأزمة ، تشترك في جملة من النقاط المبدئية من أهمها :

- اعتبار القضية عربية ، يجب حلها عربيا .
- ضرورة انسحاب العراق من الكويت في نطاق حلّ تفاوضي .
- السعي الى القيام بوساطات واقتراح حلول ، لكن في إطار مبادرات منفردة خالية من كل تنسيق مغاربي .

بيد أن العواطف المتأججة شعبيا قد هدأت إثر إيقاف القتال وتقسمتها مشاعر شتى منها شعور بالألم من هزيمة عربية جديدة وشعور بخيبة أمل بعد الآمال وحتى الأوهام وشعور بالنقمة على غرب ظالم لم يتخلّ عن نوازعه الاستعمارية وكراهيته للعرب والمسلمين وكذلك شعور بضرورة مواجهة " النظام العالمي الجديد " الذي يراد إقامته على حساب العرب مع الوعي بأن ذلك لا يكون الا بالاعتماد على الذات ونشر الديمقراطية واحترام حقوق الانسان وامتلاك أعنّة العلوم والتكنولوجيا لتحقيق التنمية والتقدم والمناعة . هذا الوعي يبدو

مصحوبا بشعور الاستعداد لدفع ثمن الموقف المبدئي وهو التضحية بجزء من المصالح التي تربط الأقطار المغاربية بالغرب وحلفائه خصوصا أن الشعور السائد في المغرب العربي هو أن تكالب الغرب على صدام حسين والعراق ليس من أجل الكويت وإنما لأنه عربي مسلم اكتسب قوة نسبية قد تهدد اسرائيل يوما وقد تستعمل سلاح النفط يوما فلا بدّ اذا من تدميرها في المهد حتى لا تقوم للعرب والمسلمين قائمة . هذا هو الشعور العميق ومصدر النقمة والثورة والمساندة للعراق .

ليبيا ومنطق المراجعات

لقد تميّز الموقف الليبي منذ بداية الأزمة بكثير من الغموض والتناقض . فهل كان ذلك راجعا الى تردد وعدم وضوح الرؤية أم انه مقصود لإعداد مراجعات في المواقف والسياسات ؟ الجواب قد يكون ضمنيا في المواقف التالية التي طبعت السياسة الليبية تجاه أزمة الخليج . فليبيا حضرت المجلس الوزاري للجامعة العربية يومي 30 و31 -8-1990 ولكنها صوتت ضد جميع القرارات بما فيها قرار التعويضات العراقية للكويت .
والقذافي يدلي بعديد التصريحات يعلن في أحدها أنه ليس ملزما بقرارات مجلس الأمن وأنه لن يشارك في عملية "تهدف الى تجويع الشعب العراقي وأطفاله" ويقترح في آخر خطة حلّ سلمي قائم على انسحاب عراقي وتنازلات كويتية . ولكنه أسر مرارا لزواره أن صدام لن يخرج سالما من الأزمة بل

سيقتل وأن العراق سيخسر. وقد نددت صحافة العراق بما اعتبرته تلاعبا في المواقف الليبية بينما أشادت الصحافة السعودية بالتعقل الجديد الذي أخذ يطبع المواقف الليبية .

وقد سجل جميع الملاحظين مظاهر المراجعة في السياسة الليبية رغم التناقضات الظاهرية فالقذافي هو الرئيس المغاربي الوحيد الذي انتقد علنا بشدة سياسة العراق وفي الآن نفسه أيد المظاهرات المساندة للعراق وانتقد السياسة الامريكية في المنطقة .

وفي ضوء الأزمة متّنت ليبيا علاقاتها مع مصر وسوريا رغم مشاركتهما في التحالف ضد العراق ، ولم يصدر عن السلطات الليبية أي نقد لأي نظام خليجي .

وقد رأى البعض أن العقيد الليبي الذي يعتبر نفسه خليفة عبد الناصر ورائد القومية والوحدة العربية ، قد أحس أن صدام حسين تجاوزه في نفوس الجماهير العربية . وقد يكون ذلك من العوامل المؤثرة في موقفه . كما الحّت كثير من المصادر على أن التهديدات الامريكية لم تكن بدون تأثير في الموقف الليبي من العراق .

وقد برزت المراجعات حتى في الموقف من اسرائيل ومن أسقاط صواريخ الحسين عليها . كل ذلك فاجأ عديد الملاحظين حتى في ليبيا التي طالب فيها المتظاهرون القذافي بأن لا يترك صدام حسين وحده.

ورغم بعض العبارات الحادة فان خطاب القذافي حول أزمة الخليج كان إجمالا متميزا بالاعتدال الذي اعتبره بعض القوميين تراجعا او تخاذلا ، بالمقارنة

مع الخطاب السابق ذي الطابع الثوري الناري .

تونس ومنطق التوازن

لقد كان موقف السلطات التونسية واضحا منذ الأيام الأولى ولم يتغيّر في جوهره بتطوّر الأحداث فهو يتمثل في رفض اجتياح الكويت وضمها على اساس احترام الشرعية الدولية مع التمسك بحلّ سلمي تفاوضي في إطار عربي ويمكن ان يكون بضمان الأمم المتحدة . وقد انجرّ عن هذا الموقف المبدئي رفض التدخل الأجنبي وخاصة عسكريا . وقد ندّدت تونس بتجاوز " تحرير " الكويت الى تدمير العراق . ورغم هذا الموقف فان تونس احترمت جميع قرارات مجلس الامن رغم ما فيها من الجور ، لكنها رفضت التزكية بمقاطعة قمة القاهرة . وقد كان هذا الموقف منسجما مع مواقف جميع القوى المدنية تقريبا ومع المشاعر الشعبية التي لم تخل من الاعتزاز باستقلالية الموقف التونسي وعدم تاثره بالمضايقات والتهديدات الغربية والعربية على السواء ، وساد الشعور بضرورة التعويل على النفس والرضا بدفع ثمن هذا الموقف المشرّف .

وقد تعددت المظاهرات والمسيرات المتضامنة مع العراق وتكونت لجان عديدة رغم اختلاف منطلقاتها وأهدافها من مساندة مطلقة للعراق الى مناهضة للحرب والعدوان على العراق دون مساندته في ضم الكويت .

واذا كانت الحركات الاسلاموية في تونس قد انقسمت بين مؤيد للعراق ومناهض له ، فانها قد

سعت عموما الى استغلال العواطف الشعبية لتحويل المظاهرات عن وجهتها الأصلية الى مناهضة النظام مما تسبب أحيانا في إفسادها او الحد من مداها . لكن هذه المحلولات باءت بالفشل لفرط انتهازيتها التي آلت الى تناقض نسبة التعاطف مع بعض هذه الحركات . وقد قامت الديبلوماسية التونسية بالحد الأدنى الضروري من المبادرات والاتصالات من أجل التوصل إلى حل سلمي وتميزت المساعي بشيء من التكتم جعل الموقف التونسي على وضوحه غير معروف بما فيه الكفاية . مما اضطر السلط التونسية في أعقاب إيقاف القتال إلى إصدار كتاب أبيض عن موقفها يتضمن وثائق تنشر لأول مرة منها رسالة هامة الى الرئيس العراقي قبل بدء العدوان تنصحه بالانسحاب من الكويت في إطار حل مشرف.

وقد تضررت تونس اقتصاديا من أزمة الخليج أذ تقدر خسائرها التجارية بنحو خمسين مليون دولار ، أما خسائرها المالية الناجمة عن تجميد رؤوس الأموال الموردة فتقدر بنحو 375 مليون دولار . وهو ما جعل السلط تقتطع من الأجور والمداخيل نسبا على امتداد خمسة أشهر لسدّ عجز الميزانية .

الجزائر ومنطق الوفاء

الموقف الجزائري بصفة عامة لا يختلف كثيرا عن الموقف التونسي إذ يقوم على رفض ضم الكويت وحضورالقوات الاجنبية فضلا عن إدانة العدوان وتدمير العراق . وقد بقي الرئيس الجزائري ملازما

الصمت إلى شهر ديسمبر حيث بدأ يتحرك بكثافة طيلة الشهر فاجتمع بصدام حسين وسعى الى فتح قنوات الحوار بين العراق والسعودية ولكن رفض الرياض استقباله ورفض واشنطن أيضا أفشل جميع مساعيه .

وفي الأثناء كان غليان الشارع كبيرا ، وقد سمحت السلط لجميع الاحزاب الستة والثلاثين ولجميع المنظمات بالتعبير الحرّ عن مواقفها التي كانت بمثابة الوفاء لنضال الشعب الجزائري ضد الاستعمار . وقد بدأت تظهر في الجزائر بوادر التحول عن فرنسا نحو ايطاليا وإسبانيا التين بقي تورطهما في الحرب دون تورط فرنسا . وليس من الصدف ان تراجع الجزائر سياستها اللغوية خلال هذه الأزمة بالذات بإصدار قانون التعريب يوم 26-12-90 .

اما الحركات الاسلاموية فقد بقيت ممزقة بين ميولها للسعودية وميولها للشعب العراقي فتطورت مواقف " جبهة الانقاذ " مثلا مع ميول الشارع . فبعد ان كان المسؤول الثاني فيها يصف صدام بانه هدام خدّام ، انقلب يدعو الى الجهاد معه ، وحاول فتح مخيمات للمتطوعين لكن احتجاج القوى السياسية ومعارضة الجيش جعلت السلط تمنع ذلك . وبصفة عامة فان " جبهة التحرير " هي التي استفادت سياسيا من الأزمة كما استفادت الجزائر ككل اقتصاديا بفضل ارتفاع أسعار النفط .

المغرب الاقصى ومنطق التمزق

تميّز الموقف في المغرب الاقصى بالتناقض عموما بين موقف السلطة وموقف الشعب . وقد عبّر الملك المغربي أحسن تعبير عن شعور التمزق الناتج عن هذا التناقض بالقول إن قلبه مع العراق رغم أن عقله ضده . وكيف لا يكون ممزقا وقد بادر بالاستجابة منذ 14-8-90 الى طلب السعودية مرسلا 1200 جندي بالاضافة الى 5000 الف يوجدون من قبل في الخليج . ولكن الملك ما انفك يؤكد على رمزيتها .

وقد حضر المغرب قمة القاهرة وزكى القرارات ولكن ذلك لم يمنع الملك من التصريح بان هذه القمة لم تكن مناسبة ظرفيا لأنها حرمت العالم العربي من فرصة الإسهام في الحل . ولم يمنعه كذلك من الاتصال بالعراقيين ليؤكد لهم ان "قلوبنا معكم".

وقد أكد الملك مرارا أن دور جنوده لن يتعدى الدفاع عن السعودية وأنه لن يقال إن رصاصة مغربية قتلت عراقيا .

ولم يتردد الملك عن نقد بخل الكويتيين معتبرا أنه يوجد ما يبرر تذمر العراق منهم . وعلى الصعيد الداخلي ، رفض الملك جميع المطالب المتعلقة باستقدام الجنود من الخليج وحاول منع المظاهرات ولكنها حصلت بمناسبة الإضراب العام يوم 14-12-90 حيث سقط ضحايا خاصة في فاس وطنجة مما دفع بالسلط تحسبا لتطور الأوضاع اذا اندلعت الحرب الى استقدام جزء من جيش الصحراء

للتواجد في المدن والى التهديد باعلان حالة الطواريء والحصار إذا حدثت تجاوزات . ورغم ذلك واعتبارا لضغط الشارع تبنى الملك الاضراب العام الذي شنّ يوم 28-1-91 احتجاجا عى العدوان على العراق وتبنى المظاهرة الضخمة التي انتظمت في الرباط يوم 3-2-91 والتي لم يعرف المغرب لها مثيلا منذ الاستقلال .

ولئن لم يحضر الملك القمة المغاربية بليبيا لأسباب قد تكون شكلية كما رأينا فان الموقف المغربي لم يكن مختلفا عن مواقف بقية الأقطار المغربية من حيث تقييم أخطار الازمة وانعكاساتها مغاربيا وعربيا.

موريطانيا ومنطق الانطواء

لقد اعتبرت موريطانيا من أشد الأقطار المغاربية مساندة للعراق . ولعل ذلك يرجع إلى سعة التعاطف الشعبي مع العراق أكثر مما يرجع الى مواقف السلط .

هذا التعاطف الشعبي ظهر في كل شيء وخاصة في قرية بغداد الموريطانية ، في كثرة الأشعار والأغاني المجدة صدام حسين حتى في الحفلات العائلية . أما من الجانب الرسمي فانه لا يكاد يوجد غير بيان محتشم يعارض اجتياح الكويت .فالسلط الموريطانية منشغلة كثيرا بالمشاكل الداخلية وخاصة ما كان منها منجراً عن الخلاف مع السنغال ومع ذلك رفضت الضغوطات الامريكية لحملها على

مجاراتها في الخليج . وقد جابت بعض المظاهرات الشعبية التلقائية شوارع العاصمة احتجاجا على الحضور الامريكي بأرض الإسلام .
إن ردّ الفعل الشعبي هو الذي جعل موريطانيا تبدو في نظر الغرب وبعض العرب مساندة للعراق اكثر من غيرها فتستهدفها "العقوبات".ولكن بصفة إجمالية يبقى موقف موريطانيا شبيها بموقف تونس والجزائر

أقطار المشرق العربي المناهضة للحرب

لا نكاد نجد في المشرق العربي من الاقطار المناهضة للحرب غير اليمن والاردن والسودان . ولذلك فان الشعور بالعزلة وحجم الضغوط عليها اشد لتباعدها واختلاف اوضاعها .

اليمن ومنطق الكرامة

ان موقف اليمن لا يمكن فهمه الا بفهم طبيعة علاقاته مع كل من السعودية والعراق . ان ماضي العلاقات مع السعودية لا يخلو من مظاهر التأزم . فاليمن ترفض المصادقة على اتفاقية الطائف التي تخلى بموجبها إمام اليمن سنة 1934 للملك السعودي عن ثلاث مناطق يمنية غنية بالنفط منها نجران . لكن السعودية اعتبارا لفقر اليمن وكثافته السكانية اذ يعد 16 مليون نسمة ، تعامل المليوني

يمني بالسعودية معاملة متميزة بالنسبة الى غيرهم من الاجانب مما يجعل وضعهم قريبا من وضع السعوديين .
لكن السعودية لم تكن راضية في الواقع عن توحيد اليمنين في 22-5-1990 فضلا عن طبيعة النظام القائم التي اتخذ مبادرات في اتجاه التعددية والديمقراطية . لذلك حاولت السعودية عرقلة التوحيد بتمويل بعض القبائل وبعض الحركات الاسلامويةالمناهضة للسلطة المركزية وللتوحيد .
فالنظام اليمني أقرب مذهبيا إلى النظام العراقي الذي شجع الوحدة ودفع من أجلها 50 مليون دولار . خصوصا ان فيلقين يمنيين كانا مع العراق في حربها ضد ايران . فالتعاطف مع العراق هو الذي حمل السلطة اليمنية بذل كل ما وسعها لإيجاد حل عربي مشرف .
وشاءت الصدف أن يكون اليمن القطر العربي الوحيد الذي له مقعد وقتي في مجلس الأمن عند اندلاع أزمة الخليج . وعندما كان المجلس يوم 6-8-90 ، بصدد إصدار قرارات العقوبات ضد العراق ، لم يتمكن مندوب اليمن من الاتصال بحكومته فآثر مغادرة الجلسة ، وهو ما لم تغفره السعودية رغم اعلان اليمن استعداده لتطبيق تلك القرارات . وقد كان ردّ فعل السعودية شديدا تمثل خاصة في طرد نصف مليون يمني يعملون فيها والغاء ما كانت تدفعه من مرتبات لعدد هام من رجال التعليم في اليمن وحذف جميع الامتيازات التي كانت تميز اليمنيين عن غيرهم من الأجانب .
وقد شنت الصحافة السعودية حملة لاعادة الملكية

وتنصيب بدر على عرش اليمن ودعت الى مقاطعة التجار اليمنيين الذين أجبروا على الاختيار بين الرحيل او تشريك سعودي في ما يملكون . كما زج بآلاف اليمنيين في سجون السعودية .
وهكذا حرمت اليمن من حوالي ملياري دولار سنويا من العملة المتأتية من جاليتها بالسعودية ، فضلا عن انقطاع التبادل مع العراق وتوقف معامل تكرير النفط بعدن بسبب الأزمة والحصار المضروب على العراق .
ورغم كل ذلك كان موقف اليمن متزنا فلا وجود لأي حملة مضادة واكتفى الرئيس اليمني بالقول " ان موقف اليمن ليس معروضا لا للبيع ولا للشراء".

الاردن ومنطق الوساطة

ان الاردن من اكثر الاقطار تضررا من أزمة الخليج ، فقد عرف وضعا صعبا جدا كاد يبلغ حد الاختناق الاقتصادي خصوصا أن أهم معاملاته كانت مع العراق فهو يورد منه 80٪ من نفطه ويصدر اليه ربع صادراته مما يشغل 16٪ من اليد العاملة . فمن الطبيعي ان تبذل الاردن كل جهودها من أجل وضع حدّ للأزمة بالتوصل إلى حل سلمي يوقف النزيف .
ولعله لا يوجد شخص بذل من الجهد ما بذله الملك حسين الذي قطع في بضعة أشهر 50 الف كم في سبيل المساعي السلمية .
والمتحالفون ضد العراق كانوا يريدون منه مساندة مطلقة لهم وكانوا يعتبرون جهوده السلمية محاولة لانقاذ صدام حسين بل ان الولايات المتحدة لم تغفر

له حتى مساعيه من إجل اطلاق سراح الرهائن الغربيين لانها كانت تريد المتاجرة بهم ضد العراق . لذلك شددت امريكا الضغط ماديا ومعنويا على الملك الاردني لحمله على مجاراتها . اما السعودية التي كانت تقدم له بعض الإعانة فقد أوقفت كل شيء بما في ذلك تزويده بالنفط بحجة عدم خلاص المبيعات السابقة في الوقت الذي تقلص فيه النفط العراقي الى أن توقف تماما . كما توقف التبادل التجاري الذي كان نشيطا خاصة بين ميناء العقبة الاردني والعراق .

ومما زاد الوضع صعوبة رجوع ثلث مليون اردني من الخليج انضافوا الى حوالي 20٪ من العاطلين في بلد نسبة نموه الديمغرافي من أرفع النسب في العالم (2ر4٪) . ولئن كان الملك متزنا في مواقفه وذهب الى حدّ التنديد باختراق صواريخ الحسين التي اطلقها العراق على اسرائيل مجال الاردن الجوي ، فانه نبّه من جهة أخرى الإدارة الامريكية الى أن جيشه لن يسكت عن أي تدخل اسرائيلي في النزاع .

لكن الحكومة والبرلمان الاردنيان هما اللذان كانا يعبّران عن المشاعر الشعبية بمهاجمة السياسة الامريكية في المنطقة .

ورغم التأييد الشعبي للعراق فان المظاهرات كانت في الواقع قليلة نسبيا . لكن صدام حسين أصبح لدى الشعب الاردني بطلا لأنه تحدّى امريكا واسرائيل ولانه ربط حل أزمة الخليج بالقضية الفلسطينية . ومن المعلوم أن ثلثي الشعب الاردني فلسطينيون .

خصوصيات هذا الوضع لم يشأ التحالف ضد العراق أن يفهمه ولذلك كانت خيبة ظن الملك الاردني كبيرة خصوصا انه كان دوما حليفا للغرب ولامريكا فاذا بها لا تغفر له أن يخالفها الرأي لأول مرة . وترجع خيبة الظن أيضا الى الاقتناع بان موقف امريكا يخدم مصالح اسرائيل على حساب العرب جميعا في حين أن الاردن يعتبر أن الخطر الوحيد عليه لا يمكن ان يأتيه الا من اسرائيل وخاصة بعد تكثف الهجرة الموجهة الى اسرائيل من الاتحاد السوفياتي وما تمثله من خطر التوسع على حساب الأراضي العربية .

ولعل اتكاء الاردن على العراق انما كان ايضا بسبب الخطر الاسرائيلي . أما الآن وبعد تدمير العراق فان الاردن يجد نفسه معزولا لا يحيط به الا المتحالفون المنخرطون في الحل الامريكي .

لكن عزاء الملك الوحيد هو أن شعبيته في بلاده لم تبلغ قط ما بلغته اليوم وان صفحة سبتمبر ايلول الاسود قد تم تجاوزها وطيها نهائيا .

السودان ومنطق التميّز

لا نكاد نعثر في الصحافة عل أخبار السودان وموقفها من أزمة الخليج عدا الأخبار الزائفة المشوهة كاتهامها باخفاء الطائرات الحربية ومنصات الصواريخ العراقية . لكن الموقف الرسمي السوداني عبّر عنه رئيسه في حديث خاطف لمجلة جون افريك بباريس (عدد 1550 ،12 / 18-9-1990) اذ اكد اقتناعه اثر لقائه بصدام حسين يوم 26-8-1990

ان الحل السلمي ممكن جداً في إطار عربي وان العراق مستعد للانسحاب من الكويت في إطار حلّ مشرف .

هذا الاقتناع هو الذي يفسّر تنقل الرئيس السوداني بين بعض العواصم العربية والاوروبية من أجل إيجاد حلّ .

ولعل وضع السودان الصعب سياسيا واقتصاديا وخصوصا الحرب الانفصالية في الجنوب هو الذي يجع لهذا البلد عرضة لضغوط غربية وعربية أقوى . وقد يكون هذا الشعور بالعزلة هو الدافع الى الاتفاق مع ليبيا على الوحدة ويعتبر الرئيس السوداني ان هذه الوحدة جدية لان بدايتها جيدة إذ تم بعث أمانة عامة للغرض . هذا الوضع هو الذي يجعل موقف السودان في المنطقة متميزا .

البلدان الاسلامية الفاعلة

بعض البلدان الاسلامية كانت طرفا فاعلا في أزمة الخليج بدرجات متفاوتة ومن منطلقات متباينة . ومن أبرز هذه البلدان الاسلامية ايران وتركيا وباكستان التي كثفت التعاون في ضوء أزمة الخليج ولكن دور ايران كان أبرز على الصعيد السياسي خاصة اعتبارا لموقعها في الخليج وللدور النشيط الذي قامت به منذ اندلاع الأزمة .

ايران ومنطق الثأر

عندما اندلعت أزمة الخليج وأحس العراق بالخطر الامريكي سعى الى تحييد ايران بفض الخلاف معها وطي صفحة الحرب وذلك بالتخلي لها عن المناطق المتنازع عليها منذ ان احتل الشاه سنة 1971 بتواطؤ من الغرب الجزر الثلاث المتحكمة في مضيق هرمز . وهكذا تحول إيقاف الحرب بمقتضى القرار الأممي عدد 98 الصادر سنة 1988 عن مجلس الأمن ، وهو الايقاف الذي اعتبره الخميني أمرّ من السمّ ، تحول بفضل أزمة الخليج الجديدة الى انتصار ايراني بقبول العراق جميع الشروط الايرانية وتخليه عن كل شيء خاض من أجله الحرب طوال ثماني سنوات. وقد بدت ايران أول الأمر مترددة لأن الطرفين المتحاربين وهما العراق وامريكا عدوّان لها . ورغم ان المتشددين كانوا يدعون الى مساندة العراق في حرب يعتبرونها صليبية ضد الإسلام . فان الحكومة آثرت الحياد رغم تكثيف العراق مساعيه في اتجاهها وتبني موقفها من تدويل الأراضي المقدسة بالحجاز وتردد كبار المسؤولين العراقيين عليها خلال الحرب . ولئن شمتت ايران بالكويت لأنه ساند العراق عليها ، فانها كانت ضد ضم الكويت لمعارضتها توسع العراق وما ينجر عنه من اختلال التوازن في المنطقة ولأنها لا ترضى كذلك بحضور امريكي متواصل بها . فايران لا تتفق مع العراق الاّ في السياسة النفطية .

كما ان ايران لم تكن في الواقع تكره ان يضرب العراق ضربة تحدّ من خطره لمدة من الزمن وتمكنها من تغذية دعايتها ضد الامبريالية ومن تحميل العراق مسؤولية الحضور الأجنبي بالمنطقة بسبب اجتياح الكويت . وقد أحسنت ايران بصفة عامة استغلال حيادها للخروج من العزلة التي كانت فيها ، اذ تمكنت في ضوء الأزمة من أن تصبح محطة من محطات التشاور والبحث عن حلّ وان تعرض وساطتها بين العراق وامريكا أو للتباحث في ما بعد الحرب ، خاصة بعد أن سارعت الى إعادة الجسور مع الغرب فطبّعت علاقاتها بفرنسا وأعادت علاقاتها الديبلوماسية مع بريطانيا وكذلك مع أقطار عربية مثل الاردن وتونس والسعودية .

وفي ضوء الحرب والانفتاح على الغرب تهافتت المؤسسات الغربية عليها وخاصة الفرنسية والايطالية .

كما دعمت ايران علاقاتها مع تركيا وباكستان رغم أنهما حليفتا امريكا . وهكذا عوضت لتركيا النفط الذي انقطع عنها من العراق كما شاركت مع باكستان في مناورات بحرية بخليج عمان . ورغم ذلك فان امريكا والتحالف المناهض للعراق بقي متخوفا من تحسّن العلاقات مع العراق تخوفا غذته ازدواجية الخطاب الايراني وتناقضاته . لكن ايران طمأنت حليفتها سوريا مؤكدة لها حرصها على دعم علاقاتها معها لا مع العراق .

وقد اتخذت الحكومة الايرانية منذ بداية الأزمة بعض الاجراءات المحتشمة التي ترضي التحالف منها منع مظاهرة 17-8-90 التي دعا اليها

المتشدّدون للاحتجاج على الحضور العسكري الأجنبي في المنطقة .
كما تعددت الغمزات في اتجاه امريكا والغرب من ذلك تصريح الرئيس الايراني بانه " لا يضمن الامن في المنطقة الا بلد قوي مثل ايران " . وقد تعددت أشكال التعاون مع الغرب خاصة أعد وقف القتال فقد قبلت ايران دخول الإعانة الامريكية الى اللاجئين الاكراد بايران بل انها طالبت بمعاملة الشيعة على غرار الاكراد وعملت على عرقلة وصول الأدوية الى العراق ، فقد عبّر أحد الاطباء عن دهشته من السلوك الايراني إذ لاحظ ان الإجراءات الأمنية مشددة كما لو كانت ايران هي التي في حرب ، ولاحظ ان كل من يسعى الى التنقل عبر التراب الايراني نظرا لتعطل المواصلات في العراق ، كان يعامل كما لو كان لاجئا فيعزل في مخيم ثم ينقل الى مخيم آخر لا تتوفر فيه الظروف الصحية ولا يتمكن حتى من الاتصال بطبيب المخيم .
كما أكد هذا الطبيب أن ايران تحجز كل معونة طبية موجهة الى العراق وذكر مثال عشرين شاحنة قادمة بالأدوية من ألمانيا دخلت ايران عبر تركيا لكنها أجبرت على إفراغ حمولتها في طهران رغم بعدها عن العراق ، ولا يدري مصيرها بعد ذلك .
وقد أكدت عديد المصادر أن ايران تصرفت مع العراق في الواقع بمنطق الثأر بلا شفقة ولا رحمة (شهادة الطبيب اوردت في استجواب مجلة جون افريك عدد 1576 ، من 13 الى 19-3-91) . وقد انكشفت حقيقة الموقف الايراني بالخصوص في أعقاب الحرب عندما سعت الى الاجهاز على النظام

العراقي باثارة الشيعة ضده في الجنوب وتشجيع الاكراد في الشمال . وقد تسبب ذلك في حرب أهلية مدمرة تدخلت فيها ايران تدخلا مباشرا مكشوفا أتى على ما تبقّى بعد التدمير الذي ألحقه بالعراق التحالف المعادي له ، وقد ذهب ضحية التمرّد الذي غذته ايران بالخصوص عشرات الآلاف من القتلى .

ويرى كثير من الملاحظين أن تعامل ايران مع اسرائيل وخاصة خلال حربها مع العراق ، انما يدل على اعتبارها وجود اسرائيل إضعافا للعرب رغم رغبتها في قيام دولة فلسطينية .

ومن مظاهر تمكّن العداء تجاه العراق ، تصرف ايران في قضية الطائرات التي أمّنتها العراق عندها أثناء الحرب ولكنها في نظر العراق غدرت بها وخانت الأمانة بعد ان رفضت إرجاعها .

وبصفة عامة فان ايران تعتبر نفسها الرابح الرئيسي من هذه الحرب . ويمكن القول فعلا انها الرابحة الرئيسية مع اسرائيل .

تركيا ومنطق التمغرب

لقد سعت العراق منذ بدء الأزمة الى تحييد تركيا فقد عرضت عليها مدها مجانا بالنفط مدة عامين ومساعدتها على الثوار الاكراد بعد انتهاء الأزمة . لكن تركيا رفضت العرض لأنها راهنت على انهيار العراق سريعا لتحقيق مكاسب عاجلة تتمثل في تكسير طموح العراق في المنطقة والظهور في مظهر المدافع عن الكويت والسعودية للحصول على مقابل من البلدان النفطية ، بالإضافة إلى ما يمكن

أن تجنيه من مساعدة امريكا في سياستها بالمنطقة ، خصوصا بعد أن ضعف دور تركيا الاستراتيجي إثر زوال الخطر السوفياتي .

وقد بدت تركيا حريصة على تلميع صورتها في الغرب ولو بالإيغال في التبعية على حساب السياسة المستقلة . ويبدو أن من أسباب ذلك أيضا رفض السوق الاوروبية في فيفري 1990 قبول طلب تركيا الانضمام اليها . ولعل تركيا تعوّل على امريكا في التوسط لها بعد الأزمة لدى السوق الاوروبية .

لأجل كل ذلك فرّطت تركيا في فرصة نادرة لتقوم في المنطقة بدور الوسيط الذي يعزز مكانتها في قلوب العرب وفضلت المشاركة الفعالة في التحالف ضد العراق فبادرت منذ 7-8-90 بإغلاق القناة التي تنقل النفط العراقي الى المتوسط ثم أغلقت الحدود حتى أصبح رئيسها يفاخر بان المقاطعة التركية للعراق هي في الواقع حصار . ولعل الرئيس التركي اوزال من أشد المتحمسين في بلاده لهذه السياسة التي اعتبرها بعض الملاحظين سياسته الشخصية التي تكاد تكون فردية . فقد خاض صراعا طويلا ليتوصّل بعد شهرين الى اقتلاع الحق في إرسال قوات تركية الى الخارج اذا طلبت منه السعودية ذلك .

وقد حشد على الحدود مع العراق حوالي مائة الف جندي بالاضافة الى ثمانين ألفا هناك يقاومون منذ عام الثوار الاكراد .

وبذلك أجبر العراق على الاحتفاظ في الشمال بثمانية فيالق تعد مائتي الف جندي . وقد طلب اوزال الحماية من الحلف الأطلسي بدعوى وجود خطر

عراقي على تركيا . وكان ذلك تعلة ليفرض على بلاده تسخير القواعد العسكرية التركية لأسراب الطائرات الاطلسية القادمة من اوروبا حتى تنطلق بعد ذلك من القواعد التركية لتهاجم العراق .

وهكذا خرجت تركيا عن سياستها التقليدية المتمثلة في عدم التدخل في الشؤون العربية وهو ما دفع بثلة من كبار المسؤولين مثل وزيري الخارجية والدفاع وقائد اركان الجيش الى الاستقالة احتجاجا على سياسة رئيسهم الفردية التي اعتبروها لا تخدم مصالح تركيا . وبذلك أصبحت تركيا طرفا في الحرب وبدت كأنها تودّ لو هاجمها العراق لتبادر باحتلال الشمال العراقي .

ولئن ساهمت تركيا مع ايران وسوريا والغرب في تشجيع الاكراد على الثورة على النظام العراقي لمزيد اضعافه رغم دمار الحرب ، فان تركيا استغلت تحالفها مع أمريكا لمعارضة قيام دولة كردية في شمال العراق لأن تركيا تضم عددا اكبر من الأكراد يكاد يبلغ ربع سكان البلاد . ولئن حرصت تركيا على تعويض تناقص مركزها الاستراتيجي بعد نهاية الحرب الباردة بالقيام بدور أنشط في منطقة الشرق الأوسط ، فانها بقيت متجهة أساسا الى الغرب واوروبا .

باكستان ومنطق التذبذب

باكستان من البلدان المشاركة مبدئيا في التحالف بأحد عشر الف جندي ولكنهم لم يشاركوا في القتال . والحكومة نددت باجتياح الكويت ولكنها سعت الى

القيام بوساطة فزار الوزير الاول عدة عواصم عربية خلال الحرب وتقدم بمشروع حلّ تجاهلته امريكا ولم يقبل به العراق . فكأن الحكومة كانت تسعى بذلك الى تخفيف حدة المعارضة الشعبية لارسال قوات باكستانية الى الخليج . هذه المعارضة الشعبية استغلها الجيش الذي ندد رئيس أركانه بتدمير العراق معتبرا إياه تجاوزا لقرارات مجلس الأمن ، وقد سعى الجيش بموقفه إلى فرض حضوره من جديد على الساحة السياسية واسترجاع مكانته شعبيا خصوصا أن حرب الخليج قوّت الشعور الشعبي المعادي لأمريكا . ولعل الجيش قد سعى بهذا الموقف أيضا الى الضغط على الادارة الامريكية لموقفها المناهض لسياسة التسلح الباكستانية ولا سيما في الميدان النووي .

ويلتقي الجيش في هذا ايضا مع الحركات الاسلاموية في باكستان التي ساندت العراق رغم تمويل السعودية لها . فهي تعتبر ان حرب الخليج مؤامرة امريكية صهيونية للتحكم في " النفط الإسلامي " ولإضعاف المسلمين .

وقد لاحظت باكستان أن امريكا التي كانت تعتبرها من أهم حلفائها بدأت تلوح عليها بوادر التحول عنها الى منافستها الهند . لذلك استغلت هذه الأزمة لدعم علاقاتها مع ايران بالخصوص مع المحافظة على علاقاتها الحسنة مع الأنظمة الخليجية .

كل هذه العوامل المتناقضة هي التي تجعل باكستان تعيش فترة تحول أو اعادة تمحور جعلت المواقف فيها من حرب الخليج متناقضة أحيانا ولا تخلو من تذبذب .

الحركات السياسية الاسلاموية

لم نشأ ان نتحدث عن كل واحدة على حدة في سياق القطر الذي تنتمي اليه لاجتناب التكرار وذلك لوجود نقاط تماثل رغم الخصوصيات واختلاف بعض المواقف او تعددها نسبيا .

فهذه الحركات إجمالا قد فاجأتها أزمة الخليج ووضعتها في موضع حيرة وارتباك ادّى بها أحيانا الى التناقض أو تقاسم الأدوار أو تغيير المواقف .

فهي حركات مرتبطة في أغلب الاحيان ماليا ومذهبيا بالسعودية وبايران وباكستان .وقد رأينا اختلاف مواقف هذه البلدان الثلاثة من الأزمة .

وهذا في حدّ ذاته سبب من أسباب اختلاف مواقفها اختلافا متفاوتا . لكن تعاطف الجماهير الشعبية العربية والاسلامية عموما مع العراق ضد العدوان الامريكي قد دفع بهذه الحركات الى مجاراة الشارع لتوظيفه سياسيا . ومما شجعها على ذلك ايضا تلون خطاب صدام حسين بلون ديني واضح جسّمه بتغيير العلم العراقي وزيادة عبارة " الله اكبر" فيه جعل هذه الحرب تبدو كانها حرب صليبية ضد الإسلام ، فكان التحالف معه ولو ظرفيّا .

لكن ذلك لم يمنعها من محاولة القيام بوساطات لم يستطع الطرف الاسلاموي المصري المشاركة فيها لان السلطة منعت الوفد من السفر رغم ان موقفهم في مصر متردد ولا يتناقض جوهريا مع موقف السلطة.

ولعل الحركتين الجزائرية ("جبهة الانقاذ " وهي حزب سياسي رسمي) والتونسية (" النهضة " وهي

حزب غير معترف به) يمثلان خير تمثيل هذه المواقف القائمة إما على تقاسم الأدوار الواضح كما في الجزائر (عباس مدني يسعى الى الوساطة وعلي بالحاج يدعو الى الجهاد مع العراق) أو إلى تقاسم أدوار لا يخلو من خلفية الاختلاف والانقسام.

فالحركة التونسية يمكن اعتبارها نموذجا من هذه الزاوية. فقد لازمت الحذر أول الأمر، ثم تناقضت التصريحات بين مؤيد للسعودية والكويت ومؤيد للعراق. وبعد فشل المساعي التوفيقية طغا على الحركة خط رئيسها المتواجد بالخارج وهو الموقف الذي تدرج الى مساندة العراق مساندة مطلقة الى حد تبرير ضم الكويت وإدانة الأنظمة العربية المتحالفة مع الغرب ضد العراق ووصفها بالخيانة والدعوة إلى الجهاد مع العراق.

عند ذلك حاول أنصار الحركة النزول الى الشارع للالتحام مع المظاهرات والمسيرات الشعبية المساندة للعراق بعد العدوان عليه قصد استغلالها وتحويلها ضد النظام برفع شعارات مناهضة له. لكن هذه المحاولات فشلت فتحولت شيئا فشيئا، خصوصا بعد توقف المعارك في الخليج، الى أعمال عنف وحرق لزعزعة النظام القائم.

وبصفة عامة، فان هذه المواقف المتضاربة قد أساءت الى هذه الحركات شعبيا ومسبت من مصداقيتها في المستوى الشعبي. لكن الفراغ الذي يشكو منه العالم العربي هو الذي جعل هذا الخسران محدودا رغم كل شيء ولكنه متفاوت من قطر الى آخر حسب خصوصيات الأوضاع ولعله في تونس اكبر.

مواقف الأطراف الاجنبية

ان ما تشترك فيه مواقف الأطراف الاجنبية عموما ، اذا استثنينا كوبا التي عارضت في مجلس الأمن جلّ القرارات الصادرة ضد العراق ، هو انها مشاركة في العدوان على العراق بصفة مباشرة ، اي بالحضور العسكري في التحالف او التمويل او التسهيلات العسكرية ، او بصفة غير مباشرة بالصمت او ترك الحبل على الغارب للولايات المتحدة لتفعل ما تشاء في المنطقة خوفا أو عجزا . والولايات المتحدة الامريكية هي التي قادت هذا العدوان من أوله الى آخره وجرت في سياقها جلّ قوى العالم وورّطت الحلف الأطلسي في حرب تقع خارج المنطقة التي تشملها معاهدة الشمال الاطلسي.

الولايات المتحدة الامريكية ومنطق الهيمنة

ان المنطق الذي تحكّم في تصرف الادارة الامريكية تجاه أزمة الخليج معقد ولكنه يتلخص في نزعة الهيمنة على العالم وفي منطق القوة المغلف بشعارات المصالح والشرعية والقانون . لكن الغلاف ليس دائما محكم الوضع وكثيرا ما ترشح الاسباب العميقة وتنكشف الحقيقة عارية من خلال تناقض التصريحات والمواقف والقرارات .

وإن ما يبدو جليا في الموقف الامريكي رغم بعض مظاهر التردد ، هو الحرص الشديد على الحرب والعدوان على العراق . ولنا ان نتساءل عن الدوافع الكامنة وراء هذا الحرص .

من هذه الدوافع ما كان راجعا الى أسباب داخلية منها ما هو اقتصادي اجتماعي يتمثل في وجود انكماش اقتصادي شامل من مظاهره عجز فادح في الميزانية يقدر بحوالي ثلاثمائة مليار دولار خلال السنة الجارية وانخفاض قيم البورصة وارتفاع البطالة وتراكم الديون التي تقدر بثلاثة الاف مليار دولار ، يضاف الى ذلك إفلاس صناديق الضمان الاجتماعي إفلاسا فادحا .

فالجهاز الاقتصادي في أزمة انجرت عنها أزمة اجتماعية حادة . ففي النصف الثاني من سنة 1990 حذف قرابة 780 الف موطن شغل ويوجد الان حوالي 13٪ من السكان اي اكثر من ثلاثين مليون نسمة تحت مستوى الفقر ، فضلا عن وجود حوالي 40 مليونا بدون تغطية اجتماعية ولعل هذا ما دفع ببول كيندي الى تأليف كتاب قاس أسماه : عظمة القوى الكبرى وأفول نجمها ".

ومن الطبيعي ان ينجر عن ذلك بداية أزمة سياسية ، فقد اخذت صورة بوش تتشوه رغم أن هذا الوضع من نتائج سياسة سلفه ريغن . ولكن بوش كان نائبا له ويتحمل نتائج تلك السياسة . وقد بلغ الأمر حدّ التهكم على بوش الذي يوصف بالتردد والميوعة قولا وصورا كاريكاتورية . وقد لخصت واشنطن بوست هذه الصورة ساخرة :" الرئيس أظهر للناخبين أنه لا يمكن أن تكون له شجاعة

قناعاته اذا كانت له قناعات ". وقد نتج عن ذلك سياسيا ان تقهقر الجمهوريون في الانتخابات التشريعية في 6-11-90 وبدأ يسود التخوف من الفشل في الانتخابات الرئاسية سنة 1992 .

وبصفة عامة فان معنوياته لم تكن في هذه الفترة مرتفعة . وقد دفع تدهور الوضع الداخلي بعض الملاحظين الى التذكير بقاعدة سياسية تتمثل في ان الحاكم الذي يشكو مصاعب داخلية كثيرا ما ينزع الى تلميع صورته في الخارج بالاقدام على مغامرة خارج حدوده تمكنه من العمل على إسكات الأصوات المناهضة في الداخل . ويجب التذكير في هذا الصدد ان امريكا لم تكسب اي حرب منذ الحرب العالمية الثانية ، بل انها بقيت تجتر هزيمتها في فيتنام التي تحولت الى عقدة لم تكف قرانادا ولا باناما لحلّها .

مثل هذه العقدة تظهر بوضوح في قول بوش خلال أزمة الخليج "ان الخطأ ليس في خوض امريكا حرب فيتنام ولكن الخطأ كان في خوضها بدون إرادة الانتصار".

كما تظهر في قول المسؤولين الامريكيين بعد الحرب " لقد برهنا عى قدرتنا على كسب حرب " وقد عبروا في مناسبات عديدة عن فرحهم فرحا صبيانيا بتخلصهم من العقدة الفيتنامية وكانما انتصروا على دولة عظمى يمكن ان تقاس بهم وتقارن .

هذه العقدة تربط في الحقيقة العوامل الداخلية بالعوامل الخارجية ذات البعد العالمي ، وذلك بالسعي الى معالجة الوضع الداخلي النفسي

والاجتماعي والحدّ من مفعول التراجع الاقتصادي باستغلال القوة العسكرية ، وهو منطق استعماري بأتم معنى الكلمة ، فأمريكا تريد القيام بدور الشرطي في العالم وهي تمتلك القوة العسكرية بدون امتلاك الوسائل المالية الكافية لذلك ، وهذا ما يفسر العقلية الجديدة التي طبعت سلوك الادارة الامريكية وهي عقلية الاستجداء بالترغيب والترهيب وكانها عصابة مرتزقة تريد فرض جمع المال اللازم بالقوة لتحقيق أهدافها . وهذه الاهداف التي اتضحت اكثر بعد انتهاء الحرب الباردة لانسحاب الاتحاد السوفياتي منها مكرها تتلخص في تحديد ملامح عالم ما بعد الحرب الباردة ، الذي تهيمن عليه امريكا وحدها . وأهم سلاح يسهل هذه الهيمنة هو النفط ، فالتحكم في منابع النفط يعني التحكم في القوى الاقتصادية الكبرى وخاصة اليابان والمانيا واوروبا عموما ، والتحكم في ثروات العالم الثالث .

لذلك فان افتعال حرب الخليج هو المفتاح ، فضلا عن تحقيقه أهدافا أخرى هامة مثل القضاء على كل تهديد محتمل لاسرائيل وتركها القوة الوحيدة في المنطقة . وتحويل الأنظار عن الانتفاضة الفلسطينية وقطع الموارد عنها لإجهاضها .

وقد عبّر المسؤولون في الادارة الامريكية عن هذه الأهداف بطرق شتّى فيها كلام فضفاض وشعارات جوفاء ولكنها تنم رغم ذلك عن النوايا الحقيقية . فهذا بوش يصرّح أمام الكنغرس بعد أسابيع من أزمة الخليج " على أمريكا والعالم ان يدافعا عن مصالحهما الحيوية المشتركة " فما يكون هذا " العالم

غير العالم الغربي لأن باقي العالم ليس من العالم . فهو لا يصلح الا للابتزاز والتسخير . ومع ذلك ينفي بوش ان يكون دوره في الخليج دور تهديم ويؤكد انه " وضع حجر الاساس لنظام عالمي جديد "أكثر سلاما وعدلا كما يقول في مواضع أخرى".

مفهوم النظام العالمي الجديد قد يغري ككل جديد ولكن غموضه يجعله كالسراب ولا يمكن ان تحققه الحرب . وقد كثر الحديث عنه ولكن لا أحد من دعاته وضع معالمه وخطوطه وشروطه ومراحله وأساليب إنجازه . وهو ما يجعل منه شعارا صالحا للمغالطة وخداع الرأي العام ، كما يتبين من الأحداث ومن تصريحات أخرى أقل خبثا لأنها أكثر وضوحا . فوزير الدفاع يؤكد :" علينا ان نحتفظ بقدرتنا على السيطرة على محيطات العالم وعلى احترام التزاماتنا في اوروبا والمحيط الهادي ، ونشر قواتنا سواء في الجنوب الشرقي من آسيا او في باناما لمجابهة الطوارىء دفاعا عن حياة الناس وعن المصالح الأمريكية ". اما وزير الخارجية فيقول : "لا أظن ان زعامة أمريكا يجب ان تنحصر في ميادين الأمن والسياسة بل يجب ان تتسع الى الميدان الاقتصادي".

ولكي يتحقق ذلك ، كان المسؤولون الامريكيون يعتقدون جازم الاعتقاد " ان الانتصار [كما يسمونه] في هذه الحرب [على العراق] ، في أسرع وقت ممكن يجعل امريكا تبدو للعالم أجمع أقوى ، حتى تقدم الدليل على ان لها الامكانيات لاقرار نظام عالمي جديد " . ذلك ان العراق أصبح في نظر الادارة الامريكية عقبة في سبيل اقرار هذا النظام

الامريكي الجديد ، لذلك وجب إزاحته وتقديمه عبرة لغيره لا بكسر شوكته فحسب وانما بتدميره تدميرا تاما . وهذا ما يفسّر تجاوز التدمير العسكري الى تدمير جميع المنشآت الحيوية دون استثناء . ورغم أن الوضع القديم في الشرق الأوسط منذ كامب دايفد مناسب لامريكا ، فان العراق هو الذي أصبح يمثل البعوضة المقلقة التي يجب سحقها .

وما كان هذا ليحدث او ليكون ممكنا في ظل الحرب الباردة وتنافس العملاقين وهو ما يعترف به أحد مسؤولي الخارجية حين قال في 20-9-91 :" ان اكبر فضل للسوفيات بانهاء الحرب الباردة هو انه لأول مرة منذ اربعين عاما ، بإمكاننا القيام بعمليات عسكرية في الشرق الأوسط دون ان نخشى اندلاع الحرب العالمية الثالثة ".

كل هذه العوامل الداخلية والخارجية هي التي تفسّر حرص الادارة الامريكية على الحرب حرصا كان في الغالب مفضوحا رغم محاولات الإخفاء أحيانا .

ومن أبرز مظاهر هذا الحرص رفض جميع مقترحات السلام المتعددة المصادر والأشكال وإجهاض جميع المبادرات كما سبق أن رأينا . وقد تحمّل بوش مسؤولية الحرب في خطابه يوم 29-1-91 ، ولم يخف أنه أرادها وقررها وبرمجها واعتبر أن امريكا وحدها لها الارادة والشجاعة لخوض هذه الحرب التي هي " فدية القوة والزعامة في العالم ".

وقد اعترف مستشار بوش العسكري بأن " الهدف من الحرب هو تدمير القوة العسكرية العراقية ".

وقد رأينا كيف تطور الخطاب الرسمي شيئا فشيئا نحو استسلام العراق دون قيد أو شرط

لإذلاله وتقديمه درسا لغيره حتى لا يفكّر أحد في عرقلة التصور الامريكي للنظام العالمي الجديد .

ورغم وضوح هذه الأهداف فان تحقيقها لم يكن أول الأمر سهلا ولذلك تميّز الموقف الامريكي بكثير من التردد المصحوب بنقاش حاد بين مناصري هذا التوجه ومعارضيه .

وقد سبق أن رأينا ان الأوساط الصهيونية وأوساط تجارة السلاح وأصحاب المصالح الاقتصادية والمالية وجلّ وسائل الإعلام كانت تناصر هذا التوجه خصوصا ان الحرب تستهدف بلدا عربيا لا نصير له وقد وجدوا في بعض المسؤولين القدامى من يدعمه مثل كيسنجر صاحب فكرة " العملية الجراحية " اي الحرب الخفيفة "النظيفة" ذات السرعة الخاطفة ومثل نكسون الذي فتح باب الفضائح الرئاسية في امريكا حتى عزل ومع ذلك لا يخجل من وصف التدخل الامريكي في الخليج بأنه " عمل أخلاقي الى حدّ كبير ".

لكن قوة هذه الأوساط لم تمنع ارتفاع أصوات كثيرة معارضة رغم اختلاف منطلقاتها . فمنها ما كان معارضا لسياسة بوش من الأساس الى حدّ الاتهام مثل شارل بيترز في " واشنطن مونثلي "(17-1-91) الذي اعتبر ان بوش هو مهندس "الفخ" الحالي ويقصد به الفخ المنصوب لصدام حسين من قبل وللعالم الآن إذ بين ان تجميع مثل تلك القوة لا يمكن ان يؤول إلاّ الى الحرب .

بيد أن جلّ المعارضين كانوا ضد التسرع في شن الحرب ويفضلون الحلول الديبلوماسية فقد لاحظت بعض الصحف أنه لم يقع أي تفاوض وأن ما جرى

في مثل لقاء بيكر وطارق عزيز هو خدعة ومغالطة وأنه في آخر المطاف " لم يترك في هذه القضية اي مكان للديبلوماسية " كما قالت نيويورك تايمز .

ولذلك تعددت الأصوات الداعية إلى ترك فرصة كافية للمقاطعة دون اللجوء الى الحرب كما قال سام تون وهو ديمقراطي يرأس لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ في واشنطن بوست (12-1-91) " مازلت أساند الخطة الأصلية للرئيس بوش في الخليج : عقوبات اقتصادية وتهديد عسكري ممكن وصبر ... أما الحرب ، فمهما كان الانتصار فيها ، فان اغلب العالم العربي والاسلامي سيعتبرها صليبية امريكية ".

وقد عبّر رتشارد هولمان وهو جامعي عن فكرة مماثلة حين قال منتقدا :" ان الرئيس بوش صرح بان صبره حيال العراق قد نفد ، في حين ان الصبر ضروري لنجاح هذه التجربة [اي المقاطعة] في عام او اثنين او حتى ثلاثة . فاذا قرر الرئيس بوش الهجوم ، فشلت التجربة ولن يعرف العالم مدى نجاح عقوبات اقتصادية صارمة فرضتها المجموعة الدولية بشبه إجماع في كسر عملية عدوان مسلح ".

ولقد تضايق بوش كثيرا عندما صرح ثلاثة من كبار القادة العسكريين امام الكنغرس بانه من الأفضل ترك مزيد من الوقت لمقاطعة العراق .

وبصفة عامة فان الرأي العام الامريكي كان في أغلبه مناهضا للحرب وقد تدعم هذا الموقف باطلاق سراح الرهائن الامريكيين ولذلك فان الكنغرس كان شديد الاحتراز من تحمس بوش للحرب وما حصل عليه من الكنغرس لم يكن " اعلان حرب " كما ظنه

البعض وانما كان حسب الملاحظين " إعلانا ممكنا " فضلا عن ضعف الاغلبية المصوتة . ولمواجهة هذه المعارضة وهذا الاحتراز توخت الادارة الامريكية أسلوب المناورة والخداع والكذب في كثير من الاحيان دون خوف من التناقض وحصر القرار في عدد قليل من المقربين . فقد سجّل الملاحظون ضعف استشارة بوش لغير خاصته وحذره من كل من له رأي لا يتطابق مع ما حدده لنفسه من أهداف وقد لاحظت ذلك مثلا صحيفة التايم (7-1-91) حين قالت :"ان ميل بوش الى السرية وان خططه وحيله وارادة اقحام الوطن في اتجاه حدده وحده .... من شأن ذلك كله ان يولّد الشكوك في أذهان كثير من الامريكيين لأنهم لا يفهمون الأهداف الحقيقية التي لم يكشفها لهم".

وقد عمد في سبيل الوصول الى أهدافه الى اتباع أسلوب التدرج الذي يظهر الكذب في مظهر تطوير المواقف . فكم صرح من مرة مؤكدا : "ليس هدفنا غزو العراق وانما هو تحرير الكويت" وبعد بدء الحرب أصبح الهدف تدمير العراق وإسقاط صدام حسين . فمنذ 19-1-91 أصبحت الادارة الامريكية تؤكد أن العراق "يجب تدميره عسكريا بغض الطرف عن انسحابه من الكويت" فالانسحاب من الكويت لم يعد هو الهدف الرئيسي .

ولعلّ هذا الأسلوب يتوضّح أيضا في اقتلاع القرارات المتتالية بتدرج من مجلس الأمن . ونفس الأسلوب استعمل مع الدول التي أقحمت في التحالف بالترغيب او الترهيب أو المخادعة وقد انخدع الكثيرون لكن البعض لم يعد يجرأ على

التراجع بعد ان تورّط . لذلك وقعت جلّ أطراف التحالف في التناقض .
وان الامثلة على المغالطة كثيرة جدّا نذكر منها على سبيل المثال في المستوى الداخلي اعتبار بوش ان له صلاحيات شن الحرب حتى اذا لم يوافق الكنغرس . وفي المستوى الدولي اعتبار ان الحرب تندرج في نطاق " الدفاع الشرعي " طبقا للبند 51 من ميثاق الامم المتحدة . لكن عندما عارض دي كويلار هذا التفسير معتبرا أنه لا يمكن استعمال هذا البند بعد ثلاثة أشهر من الاجتياح وبعد أن أصدر مجلس الأمن قرارات العقوبات، ، حرصت الادارة الامريكية على استصدار قرار يشرّع استعمال القوة ضد العراق لإضفاء صبغة شرعية على عدوانها . ومن أبرز أشكال الخداع اقتراح لقاء بيكر وطارق عزيز الذي انزعج منه دعاة الحرب مثل كيسنجر والأوساط الصهيونية عموما . فعمدت الادارة الى تطمينهم بالتأكيد على انها " ليست مفاوضات " وتطمين المناهضين للحرب بوصف المقابلة بانها " تبادل وجهات نظر ". ولإعداد الرأي العام للحرب كثر التأكيد على ان المقاطعة لم تعط النتائج المرجوة كما قال بيكر منذ 5-12-90 أمام مجلس الشيوخ . هذا التأكيد وغيره كان يهدف الى مغالطة الرأي العام الذي كان عموما يعتقد ان المقاطعة لم تستوف شروطها وان الوقت سيكون له اثره لا محالة .
وان تهيئة الرأي العام قد كانت أيضا نفسية فمنذ 8-11-90 أي إثر انتهاء الانتخابات التشريعية في امريكا ، أعلن البيت الابيض مضاعفة عدد الجنود بالخليج . وبذلك يتهيأ الرأي العام نفسيا للحرب

بالإضافة الى تهيئته بشعارات تردد باستمرار مثل "لا هدية على العدوان" و "لا مجال لحفظ ماء وجه صدام" بحجة انه " معتد " كانما هو أول اعتداء يقع في عالم اليوم . كل هذه المناورات والحيل أثرت فعلا في موقف الرأي العام حتى أصبح يساند الحرب أو على الأقل لا يعارضها بشدة خصوصا أن الرأي العام الأمريكي غير مسيّس ، سهل الانقياد بالدعاية والإعلام الموجه . وقد تواصل التناقض المقصود في المواقف حتى بعد الحرب : فمن جهة تؤكد الادارة الامريكية عزمها على الحدّ من التسلح في المنطقة ومن جهة أخرى تواصل بيع أسلحتها ودعم اسرائيل خاصة بالسلاح وكانها ترسانة أمريكية .

والواقع ان تسليح أنظمة الخليج ليس له من معنى غير المعنى التجاري لسلب ثرواتهم بأسلحة باهضة لا يستطيعون الاستفادة منها وانما تتخذ ذريعة لمزيد تسليح اسرائيل باسم المحافظة على التوازن في حين أنه مختل اختلالا صارخا لفائدة اسرائيل . فالتوازن بالمفهوم الامريكي هو ضمان تفوق اسرائيل على العرب .

وهكذا صرفت 38٪ من عائدات النفط العربي خلال الثمانينات في التسلح بينما لم يخصص للتنمية الا 8ر23٪ منها .

وان ما شجع الولايات المتحدة على انتهاج هذه السياسة المعادية لمصالح العرب انما هو تحالف أنظمة عربية معها رغم إرادة الشعوب . فهل باستطاعة الجماهير العربية ان تنسى ان امريكا كانت دوما الى جانب اسرائيل رغم جرائمها في حق العرب رغم خرقها للقانون الدولي ؟ فكم لجأت

امريكا الى حق النقض او الفيتو لمنع الأمم المتحدة من إدانة اسرائيل على جرائمها ؟
أما مع العراق فرغم خروجه من الكويت ورغم التدمير الشامل ، فان امريكا تواصل ضرب الحصار على الشعب العراقي وتجويعه لحمله على قلب صدام حسين بالقوة ، وهي سابقة أخرى تضاف إلى سوابق امريكا العديدة في هذه الحرب .
وقد تساءل كثير من الملاحظين : هل أصابت امريكا بتجاهلها لمشاعر الجماهير العربية ومصالحها ، أم انها راعت مصالح ظرفية آنية على حساب مصالح بعيدة المدى ؟ هؤلاء الملاحظون يؤكدون ان معارضة هذه السياسة الشاذة لم تمت حتى داخل امريكا ذلك ان كثيرا من الامريكيين الاذكياء يفهمون ان امريكا ليست رابحة في هذه الازمة على المدى البعيد . فالتحالف الذي قادته ليس تحالفا بقدر ما هو خليط جمع بسرعة ولا يمكن ان يدوم لان مصالحه متناقضة جوهريا .
كما يرون ان نزعة الهيمنة ستتسبب لامريكا في عزلة لم تعرف لها مثيلا . هذا فضلا عن ان الاهداف المعنلة لم تتحقق وهي إقرار السلام والأمن والعدل في منطقة الشرق الأوسط . وفي هذا يقول جورج بال وهو ديبلوماسي سابق ، في 6-12-90 " ان الهجوم .... حتى إن مكن من تحقيق أهداف واشنطن ، سوف يغرق الشرق الادنى في كابوس سياسي . انه قد يكون من اللامسؤولية الجنونية من طرفنا ان نستهل القرن القادم في ظروف تكون فيها إحدى أهم جهات العالم ينخرها سرطان الحقد والتعصب " .
ويؤكد رئيس تحرير نيوزويك منذ 26-11-90 انه "

مهما يكن ما يخرج من حطام بغداد اذا وصلنا الى ذلك ، فلن يكون نظاما عالميا جديدا " ويكفي ان نرى كيف تتعامل امريكا مع قضية الاكراد ومع اليهود المهاجرين وكيف تتدخل للضغط على نظام اثيوبيا لتمكين ما بقي من " الفلاشا " من الهجرة الى اسرائيل " وكيف ترفض قبول اليهود السوفيات لإجبارهم على التوجه الى اسرائيل حيث يأخذون مكان الفلسطينيين لنفهم نوع النظام الجديد الذي تريده امريكا للمنطقة ولا نريد إطلاقا الحكم على النوايا ولكن المواقف والأحداث والتصرفات الامريكية تنطق وحدها .

اسرائيل ومنطق الاستخفاف بالعالم

نتحدث عن اسرائيل مباشرة بعد الولايات المتحدة الامريكية لاعتقادنا أنها امتداد لها في الشرق الأدنى ولقد كانت اسرائيل أحرص من أي كان على تدمير قوة العراق في نطاق استراتيجيتها التقليدية القائمة على الحفاظ على تفوق عسكري على جميع العرب في المنطقة . ولذلك كانت حريصة على أن لا تبلغ دولة عربية واحدة اقتناء السلاح النووي . ولذلك اعتدت على العراق ودمّرت مفاعله النووي منذ أكثر من عشر سنوات . وقد أصبحت متخوفة من سلاحه الكيمياوي وصواريخه لا لأنه يهددها فعلا وإنما لأنه أصبح قادرا على الردع بينما تريد اسرائيل أن تكون قادرة على العدوان كلّما ارادت ذلك دون أن تكون أمامها قوة رادعة . وهذا هو الذي يفسّر ضغطها على الإدارة الامريكية لضرب العراق .

وقد لبت امريكا جميع طلباتها ، فخططت لضرب العراق ورفضت ربط قضية الكويت بالقضية الفلسطينية وحرصت بعد الانسحاب من الكويت على تدمير القوة العسكرية العراقية بصواريخها وأسلحتها الكيمياوية .

وقد تظاهرت اسرائيل بالحياد خلال العدوان على العراق باتفاق مع امريكا في حين أنها طرف باتم معنى الكلمة . فقد تضايقت كثيرا من إطلاق سراح الرهائن ومن مبادرات الحوار مع العراق حتى انها امام ما بدا لها ترددا امريكيا في وقت من الأوقات هددت بانه إذا تخلت امريكا عن تدمير القوة العراقية فانها ستتراجع عمّا التزمت به من حياد لعدم مضايقة امريكا في علاقاتها بحلفائها العرب ، وستضطر إلى أن تتولى بنفسها اتخاذ الاجراءات العسكرية الوقائية ضد العراق . والغاية من هذا التهديد الصالح للاستهلاك لا غير هو التظاهر بوضع الادارة الامريكية في مأزق يتمثل في الخيار التالي : إما الإقدام على محاربة العراق وحده واما قيام حرب اسرائيلية عربية جديدة قد تكون عواقبها أوخم بالنسبة إلى الغرب .

وقد اغتنمت اسرائيل فرصة الحرب لتصعيد القمع المسلط على الفلسطينيين بعد ان حجبت أزمة الخليج انتفاضة الشعب الفلسطيني ومعاناته . فقد فرضت منع الجولان بشكل حرم الفلسطينيين من العمل وكسب القوت والتموّن والعلاج ، ومن خرج من منزله ، إن لم يقتل ، دفع خطية باكثر من الف دينار مع خمس سنوات سجنا .

وإزاء استنكار بعض الأوساط لحرمان الفلسطينيين من الأقنعة الواقية من الغازات ، وزعت اسرائيل عليهم عددا محدودا جدا بنية خلق مشاكل في صلب نفس العائلة التي لا تجد عددا كافيا لأفرادها جميعا . لكن رغم كل هذا فان الإعلام الغربي المنحاز ما انفك يقدم اسرائيل في صورة الدولة المتعقلة المتزنة التي تمسكت بأعصابها ولم ترد الفعل رغم سقوط عشرات من صواريخ الحسين العراقية عليها ورغم حالة الذعر التي أصابتها .

وخلال أزمة الخليج جاءت مجزرة القدس التي اقترفتها اسرائيل في اكتوبر 90 وذهب ضحيتها عدد كبير من المدنيين الفلسطينيين العزّل . وقد سعت امريكا الى اضاعة الوقت في النقاشات والجزئيات لتعطيل إدانة اسرائيل مما جعل الرأي العام العالمي يلمس مرة أخرى نفاق امريكا حين تتحدث عن الشرعية الدولية وحقوق الإنسان . وقد نجح مجلس الأمن بصعوبة في إدانة اسرائيل التي سارعت الى رفض قرار المجلس كما رفضت جميع قراراته السابقة . وكان هذا التناقض في التعامل مع الشرعية الدولية في الخليج وفلسطين فظيعا حتى ان عديد الصحف في العالم تساءلت عن مقاييس امريكا وعمّا تفعل اسرائيل الى حدّ الان في رحاب الامم المتحدة وهي لا تعترف بقراراتها باستثناء القرار الجائر الذي خلق اسرائيل من عدم على حساب الفلسطينيين منذ نصف قرن ونيف .

وقد تظاهرت بعض الأوساط الصهيونية بالتخوف من ضغط امريكا على اسرائيل بعد " الانتصار " على العراق لحملها على تليين موقفها من قضية الأراضي

العربية المحتلة . وتروّج هذه الأوساط ان الاعتقاد السائد في اسرائيل هو أنها لن تدفع ثمن حلّ ما بعد الحرب اي لن تخرج من الأراضي المحتلة بل انها ستكون الرابحة من الأزمة نتيجة تدمير العراق وضعف منظمة التحرير الفلسطينية وتزعزع الاردن وأفول نجم الاتحاد السوفياتي وتزايد انخرام التوازن لصالحها بعد أن أغدق عليها الغرب الأموال والأسلحة بلا حساب جزءا " تعقلها " خلال الأزمة وخلال الحرب . لكن هذا الرأي السائد يوجد ما يناقضه داخل اسرائيل ، فهذا كاتب اسرائيلي يعتر بانه "لو لم يضع شامير عصا غليظة في عجلة السلام الهشة لما استطاع صدام البتة ان يبعث صواريخه على اسرائيل ولكانت اسرائيل اليوم تتفاوض مع الفلسطينيين ... لذلك فان شامير لا يستحق شيئا مما يغدق عليه اليوم من حفاوة وعناق".

وقد استغلت اسرائيل مصاعب الاتحاد السوفياتي لتحسين علاقاتها به والمساومة بالمهاجرين السوفيات الذين أجبروا على الهجرة الى اسرائيل بغلق المنافذ أمامهم في البلدان الغربية الأخرى . ونرى نفس الأسلوب مع فالاشا اثيوبيا . وكل ذلك بتنسيقٍ وتأييد من امريكا التي تتظاهر بالسعي الى حلّ القضية الفلسطينية . إن همّ اسرائيل ، التي ترفض الدولة الفلسطينية بدعوى أنه لا وجود لشعب فلسطيني وان الاردن هو الدولة الفلسطينية الوحيدة ، هو عرقلة كلّ حلّ للقضية الفلسطينية والسعي الى الاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة لحمل الدول العربية المجاورة على التفاوض معها

فرديا على الطريقة المصرية في كامب دايفد . ورغم المظاهر فان امريكا تؤيدها في ذلك جوهريا الى حد الآن وأكبر دليل على ذلك هو مساندتها في سياسة الهجرة الاستيطانية على حساب الفلسطينيين .

وما المساعي التي يقوم بها بيكر في الشرق الأدنى اليوم الا لحمل الاقطار العربية على الاقتراب من الموقف الاسرائيلي ومن التصور الامريكي للنظام الذي تريد فرضه في المنطقة العربية .

ولا تخفي بعض المصادر الغربية ذلك ، فالغوارديان البريطانية على سبيل المثال تؤكد خلال الحرب (29-1-91) " ان امريكا واسرائيل تسعيان للسيطرة على منطقة الخليج " بعد أن سيطرت اسرائيل منذ سنين طويلة على أهم الأراضي العربية بالقوة ضاربة عرض الحائط بالقرارات الأممية مستخفة بادناتها المتكررة ، وما كان لها ان تفعل لولا التشجيع الامريكي .

المواقف الاوروبية

لا يمكن الحديث عن موقف اوروبي رغم الحديث عن اوروبا الموحدة أو التي تسعى إلى التوحّد بعد أن حققت السوق المشتركة . لكن أزمة الخليج قد كشفت حدود الوحدة الاوروبية وحدود قوة اوروبا ووزنها ، أو بتعبير أدق ، كشفت ضعفها السياسي بالمقارنة مع وزنها الاقتصادي ، وقد تجلّى ذلك خاصة في تبعيتها لامريكا واصطفافها وراء القرار الامريكي رغم اختلاف الاسلوب وبعض مظاهر التردد او التلكؤ .

وقد سجّل ذلك جميع المراقبين وخاصة الاوروبيين أنفسهم ، وفي ذلك تقول لوموند دبلوماتيك (2-91) :" حرب الخليج كشفت استقالة اوروبا وعجزها عن تصور حلّ آخر غير الحرب ، فقبل ان تولد سياسيا اضمحلت من الساحة الدولية . إن علاقاتها مستقبلا مع الجنوب وكذلك مع العالم المصنع سوف لن تكون سهلة بمثل هذا التخلي عن الاستقلال " . فهذا الحكم القاسي عليها هو في مستوى خيبة الظن فيها ، فاوروبا لم تحرك ساكنا عندما شب الخلاف بين العراق والكويت قبل الاجتياح ، فما كان يهمها هو انعكاس الخلاف على سعر برميل النفط . ولعلها لم تكن تتوقع أن يؤول الخلاف المالي والترابي الى الاجتياح فاوروبا تبدو كأنها تتوقع حلا وسطا . وقد كان فعلا مطروحا لولا تدخل امريكا لتغيّر مجرى الأمور بقرار التدخل العسكري .

ثم ظنت اوروبا على ما يبدو أن مشاركتها في حلّ الأزمة سوف تقتصر على المقاطعة . لكن بعد القرار 678 ساد الشعور بأن الحرب أصبحت وشيكة . وأن اوروبا ستجرّ إليها جرّا . ولذلك صرح وزير خارجية إيطاليا بوصفه رئيس مجلس وزراء المجموعة عندما جدّ الخلاف حول صيغ الحوار الامريكي العراقي ، بأن على اوروبا أن تواصل الجهود من أجل حلّ سلمي إذ بدا واضحا أن الحوار الذي دعت اليه امريكا قبل شن الحرب إنما كان خدعة لإيهام الرأي العام العالمي بأنها لم تأل جهدا لاجتناب الحرب .

ومع ذلك فان صوت الوزير الايطالي لم تسانده الا اسبانيا والبرتغال وارلندا . اما البقية فانهم

رضخوا لضغط امريكا التي أصبحت شرطي العالم ، يقرّر ويفرض على أتباعه شكل المساهمات ، (بريطانيا تساهم خاصة بالسلاح والجنود ، والمانيا بالمال وتركيا بالقواعد العسكرية ، الخ) .
وهكذا تم استبعاد كل مقترح من أجل حوار اوروبي عراقي في الاجتماع الوزاري الاوروبي (14 و15–12–90) . وبذلك نزل مستوى الدور الاوروبي في هذه الأزمة الى الحضيض إذ تركت زمام المبادرة في يد بوش وحده ليقرر ما يشاء ويفرض على اوروبا ما يشاء .
وقد ظهر الانقسام جليا في صفوف المجموعة الاوروبية ممّا شلّ كل مبادرة جديّة ، خصوصا ان البلدان التي تساند صراحةِ حلا سلميا أقل وزنا من التي اختارت مجاراة الإرادة الامريكية مثل فرنسا او تأييدها بقوة مثل بريطانيا خاصة .
ولعل الفرصة الوحيدة التي شجعت اوروبا على القيام بمبادرة جدية كانت إثر إعلان لقاء بيكر وطارق عزيز . فقد قدمت فرنسا في اجتماع 4–1–91 خطة في سبع نقاط ، لكن صيغة الاتصال كانت في شكل دعوة طارق عزيز لمقابلة وزير خارجية اللوكسمبور يوم 10–1–91 أي قبل الهجوم على العراق بأقل من اسبوع ، لكن طارق عزيز رفض دعوة لم يستشر في تاريخها خصوصا أن اوروبا تراجعت قبل شهر من مواصلة مبادرة مماثلة مما جعل العراق يقتنع بعدم جدوى المبادرات الاوروبية مادام القرار بيد امريكا وحدها ، وهي التي لم تخف عزمها على الاحتفاظ وحدها بالقرار وكأنها تريد إفهام اوروبا بأنها إن أقرت بمنافستها اقتصاديا ،

فإنها لن تسمح لها بمنافستها سياسيا .
بيد أن هذا لا يخفي اختلاف مواقف البلدان الاوروبية باختلاف حجمها ومصالحها ومنطلقاتها والمنطق المتحكم في موقف كل منها .

بريطانيا ومنطق الالتصاق

يجمع الملاحظون على أن رئيسة الحكومة البريطانية السابقة تاتشر هي التي استحثت بوش على الحرب للقضاء على صدام حسين ، فقد سافرت خصيصا الى الولايات المتحدة عقب اجتياح الكويت للتباحث مع بوش في الموضوع .
ويروي بريماكوف المبعوث السوفياتي أنها أكدت له أن الانسحاب من الكويت لا يكفي بل يجب ضرب العراق و " قصم ظهر " صدام حسين وتحطيم قدرته العسكرية وحتى الصناعية ولا يجب ان يقف احد امام هذا الهدف . وعندما سألها :" الا ترين حلا آخر غير الحرب ؟" اجابت قطعا :لا . فسألها : اذا متى تبدأ الحرب ؟ فأجابت : " لا أستطيع الجواب لأن ذلك يجب ان يكون مفاجأة ".
وتاتشر هي التي قالت " لا تفاوض مع سارق " وهو كلام أقل ما يقال فيه أنه كلام غير مسؤول فضلا عما ينم عنه موقفها من عنصرية وحقد دفين تجاه العراق والعرب عموما قلّما نجد له مثيلا . ولم يتغير موقف بريطانيا بعد رحيل تاتشر ذلك ان بريطانيا الاستعمارية لم تهضم قط ثورة 1958 على حكومة نور السعيد الموالية لها ببغداد وعادة النظر في هيمنتها على النفط العربي ولذلك حرصت قبل

الانسحاب من المنطقة ، على تقسيمها بالقوة بشكل يجعل الثرورة في جهة والبشر في جهة أخرى . وهو وضع يبقى قابلا للتفجر في كل حين . وحرصت على تفتيت المناطق الثرية بالنفط الى امارات إمشيخات صغيرة قليلة السكان حتى لا تصبح قوة وحتى تبقى دائما في حمايتها ثم في حماية خليفتها امريكا في المنطقة .

وهكذا فان مساندة بريطانيا لامريكا مساندة مطلقة هي في نفس الوقت دفاع عن النظام الأخرق الذي أورثته المنطقة بنفسها بالقوة حتى تبقى هذه المناطق مندمجة ماليا في النظام الاقتصادي الغربي لا تستطيع منه خلاصا وإن أرادت ، فهل من الصدفة أن الهيكل المتصرف في عشرات المليارات من الدولارات الكويتية في الخارج مقره لندن ! .

وقد أقامت بريطانيا الدنيا وأقعدتها حين أعدمت العراق جاسوسا بريطانيا ولم تحرك ساكنا حين اغتالت الموساد منهدسا كنديا تعامل تجاريا في السلاح مع العراق . كما احتجت بشدة على حجز الرهائن البريطانيين ووصفت ذلك بأشنع النعوت ولكنها بعد أن أطلق العراق سراحهم عمدت الى حجز عشرات العراقيين من طلبة وغيرهم ببريطانيا ثم الى ترحيلهم بعد وقف القتال . ومازال خليفة تاتشر ، دجون ميجر يطالب برأس صدام حسين ويصرّ على تجويع الشعب العراقي ما لم يخلع رئيسه ويغيّر نظامه . فالموقف البريطاني إجمالا نسخة من الموقف الامريكي والاسرائيلي . لكن هذا لا يعني غياب الأصوات المختلفة في بريطانيا . فيكفي أن نذكر على سبيل المثال قول

الوزير الأول البريطاني الأسبق ادوارد هيث : "إننا أصبحنا مرتزقة فغيرنا يدفع الثمن ونحن نحارب فقد رجعنا الى القرن الرابع عشر زمن الحملات الصليبية " لكن مثل هذه الأصوات في بريطانيا قليلة ولا تجد لها الصدى الكافي .

فرنسا ومنطق الحضور

لقد حرصت فرنسا على أن تكون طرفا في الأزمة وفي جميع مراحلها ، وقد علّل ميتران في مناسبات عديدة هذا الموقف بالحرص على المحافظة على موقع فرنسا في الشرق الأدنى وعلى أن تكون لها إمكانية التأثير على الأحداث وتوجيه القرارات . والهدف من هذا الحرص على التواجد هو في نهاية المطاف " للمحافظة على مصالح فرنسا " ، وكثيرا ما يقع ربط هذا الموقف بمرتبتها ومكانتها دوليا .
لكن هذا الذي يقال كثيرا ما يخفي ما لا يقال وهو تقييم فرنسا لاختلال التوازن الدولي في العالم بعد انهيار المعسكر الشرقي الذي يدعم الهيمنة الامريكية . كما أخذت فرنسا بعين الاعتبار تخوّف اسرائيل من قوة العراق وضغوطها من أجل ضربه وتدمير قوته . ورغم أن علاقات فرنسا بالعراق كانت متميزة اقتصاديا وعسكريا ، فانها أخذت تبرد نتيجة تراكم الديون المتخلّدة بذمته .
وقد ظهرت فرنسا طوال الأزمة في مظهر من لا يألو جهدا للتوصل إلى حلّ سلمي رغم مساندتها لجميع قرارات مجلس الأمن ضد العراق . ومن أبرز المواقف المتخذة في هذا الشأن خطاب الرئيس الفرنسي أمام الجمعية العامة للامم المتحدة يوم

24-9-90 الذي أكد فيه أن مجرّد إعلان العراق استعداده للانسحاب من الكويت يجعل كل شيء ممكنا . ثم مقترحات الحلّ السلمي المقدّمة يوم 14-1-91 قبيل بدء العدوان .
ولئن اظهرت هذه المبادرات الهامة فرنسا في مظهر الحريص على الحلّ السلمي، فان كثيرا من المواقف والمزايدات والتناقضات تحمل في كثير من الأحيان على الظن ان هذه المبادرات قد لا تعدو ان تكون مناورات . فمن أبرز المظاهر الدافعة إلى هذا الظن أن الموقف الفرنسي تلوّن كثيرا وتدرّج في اتجاه التصعيد بشكل جعل كثيرا من الملاحظين يصفونه بالنفاق . فبعد خطاب ميتران أمام الجمعية العامة للامم المتحدة ، اعتبرت فرنسا أن العراق لم يستجب للاقتراح ولم يفهمه بينما يبدو الواقع عكس ذلك . فقد بادر العراق بإطلاق سراح الرهائن الفرنسيين تقديرا للمبادرة الفرنسية وسعيا إلى خلق مناخ ملائم للحوار مع فرنسا مراهنة على تميز الموقف الفرنسي . لكن الردّ الفرنسي على ذلك كان مزيدا من التصلب وكأن فرنسا أصبحت لا تريد أن تظهر في مظهر المواطىء أو حتى المتعاطف مع العراق بالرغبة في تقديم تنازلات له إن قبل إجلاء الكويت ، كما أرادت بالمزايدة ان تبرهن على أنها ليست حبيسة علاقاتها المتميزة السابقة .
وقد رأينا كيف تدرّج الموقف الفرنسي من حماية السعودية ، إلى تحرير الكويت ثم إلى تدمير العراق في حين تعددت التصريحات النافية لكل نية في ذلك . من ذلك تصريح ميشال روكار الوزير الأول آنذاك " يجب أن لا نحيد إطلاقا عن الهدف المنشود

الوحيد وهو الانسحاب من الكويت فهو يكتفي بذاته " وتصريح ميتران الذي يؤكد أن فرنسا " لا تهدف إلى أي شيء آخر غير ما حدده مجلس الأمن وهو اولا تحرير الكويت " ثم أصبح يقول بعد الحرب :" من الواجب بالطبع تدمير القوة العسكرية والصناعية في العراق ".

هذا التضارب كان يتغذى بالمزايدات كما وقع إثر حادثة السفارة الفرنسية بالكويت التي اقتحمها العراقيون فردت فرنسا الفعل بشدة وعمدت إلى طرد الديبلوماسيين والمواطنين العراقيين بفرنسا وصعّدت لهجتها ضد العراق . ولكنها أخفت الحقيقة عن الرأي العام وهي أنها أنزلت العلم الفرنسي عنها وأزالت اللافتة الدالة على أنها سفارة مما سهل الخلط بينها وبين المباني العادية التي دخلها بعض الجنود لأسباب قد لا تكون بالضرورة سياسية . واغتنمت فرنسا الحادثة للتصعيد دون أن تطلب تفسيرا أو تقبل اعتذارا .

كما أن زيارة فوزال إلى بغداد التي وصفت بأنها " مهمة الفرصة الأخيرة " قد اعتبرها الملاحظون تلاعبا لأن تصريحاته جاءت بعد ذلك لتبرير الحرب .

لأجل كل ذلك تساءل الملاحظون عن معنى اقتراح خطة ست نقاط يوم 14-1-91 . هل قامت بذلك للتاريخ وللرأي العام فحسب دون أن يكون لديها أي وهم عن المآل ام مراعاة للمستقبل بعد التأكد من حتمية الحرب ؟ ولعل بغداد قد فهمت تلاعب فرنسا فلم ترد على الاقتراح لاقتناعها أن القرار في يد أمريكا وحدها خصوصا أن الادارة الامريكية لم تتردد في رفض الخطة الفرنسية ومنع مجرد مناقشتها في

مجلس الأمن .
ولقد تميّز تصرف السلطات الفرنسية بكثير من التناقض كان ينظر إليه أول الأمر على أنه ديبلوماسية تهدف إلى عدم ترك امريكا وحدها ثم ما لبث ان اقتنع الجميع بتبعية فرنسا لامريكا في هذه الأزمة . ومن مظاهر هذا التناقض ، بالاضافة الى ما رأينا ، التصرف المتناقض مع الأحداث . من ذلك ان فرنسا التي رفضت منع نشر كتاب سلمان رشدي باسم الديمقراطية وحرية الرأي والتعبير لم تتردد في منع توزيع أشرطة مغنٍّ جزائري بدعوى أنه يمجد صدام حسين . ومن ذلك مسارعة بيار موروا الى اسرائيل وتصريحه ان موقف منظمة التحرير " قد حطّ من قيمتها ولم يعد يسمح لها بأن تكون المتكلم الوحيد باسم الفلسطينيين " . هذه الوصاية على الفلسطينيين لم تخفّف حتى بمجرد التلميح الى معاملة اسرائيل الوحشية للفلسطينيين . ويمكن التذكير أيضا بتصرف السلطات الفرنسية خلال الأزمة مع المواطنين المغاربة الداخلين فرنسا . وقد شعر المغاربة عموما أن الغرب بما فيه فرنسا يعاقبهم لأنهم مارسوا حق حرية الرأي التي يدعي الغرب الدفاع عنها مما أفقد في نظرهم دعوات فرنسا إلى الديمقراطية في الجنوب مصداقيتها وقد وصل الأمر بالسلطات الفرنسية الى المسّ بالحريات الأساسية فمنعت العديد من التظاهرات المناهضة للحرب .
ولكن هل كان الموقف الرسمي الفرنسي بتناقضاته يعكس الرأي العام الفرنسي ؟ يمكن أن تقول بصفة عامة ان الإعلام قد كان أساس مناهضا

للعراق مؤيدا للتدخل الفرنسي . وقد عبّر عن ذلك بتشنج وتجاوزات لفظية وتعصّب أفقد هذا الإعلام الكثير من مصداقيته وأصبحت القنوات التلفزية والإذاعات التي تلتقط في المغرب العربي مصدر إثارة واستفزاز حطّ كثيرا من قيمتها التقليدية .

كما أن الطبقة السياسية عموما سايرت موقف ميتران اذا استثنينا الحزب الشيوعي والجبهة الوطنية اليمينية والبيئيين وهي قوى لا يمكنها أن تنسق مواقفها . وقد وضّحت الأزمة أكثر من قبل عمق تأثير الأوساط الصهيونية في فرنسا السياسية والإعلامية .

لكن هذا لم يمنع أصواتا هامة من الإصداع برأي مخالف ، ومن أبرز هذه الأصوات صوت ميشال جوبار وزير الخارجية الأسبق الذي تعددت تصريحاته المناهضة للتدخل الفرنسي وللسياسة الامريكية في المنطقة . ومنهم أيضا عديد الوزراء السابقين منذ عهد الجنرال ديغول امثال اندري جيرو وجورج غورس وبيار كلسترمان وكوف دي مورفيل وكلود سيشون وادغار بيزاني فضلا عن كبار الجامعيين والصحافيين والشخصيات الاخرى مثل جاك بارك ورجيس ديبري وموريس الايس والاميرال ديغول وجان ديغول وريني دومون ، وعن نداء الخمسة وسبعين وغيرهم . وقد وجدت المعارضة لسياسة ميتران في الخليج حتى في صلب السلطة ولكنها لم تكن بصفة عامة علنية نتيجة الحملة الصحافية على كل معارض ، وقد بلغ الأمر بالحزب الاشتراكي الحاكم الى تجميد نشاط بعض ممثليه في البرلمان لأنهم صوتوا ضد مشاركة فرنسا في الحرب

وكان من نتائج تورّط فرنسا مع امريكا ان استقال وزير الدفاع بيار شفانمان للتعبير عن مناهضته لتورّط فرنسا في تدمير العراق بعد أن كانت تؤكد أن دورها لا يتعدى تحرير الكويت . وقد وضح ذلك جيدا في رسالة الاستقالة . هذه الخلافات تعكس نسبيا الرأي العام الذي كان منقسما حول الحرب شطرين متعادلين .

ويمكن التساؤل بعد هذه الحرب عما كسبته فرنسا منها بعد ان غلّبت " منطق الحرب " على منطق السلم حسب تعبير ميتران نفسه . لقد عبّر أحد الديبلوماسيين الفرنسيين البارزين عن مشاغل فرنسا ومخاوفها حين لاحظ ان مواقع فرنسا قد تقلصت في العراق والكويت ، وهي ضعيفة في غيرها من أقطار المشرق العربي خصوصا أن امريكا لا تترك مكانا لمصالح فرنسا في المنطقة . واذا أمكن لفرنسا أن تتعايش مع هذا الوضع في الخليج فإنه لا يمكنها ذلك في المغرب العربي حيث يوجد أهم شركائها جنوب المتوسط ، فلا يمكنها ان تضيعهم وعليها أن تبذل كل ما في وسعها لكسبهم من جديد . وهذا ما يفسر تعدد زيارات المسؤولين الفرنسيين الى اقطار المغرب خلال الأزمة وبعد الحرب . فقد راهنت فرنسا على إمكانية التوفيق بين مشاركتها في العدوان على العراق والحفاظ على علاقات تعاون وثيق مع المغرب العربي . لكن الإجماع الحاصل في المغرب ضد الحرب جعل هذا الرهان صعبا . ولقد شعرت فرنسا بقلق كبير حين قررت الجزائر رسميا جعل اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة . بل إن المغرب الأقصى نفسه حيث المصالح الفرنسية

وحضورها اقتصاديا وثقافيا أقوى منه في غيره من أقطار المغرب قد عرف بدوره رد فعل شعبي مناهض للسياسة الفرنسية مناهضة قوية . فقد أحرق العلم الفرنسي في المظاهرات الصاخبة واقترن اسم ميتران ببوش " القاتل " . وانطلاقا من تأكيد ميتران المتكرر أن مشاركة فرنسا مع امريكا القصد منها " دخول الصف " و " أخذ مكان على طاولة المفاوضات بعد الحرب " فإن عديد المراقبين يؤكدون أنه من الصعب على فرنسيا ان تتأقلم مع الوضع الجديد بدون الحد من استقلالية قرارها في السياسة الخارجية . ويعتبرون أن فرنسا من أكبر الخاسرين في هذه الأزمة سياسيا واقتصاديا . فقد حطم ميتران بتبعيته لامريكا صرح السياسة العربية التي بنتها فرنسا بصبر وأناة منذ عهد ديغول . ولم يعد العرب ينظرون الى فرنسا كدولة عظمى مستقلة القرار يمكن التعويل عليها . ولعل النقمة على فرنسا في المغرب العربي كانت أشد منها على امريكا التي تعتبر من قبل عدوة للعرب نتيجة الطابع الصهيوني لسياستها العربية . أما فرنسا فهي الصديق الذي غدر وخيّب الآمال . وقد الحّ جميع المناهضين في فرنسا لهذه السياسة على انعكاساتها السلبية على مصالح فرنسا لا في العالم العربي وفي مغربه فحسب وإنما كذلك في العالم الثالث بأكمله مما يجعلها أول الخاسرين .

ورغم وضوح الموقف الفرنسي من القضية الفلسطينية ، إلا أن ضعفها أمام آمريكا يجعل هذا الموقف مبدئيا ولكنه ضعيف الفاعلية والتأثير على مجريات الأمور في اتجاه الحلّ العادل للقضية

الفلسطينية .

ألمانيا ومنطق مركب الذنب

لقد سعت المانيا إلى عدم إقحام نفسها في أزمة الخليج وتعللت بمشاكلها الخاصة المنجرة عن توحيد شطريها . ثم إن وضع المانيا الخاص منذ نهاية الحرب الثانية يجعلها لا تخرج عن بعض الثوابت في السياسة الخارجية وخاصة عدم التناقض جوهريا مع السياسة الامريكية وعدم معارضة السياسة الاسرائيلية نتيجة عقدة الذنب التي ما انفكت الأوساط الصهيونية تغذيها حتى يتواصل الابتزاز الذي تمارسه اسرائيل على المانيا دون انقطاع . لكن هذه الثوابت تتناقض مع هاجس مراعاة مستقبل العلاقات مع العرب إذ تؤمل المانيا أن تؤول مشاعر الغضب العربية من الغرب إلى توطيد علاقات التعاون الاقتصادية مع المانيا لحيادها النسبي ولذلك شجعت الحكومة الالمانية أول الأمر مبادرات فيلي براند حين تحوّل إلى بغداد . لكن امريكا لم تترك المانيا في موقف الحياد وحملتها على مساندة سياستها الخليجية على الأقل بالدعم المالي . وقد بادرت المانيا بتقديم شتى المساعدات لاسرائيل إثر ضرب العراق لها بصواريخ الحسين .

وقد لوحظ شيئا فشيئا تطوّر في الموقف الالماني المعادي للعراق ، الى حدّ المزايدة بعد الحرب ، فكان وزير الخارجية هـ .د . غنشر في اجتماع اوروبي اول من طالب بمحاكمة القيادة العراقية على غرار

نورمبارغ . هذا التصعيد المجاني في الموقف الالماني قد لا يخلو من الانعكاس السلبي على ما قد تجنيه المانيا مستقبلا من اعتدال موقفها الأولي .

إيطاليا ومنطق التردد

لقد رأينا ان ايطاليا كانت حريصة في البداية على إيجاد حلّ سلمي للأزمة وكان رئيس الوزراء اندريوتي يشجع وزير الخارجية ديمشليس على ذلك حيث كان يرأس مجلس وزراء المجموعة الاوروبية . هذا الموقف يندرج في نطاق سياسة ايطاليا المستقلة في الشرق الأوسط والقائمة على الاعتراف الواضح بحقوق الفلسطينيين الوطنية . وقد سعت الأوساط الامريكية الى الحدّ من نفوذ اندريوتي القديم على رأس الديمقراطية المسيحية وعديد الحكومات الإيطالية .

والواقع أن حرص هذين المسؤولين الايطاليين على إيجاد حلّ اوروبي للأزمة لا يكون خاضعا للإرادة الامريكية إنما كان نابعا من قناعتهما بأن نزاعا مسلحا في الخليج يمكن أن تكون له عواقب وخيمة على العلاقات بين اوروبا وبلدان جنوب المتوسط . لكن هذا لم يمنع ايطاليا من المشاركة في العدوان على العراق ببعض الطائرات والجنود ولو بصفة رمزية .

بقية الأقطار الاوروبية

لئن وجدت أقطار اوروبية مساندة للعدوان على العراق مثل بلجيكا وهولندا وغيرها إلا أن مشاركتها لا تكاد تذكر . وقد وجدت أيضا بلدان أخرى مناهضة للحرب عموما رغم انسياق بعضها اضطرارا وراء امريكا . فاسبانيا والبرتغال لهما تقريبا نفس مشاغل ايطاليا ، وكذلك اليونان رغم أن الحكومة المحافظة التي خلفت حكومة بابندريو كانت حريصة على الحفاظ على مساندة امريكا لها في خلافها مع تركيا . ولعل ارلندا تمثل في شمال اوروبا نشازا إذ أن موقفها أقرب الى موقف بلدان جنوب اوروبا التي كانت تفضل الحل السلمي عموما.
لكن وزن هذه البلدان جميعا لم تكن له فاعلية أو تأثير على الأحداث ، فانساقت جميعا بدرجات متفاوتة وراء الخطة الامريكية . أما بلدان أوروبا الشرقية فان ما تعانيه من مشاكل نتيجة التحول وتغيير الاتجاه والتخبط في المرحلة الانتقالية التي تعيشها منذ أن انفصلت عن الاتحاد السوفياتي وسعت إلى ربط قطارها بالغرب قد جعل دورها في هذه الأزمة باهتا لا يستحق الذكر إذا استثنينا بعض المواقف الكاريكاتورية كموقف الرئيس البولوني ليش فاليزا الذي أراد التقرب من اسرائيل ومجاملة الأوساط الصهيونية خلال زيارته الى الولايات المتحدة ، فقال إنه كان يكون سعيدا لو نشأ يهوديا . ومثل هذا الموقف يمكن أن يكون رمزا

للرداءة التي تتخبط فيها جل أقطار اوروبا الشرقية .

الاتحاد السوفياتي ومنطق التصاغر

لقد كانت أزمة الخليج المناسبة المثالية لإظهار الاتحاد السوفياتي على حقيقته الجديدة أي عملاق رجلاه من طين . فقد بدا متصاغرا رغم محاولات القيام بدور دولة عظمى ، لكن رغم هذه المحاولات التي لم تخل أحيانا من الإيجابية ، فإنه جارى امريكا بشكل لا يمكن أن يليق به وبماضيه . فوافق دون تحفظ على جميع قرارت مجلس الأمن ضد العراق حتى ما كان منها أشدّ جورا .
ولئن لم يشارك في الحرب إلى جانب امريكا حتى لا يفقد تماما صداقة العراق وغيره ، فإنه شارك في التغطية على العدوان وإضفاء الشرعية عليه رغم اقتناعه بانه كان في الإمكان حل المشكل بدون حرب.
ولئن كاد يخرج تماما من القضية في وقت من الأوقات بعد بدء الهجوم فانه عرف كيف يعود بقوة بفضل اقتراحه حلاً . لكن جميع جهوده باءت بالفشل أمام تصلّب الإدارة الامريكية . ورغم أن بريماكوف ، المبعوث السوفياتي الذي قام بدور نشيط في هذه الأزمة ، يؤكد أنه كان في الإمكان تجنب الحرب فإنه يحمّل صدام حسين مسؤولية مباشرة ويحمّل امريكا المسؤولية بصفة غير مباشرة . فهو يعتبر أن الغرب لم يكن واعيا بأهمية مساندة الجماهير العربية لصدام حسين ، ويرى أنه كان بالامكان استغلال التعاطف الشعبي العربي مع القضية

الفلسطينية لإيجاد حلّ لها بجبر العراق على إخلاء الكويت . والغريب في الأمر أنه يعتبر أن الاتحاد السوفياتي لم يكن يتصور في لقاء هلسنكي بين غورباتشوف وبوش أن الأزمة ستؤول إلى الحرب ظنا منه أن الحصار كاف . ومن الغريب أيضا قوله ان الرئيس السوفياتي كان يظن أن بوش يرغب في حل سلمي بالطرق السياسية .

ولعل هذا الوهم هو الذي جعل موسكو تقوم بدور في تسهيل لقاء بيكر وطارق عزيز بجنيف يوم 9-1-91 رغم أن اللقاء محكوم عليه مسبقا بالفشل كما رأينا .

ولعل أهم المحاولات التي قام بها الاتحاد السوفياتي لتجنّب الحرب اثنتان ، الإولى هي تلك التي جرت ليلة الهجوم الجوي ، اذ اجتمع غورباتشوف بوزيري الخارجية بسمرتنيخ والدفاع ديمتري ياوزوف ومدير ك . ج . ب كرييوتشكوف وبريماكوف بعد إعلام واشنطن موسكو بقرب الهجوم فطلب غورباتشوف إرجاء الهجوم لتمكينه من القيام بمحاولة أخرى لحمل العراق على الإعلان عن استعداده للانسحاب من الكويت . لكن الجواب الامريكي كان : إن الهجوم قد بدأ بعد . وفعلا كانت القنابل والصواريخ آنذاك تتساقط على العراق والكويت .

أما الثانية فهي تلك التي جرت قبيل الهجوم البريّ ، وهي مفاوضات تميزت بتردد العراق قبل إعلان قبوله الشروط السوفياتية وبتعمد الادارة الامريكية الإسراع بتقديم شن الهجوم البري قبل وصول الردّ العراقي وقبيل طلب موسكو عقد اجتماع عاجل لمجلس الأمن في الغرض يوم 23-2-91 .

وقد كان واضحا أن الاتحاد السوفياتي كان الوحيد الذي يمكنه أن يطلب من العراق ديبلوماسيا " انسحابا كاملا غير مشروط من الكويت " وهو ما حصل فعلا . ولكن لم يبق له الوزن الدولي الذي يمكّنه من تثمين ذلك لمنع امريكا من شن الحرب مجّانا . فالاتحاد السوفياتي لم يبق له من القوة السياسية إلا حق الفيتو ولكنه لم يعد قادرا حتى على استعماله نتيجة تردي أوضاعه الداخلية على جميع المستويات . ولذلك فشلت جميع مساعيه في أزمة الخليج وكان هذا الفشل الدليل القاطع على مدى الضعف أمام امريكا، ويكاد بوش يسخر من غورباتشوف عندما شكره على مساعيه الحميدة لمّا أعلمه رسميا ببدء الهجوم على العراق .

ولا شك ان ذلك قد خلق في الاتحاد السوفياتي شعورا عميقا بالمرارة عبّرت عنه البرافدا يوم 25-2-91 بقولها " هذه الحرب شنتها امريكا لإقرار الزعامة في العالم . وهي حرب قذرة مثل حرب فيتنام رغم النوايا الطيبة التي أعلنتها واشنطن " وقد ذكرت الصحيفة ان غورباتشوف قضى كامل يوم 23-2-91 يخاطب بالهاتف تسعة رؤساء دول منهم بوش مرتين لكن بوش رفض أي تغيير في خطته العسكرية . وقد أحس الرئيس السوفياتي بان هذا الرفض بمثابة الصفعة والتحدي الذي لا يستطيع رفعه . ولئن كان الاتحاد السوفياتي قد قرّر منذ بدء الأزمة التضحية بالعراق من أجل الحفاظ على علاقاته الجديدة بالغرب ، فانه بذل كل هذه المساعي للحدّ من انعكاسات الأزمة سلبيا عليه من

ناحية وإرضاء للأصوات القوية في الداخل المناهضة لتدمير العراق . وهي بالخصوص القوى المحافظة العسكريون و ك . ج . ب . كذلك الجمهوريات الإسلامية .

فهذه القوى الهامة تعتبر أن التخلي عن العراق بعد التخلي عن اوروبا الشرقية هو بمثابة " نهاية الاتحاد السوفياتي دولة عظمى " ، وقبول هيمنة الامبريالية الامريكية على الخليج وعلى الحدود السوفياتية . ولذلك طالب بعض قادة الجيش باتخاذ " الإجراءات الحازمة لوضع حدّ للنزاع المسلح " و" تدمير العراق " ومعتبرين أن هذه الحرب " عدوان مسلح للاستعمار الجديد ".

وقد اشتد هذا الضغط الداخلي لوقف المجزرة منذ أوائل فيفري 91 . فهذا أحد مشاهير المعلقين السياسيين السوفيات يقول في الازفستيا :" ليس الأمر عاصفة وانما هو مجزرة في الصحراء ومجزرة في البصرة ومجزرة في بغداد ، ونحن نقف الى جانب القتلة ".

وقد أظهرت عديد التصريحات أن الحزب الشيوعي والجيش لم يكونا راضيين عن السياسة السوفياتية في الخليج ، فالمستشار العسكري لغورباتشوف نفسه يصرح أمام مجلس السوفيات الأعلى بقوله :" لو كنت مكان غورباتشوف لما وافقت على قرار مجلس الأمن الذي يسمح لامريكا باستعمال القوة العسكرية في الخليج ". ولم يكن يوجد ضد العراق إلا بعض الإصلاحيين المتمغربين . أما بقية الإصلاحيين فمنهم المحايدون ومنهم من كان يظن أن الحرب في الخليج قد تعطي موسكو فرصة التصلب مع جمهوريات

البلطيق المطالبة بالانفصال .
أما المحافظون وقادة الجيش فقد نشطوا خاصة ، بعد تكثّف التدمير في العراق ، خصوصا ان كثافة الحضور العسكري الامريكي في المنطقة كانت تقلق الجيش السوفياتي كثيرا .
وحمل المناهضون للحرب وزير الخارجية شيفرنادزي مسؤولية خاصة في ذلك . فقد وصفه أحد قادة الجيش أان وزارته كانت " أقل وزارات الخارجية ذكاء على الإطلاق في تاريخ البلاد القيصري والسوفياتي ". وذهب آخر الى اعتبار أن التناقض والتردد الذي ميّز الديبلوماسية السوفياتية في الخليج " يمس بأمن الاتحاد السوفياتي ". واعتبر غيره ان الانسحاب من اوروبا الشرقية وتوحيد المانيا وأزمة الخليج قد قضت على السياسة الخارجية السوفياتية . وانتقد آخر تناقض الولايات المتحدة التي تدعي مقاومة الكلّيانية في البلاد الشيوعية وتدعم في الآن نفسه الدكتاتوريات الدموية من جهة أخرى . وقد أصبح المسؤولون عن الأمن و ك.ج.ب يصرّحون بان امريكا تجاوزت المهمة الأممية فأصبح هدفها " تدمير العراق وسحق سكانه".
وذهب نائب رئيس مجلس السوفيات الأعلى الى اعتبار أن موقف الكرملين منذ بداية الأزمة أقل ما يقال فيه أنه لم يكن دائما في مستوى الأحداث متعجبا من " الامريكيين الذين يدوسون غرانادا برجل ويدوسون باناما بالأخرى ثم يقدّمون دروسا في القيم الانسانية ".
اما صحيفة سفيسكايا روسيا ، فإنها كانت أشد

نقدا للسياسة الامريكية في الخليج ولموقف القيادة السوفياتية منها ، فقد أدانت المجزرة وكشفت الهدف منها معتبرة ان " العراق هو أهم حصن وأساس النضال ضد الهيمنة الامريكية والاسرائيلية في المنطقة " واعتبرت القرار 678 " خرقا سافرا لميثاق الامم المتحدة نصا وروحا منافيا للسلام والأمن في العالم ".

كل هذه الضغوط أثرت في مواقف السلط السوفياتية التي كانت منشغلة ايضا بردود فعل المسلمين السوفيات في آسيا والقوقاز حيث جرت مظاهرات مساندة للعراق وتطوع مواطنون في المساجد للقتال مع العراق وخاصة في اذربيجان حيث صادق البرلمان على لائحة تنتقد حرب الخليج .

وان التناقض الذي يبدو في الموقف السوفياتي ، والمتمثل من جهة في الحرص الشديد على الحل السياسي ومن جهة أخرى في مجاراة القرارات الامريكية . قد يرجع الى تقاطع عوامل متباينة .

منها دور شفرنادزي الذي كان همه إدماج الاتحاد السوفياتي في النظام الغربي إدماجا تاما . ومنها الحرص على مواصلة التقارب مع عرب الخليج لجني الثمار الاقتصادية منه .

وفي مقابل ذلك لم يكن المستشار بريماكوف يؤمن بالاندماج في النظام الغربي وكان يساند ربط قضية الخليج بالقضية الفلسطينية . وفي هذا يقول : " البعض يدعي أن ذلك يعني تشجيعا على العدوان ، ولكن لماذا لا نستغل الوضع الجديد لحل المشكل الفلسطيني كذلك ؟ ". وهو يعتقد انه كان من الواجب استغلال الفترة الفاصلة بين صدور القرار

678 والأجل المحدد لإمكانية الحرب للضغط على امريكا قصد حملها على التفاوض مع العراق . هذا التناقض في المواقف له علاقة باستقالة وزير الخارجية المعروف باتسام مواقفه بالتبعية لامريكا حسب خصومه .

قد يضاف الى ما سبق حرص موسكو على الظهور أخلاقيا في مظهر المدافع عن الحق والعدل والشرعية وهو بعد من أبعاد البريسترويكا ، وخاصة منذ أن تم استبدال مفهوم " حرب الطبقات " بمفهوم " القيم الانسانية العالمية ". ولعل الموقف السوفياتي لا يخلو رغم ذلك من انتهازية تتمثل في الحرص على تحييد واشنطن بارضائها في الخليج حتى لا تتدخل في الشؤون الداخلية السوفياتية ، لكن هذا لم يمنعها من التنديد بما وصفته بالقمع السوفياتي في مناطق البلطيق حتى ان موسكو استغربت من هذا التدخل في شؤونها .

وقد كادت موسكو في أوج مبادراتها السلمية أن تخلق محورا جديدا ثلاثيا (موسكو - طهران - بغداد) اعتبره البعض أخطر منعرج في أزمة الخليج لأنه قد يحوّل الحرب الباردة من أوروبا حيث انطفأت الى منطقة الخليج والعالم العربي بعد الحرب . لكن تصاغر الاتحاد السوفياتي لم يعد يسمح له بالقيام بمثل هذا العمل ، أمام المشاكل الداخلية ومخاطر الانقسام والتفتت واستفحال الأزمة الاقتصادية .

ولا شك أن المظهر الثاني من هذه الانتهازية التي أوقعه فيها وضعه الجديد هو المساومة بالمواقف سياسيا واقتصاديا ، فامريكا تعتبر ان الاتحاد

السوفياتي قدم لها دعما كافيا بالتصويت معها في مجلس الأمن على جميع القرارات التي فرضتها فرضا ولذلك طلبت من عرب الخليج منحها خمسة مليارات من الدولارات قبلتها موسكو بامتنان وإن اعتبرتها دون ما تستحق خصوصا أن مصر البلد الأصغر تلقت أكثر من ذلك .

والخلاصة في موقف الاتحاد السوفياتي أنه رجّح علاقاته الجديدة مع أمريكا على صداقته مع العراق رغم تنبيه خبرائه إلى أن مجاراة السياسة الامريكية من شأنها ان تفقد موسكو كل مصداقية في المنطقة . وهذا ما يفسر كثافة المحاولات التي قضى فشلها على مصداقيتها وأثرها الإيجابي . وقد كشفت أزمة الخليج بشكل ملموس أن انهيار الاتحاد السوفياتي قد حرم العالم من توازن يحميه نسبيا من نزعة التهور والمغامرة الامريكية حتى قال أحدهم إنه ما كان لحرب الخليج أن تحدث لو لم يصعد غورباتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفياتي .

اليابان ومنطق التقية

لقد قرّرت اليابان المساهمة في مجهود الحرب الامريكية ضد العراق بثلاثة عشر مليار دولار تقية وتجنبا لتعميق الخلاف مع امريكا رغم شدة المعارضة داخل اليابان . ذلك ان اليابانيين واعون تماما بأن هذه الحرب لن تفيدهم بشيء خلافا لحربي كوريا وفيتنام . لذلك يمكن القول إن حرب الخليج ضاعفت الخلاف بين البلدين لأن اليابان لم تكن تخفي نقدها للسياسة الاقتصادية الامريكية التي تعتبر أنها لا

تخلو من العبث . ثم ان امريكا لا تخفي غيرتها من تفوق الاقتصاد الياباني الذي حقق نسبة نموّ تعادل 8ر6٪ سنة 1990 مقابل نمو سلبي بنسبة 3ر0٪ في الولايات المتحدة الأمريكية . لذلك يتنبأ الخبراء بان نهاية حرب الخليج قد تكون بداية حرب اقتصادية بين العملاقين الاقتصاديين . وفي هذا يقول خبير ياباني : " إن رهانا من الرهانات الخفية في هذه الحرب هو دعم أمريكا لزعامتها في العالم بعد أن أصبحت تهددها قوة اليابان واوروبا المتصاعدة ". فكأن امريكا تريد أن تظهر أن الضعف الاقتصادي لا يعني ضعفا سياسيا بالضرورة ولذلك سعت بحرب الخليج إلى جعل ما تعتبره انتصارا عسكريا يحقق انطلاقا اقتصاديا .

وقد وجدت الحكومة اليابانية نفسها بين المطرقة الامريكية والسندان الشعبي المعارض للسياسة الامريكية داخل اليابان . ومن أقوى تعبيرات هذه المعارضة موقف الجامعيين اليابانيين الذين يعتبرون انه " وقع استعمال صدام حسين ضد ايران ثم تمت مضايقته اقتصاديا وجرّه الى الكويت . ان غاية جورج بوش كانت تدمير العراق في 1991 عسكريا . وبنفس الأسلوب قطع روزفلت سنة 1941 على اليابان طريق النفط والصلب لحمله على الحرب وعمليا على مهاجمة بيرل هاربور ".

هذه النماذج من المواقف اليابانية تدل على وعي تام بالرهانات والمسببات الخفية مما يجعل التحالف مع امريكا تحالفا ظرفيا اضطراريا لا عن اقتناع .

المواقف الآسياوية الاخرى

لم نر فائدة في تخصيص فقرة لموقف الصين لأنه بصفة عامة كان سلبيا كما رأينا رغم تحفظها أواحتفاظها في بعض الأحيان ولكنها لم تجرؤ مرة واحدة على استعمال حق الفيتو على القرارات الجائرة الصادرة عن مجلس الأمن بإرادة امريكية وتبدو كأنها بقيت تشاهد الأحداث سلبيا مع السعى الى المساومة بموقفها لتخفيف الضغط عليها منذ أحداث ساحة تيان آن مان .

أما الهند فان حكومتها قد ساعدت امريكا بتزويد طائراتها الحربية بالوقود قبل التحول إلى الخليج لمهاجمة العراق ، فبدت بذلك متنكرة لماضيها المجيد ودورها الريادي في بعث حركة عدم الانحياز زمن جواهر لال نهرو . ولولا قوة المعارضة التي كان يمثلها رجيف غاندي زعيم حزب المؤتمر الذي هدّد الحكومة إن هي واصلت انحيازها لامريكا لما وقع الكف عن ذلك الدعم الذي يتنكر لفلسفة الهند السياسية التقليدية .

أما في جنوب آسيا حيث يوجد عدد كبير من المسلمين ، فان حرب الخليج كانت في نظر الجماهير المسلمة حربا بين المسلمين وغير المسلمين .

ففي داكا عاصمة بنغلاداش تظاهر قرابة نصف المليون مرددين " يحيي صدام ، يسقط بوش ".

وقد رأينا المعارضة الشعبية في باكستان للسياسة الامريكية ولمشاركة قوات باكستانية في الخليج ، مما أثر في موقف الحكومة بوضوح .

وفي ماليزيا لم يكن موقف الحكومة المساند لقرارات مجلس الأمن يحظى برضى الشعب .
وفي اندونيسيا التي تعد قرابة 150 مليون مسلم من 190 مليون ساكن نجد نفس المشاعر مما جعل الحكومة رغم إدانتها غزو الكويت تعلن أن القوة ليست خير سبيل لحل المشكل .

المواقف الافريقية

لا شك ان البلدان الافريقية عموما من أكثر البلدان تضررا من أزمة الخليج وخاصة تلك التي لا نفط فيها . بيد أن البلد الافريقي الوحيد الذي بادر بإرسال قوات رمزية الى الخليج هو السينغال الذي لا نرى مبررا لموقفه غير الطمع والتأثر بالسياسة الفرنسية والرغبة في كسب رضى الغرب من جهة والأنظمة العربية الغنية بالنفط من جهة أخرى .
وبصفة عامة فان افريقيا بقيت على هامش الأزمة وكأنها لا تعنيها رغم نداءات رجال من أمثال "خبو" المدير العام السابق لليونسكو الذي يعتبر أن حرب الخليج ستكون لها انعكاسات ثابتة على مصير افريقيا .

IV

هل هدأت العاصفة وانتهت الحرب ؟

الأبعاد والمخلفات

لقد توقف القتال رسميا ولكن هل معنى ذلك أن العاصفة هدأت وأن الحرب قد وضعت أوزارها ؟ لتكون الحرب قد انتهت فعلا يجب أن تكون قد حققت الأهداف التي رسمت لها . وهذه الأهداف المعلنة هي إقرار الشرعية الدولية على أساس العدل والقانون لا في الخليج فحسب وانما في الشرق الأوسط وفي العالم . فهل تحقق ذلك أو هل هو على الأقل بصدد التحقق ؟ إن تحليل أبعاد هذه الأزمة ومخلفاتها قد يقودنا الى الاقرار بأنها لم تحل أي مشكل ، وقد تكون خلقت مشاكل جديدة لا ندري هل تحتاج الى حرب أخرى لحلها .

أبعاد حرب الخليج

إن لحرب الخليج أبعادا متعددة لا تكاد تحصى ، تدل على تعقدها وخطورتها تعرضنا الى البعض منها

فيما سبق لكننا نذكّر بها ونثريها هنا بصفة تأليفية .
فلهذه الحرب بعد تاريخي تعرضنا إليه من خلال تحليل الأسباب والملابسات ، ويمكن إن نلخصه في التحول الجذري من حلف بغداد الذي كان موجّها ضد مصر زمن عبد الناصر إلى التحالف الحالي ضد العراق لنفس الأسباب تقريبا رغم تغير الأحلاف والعلاقات . والدماغ المسير في كلتا الحالتين هي الولايات المتحدة الامريكية بإعانة بريطانيا واسرائيل .
ولهذه الحرب بعد اقتصادي رئيسي يتعلق بارادة القوى الاستعمارية التحكم في مصادر الطاقة وخاصة منها الطاقة النفطية التي تضم منطقة الخليج كما رأينا نسبة هاته من مدّخراتها . وإن تحكم الولايات المتحدة في هذه المدخرات يعني أيضا التحكم في أكبر القوى الاقتصادية في العالم وخاصة اليابان والمانيا واوروبا بصفة عامّة ، وكذلك التحكم في منظمة الاوبيب التي ستصبح بعد حرب الخليج هيكلا صوريا فاقدا لأي وزن سياسي .
كما أن لحرب الخليج بعدا قانونيا كثر الحديث عنه طيلة الأزمة . فلقد أكثر الغرب بمناسبة أزمة الخليج من الحديث عن الشرعية الدولية والقانون الدولي . ولكن هذا الحديث كان فاقدا لكل مصداقية لأن أصحابه قد تعددت انتهاكاتهم لنفس هذا القانون فضلا عن سكوتهم عن انتهاكه في مناسبات عديدة .
ان فرض احترام بعض المباديء على بعض الدول مع دوسها في نفس الوقت او التشجيع على دوسها هو ما جعل الرأي العام العالمي يرى في تصرف

امريكا استخدامها لمكيالين ومقياسين حسب الظروف والمصالح ، وليس من ريب في أن هذا التناقض من أسباب تشجيع صدام حسين على المغامرة في الكويت . فلو احترم القانون وطبق من قبل لما فكّر اصطاقا في اجتياج الكويت أو ضمها .
فهذه امريكا رافعة شعار القانون الدولي تتدخل كما رأينا عسكريا في كمبوديا وغرانادا وباناما ، وتغير بالطائرات على ليبيا وتلغم موانيء نيكاراغوا وترفض الاعتراف حتى باختصاص محكمة العدل الدولية بلاهاي زمن الثنائي ريغن - بوش . فأمريكا قدّمت مصلحتها كما تراها هي في ذلك الوقت على القانون الدولي .
ونفس امريكا شجّعت حليفها شاه ايران سنة 1974 على احتلال جزيرتي طنب . وساعدت اسرائيل عمليا على ضم الجولان السوري واحتلال جنوب لبنان بعد الضفة الشرقية وضم القدس الشرقية الخ . وقامت اسرائيل بغارات لا تحصى على الاقطار العربية وعلى اللاجئين الفلسطينيين حتى في تونس واعتدت على العراق فدمرت مفاعله النووي .
كل هذه التصرفات جعلت العالم يشعر بأن منطق القوة يعلو على منطق القانون وهو ما عبّر عنه بوضوح هنري كيسنجر الذي ينظّر لمثل هذا الخرق للقانون إذا تعارض مع مصالح الدول العظمى ، فاعتبر من " الواقعية " أن لا يعلو القانون الدولي في جميع الحالات . ولا يمكن تفسير مثل هذا الكلام الاّ بأن القانون يكون صالحا إذا خدم مصالح الأقوياء ويداس اذا عارضها . وإن مثل هذا المنطق هو الذي يفسر بقاء القرار الأممي 242 الذي يدين منذ

11-1967 استيلاء اسرائيل على الأراضي العربية بالقوة دون تطبيق ودون اتخاذ أي إجراء إلى اليوم لفرض تطبيقه .

مثل هذا التطبيق الانتقائي للقانون أفقد الأمم المتحدة جانبا كبيرا من مصداقيتها . فالتجنّد ضد العراق وخوض حرب مدمّرة بدعوى التطبيق الفوري لقرار متأخر مع السكوت عن قرارات مماثلة سابقة يبقى مصدرا حيا لنقمة الجماهير العربية وشعورها بالضيم والعنصرية المقيتة .

هذا البعد القانوني يقود حتما إلى **بعد اخلاقي** اكتسته أزمة الخليج . فالأسلوب التي عولجت به القضية ، اعتبارا للتناقض الصارخ ، اعتمد أساليب الإخفاء لتغطية التناقضات فكثر اللجوء إلى الكذب والنفاق وقلب الحقائق والتزوير كما سنرى عندما نتعرض إلى البعد الاعلامي .

لكن ما نريد الإشارة إليه هنا من الناحية الأخلاقية ، فضلا عما سبق ، هو خروج بعض المسؤولين في أعلى مستوى وبعض وسائل الإعلام في الغرب وخاصة في أمريكا وبريطانيا ، عن تحفظهم العادي وسقوطهم في الاسفاف والبذاءة وحتى الصبيانيات ، فكثرت عبارات الشتم والثلب والتجاوزات اللفظية والمبالغات وما إلى ذلك من مميزات اللغة السوقية . وفي هذا الصدد ، بدا صدام حسين أكثر تخلقا واتزانا وتحكّما في لسانه إذ استثنينا تشبيهه بوش بالشيطان رمزا دينيا للشر . اما العبارات الكثيرة التي استعملت لثلب صدام حسين فإن بعضها لا يليق بالمقام . ولعل لهذا علاقة **بالبعد الثقافي** لهذه الأزمة ، وهو جانب هام من البعد

الحضاري . واختلط في هذه الأزمة أحيانا بالبعد الديني .
فالغرب يبدو قد أهمل تماما هذا البعد الثقافي في هذه القضية وتعامل معها من زاوية ضيقة لا تكاد تتجاوز الجانب الاقتصادي . وكأنه لا يريد أو لا يستطيع لحدود آفاق قادته أن يفهم أن ردود فعل الشعوب على الظلم والقهر لها دوما بعد ثقافي يضاف إلى الأبعاد الاخرى التقليدية .
إن الغرب يبدو كأنما لم يتعظ بما حدث في أيران ثقافيا كرد فعل على الهيمنة الامريكية زمن الشاه .
وها هي فرنسا التي كانت تتعامل عادة بصفة أذكى تنحط إلى نفس الدرجة في تبعية تبدو لأول وهلة غريبة ، سوف تجعلها بالضرورة الخاسر الأكبر ، ذلك أن الاشعاع الثقافي الذي يمثل قوة فرنسا الأساسية عالميا والذي تسعى إلى دعمه وتأطيره بالفرنكوفونية قد طمسته بيدها اعتبارا للأسس التي يقوم عليها وهي قيم حضارية وإنسانية عريقة من أهمها الديمقراطية وحقوق الإنسان واللائيكية القائمة على توازن بين الإلاهي والإنساني أي الدين والدنيا .
وان اللغة الفرنسية لترمز إلى هذه القيم أكثر من غيرها لأسباب تاريخية ثقافية . ولعل ذلك ما يفسر ردّ الفعل الجزائري الذي استهدف الفرنسية دون الانكليزية . فالانكليزية كما تقول لوموند دبلوماتيك (3-1991) تتميّز بأنها لغة تقدم علمي وتكنولوجي هي أرقى ولكنها اكثر حيادا في "نقل القيم الثورية واللائيكية". ولعل هذا ما يجعل " الرهانات الجديدة تقع في المستوى الذهني" . فالفرنكوفونية قد تكون

في أغلب الظن من ضحايا حرب الخليج ، حسب هذه النشرية الفرنسية .
وإلى جانب هذه الأبعاد العامة التي اكتفينا فيها بالإشارة ، نريد أن نؤكد على ثلاثة ابعاد نعتبرها أساسية في هذه الازمة وهي الأبعاد العربية والدولية والاعلامية .

أبعاد الحرب عربيا

إن أزمة الخليج تمثل في نفس الوقت نتيجة وتكريسا لوضع يتميّز باختلال جميع التوازنات عربيا . وإن الأنظمة الخليجية تتحمل جانبا هاما من المسؤولية في ذلك . فقد شجعت من جهة التوجهات الليبرالية في العالم العربي في نفس الوقت النشاط السياسي للحركات الدينية قصد مقاومة الحركات اليسارية والتقدمية .
وعندما حصل انكماش اقتصادي خلال الثمانينات إثر هبوط أسعار النفط بإرادة امريكية ، تقلصت الهجرة العربية إلى الخليج وعوض العرب بالآسياويين لأنهم يعتبرون أطوع . كما انخفضت نسبة مساعدات التنمية التي تقدمها البلدان النفطية من 23ر4٪ سنة 1976 الى 86ر0٪ سنة 1988 (بالنسبة إلى الناتج الوطني) فتزايدت ديون الأقطار العربية الأخرى مثل مصر والأردن والمغرب وتونس وغيرها . فلقد كانت هزيمة 1967 ضربة للقومية العربية والنفس الثوري الوحدوي . فنتج عن ذلك تغير موازين القوى لصالح الانظمة العربية المهادنة للغرب أو التي توصف بالاعتدال ، فتحولت

مصر إلى سياسة "الانفتاج" مع السادات وهي السياسة التي توّجت بزيارة القدس واتفاقية كامب دايفد .

كما فشلت جميع المحاولات الوحدوية الليبية دون ان تغيّر ليبيا جوهريا من أسلوبها في التعامل مع الوحدة رغم ما يبدو عليها أخيرا من ركون إلى " الواقعية " . كما نتج عن كل ذلك أيضا تحوّل نحو اللبرالية في شكلها الوحشي ممّا عمّق الفوارق الاجتماعية وشجّع عقلية " البزنسة " واغتنام الفرص . وبالإضافة إلى ذلك تعاظمت التبعية الغذائية العربية فارتفعت الواردات من 5ر2 مليار دولار في أوائل السبعينات إلى أكثر من 25 مليار دولار في 1989 وقد تصل الى 40 م.د في نهايةالقرن. فالبلاد العربية التي لا تتجاوز نسبة سكانها 4٪ من سكان العالم تستوعب خمس صادرات المواد الغذائية العالمية . وترفض الأنظمة الخليجية كل اقتراح لاصلاح هذا الوضع العربي المتردي وترفض حتى الاستثمار في المشاريع العربية الذي لا يمثل حجمه إلاّ 7٪ من استثماراتها الخارجية .

ولعل هذا من الأسباب العميقة التي تفسر قوة النوازع القومية الوحدوية في الوطن العربي وتوق **الجماهير العربية الى الوحدة** . فثمة قناعة بان طاقات العرب لا يمكن أن تجعل منهم قوة في العالم الاّ بتوحيدها لأن وجود المال في جهة والرجال في جهة أخرى هو أكبر عائق لانه لا قوة لهذا بدون ذاك . والجماهير العربية شاعرة بان الوضع الحالي رغم أبعاده التاريخية أحيانا هو أساسا من صنع الاستعمار لتقسيم العرب وإضعافهم

وإنه يمثل أثقل تركة للاستعمار البريطاني بالخصوص .
إن الجماهير العربية لها إرادة تجاوز الإحباط الناجم عن عقدة الخلافات العربية التي ترمز لها القولة المأثورة " اتفق العرب على أن لا يتفقوا " في حين ان هذه الخلافات ليست قدر العرب بقدر ما هي نتيجة طبيعية لحالة الانقسام المفتعل والتفاوت المفضوح والاختلال الصارخ بين القوى المالية والقوى البشرية .
إن سرّ التأييد الشعبي الذي حظي به صدام حسين إنما يكمن في هذا . فكأن الجماهير العربية كانت تنتظر زعيماً يجسّم حلمها بالوحدة وبإعادة توزيع الثروة العربية توزيعا عادلا وبالتصدّي للغرب الامبريالي وللصهيونية الجشعة ، الطامعة في افتكاك الأرض العربية واستنزاف ثرواتها .
هذا الذي لم يفهمه بعض الحكام العرب إلى اليوم حتى يغيّروا ما بانفسهم قبل أن يغير الله ما بهم .
فلقد كانت هزيمة 1967 ضربة للقومية العربية والنفس الثوري الوحدوي . فنتج عن ذلك تغير موازين القوى لصالح الأنظمة العربية المهادنة للغرب أو التي توصف بالاعتدال ، فتحوّلت مصر الى سياسة " الانفتاح " مع السادات وهي السياسة التي توّجت بزيارة القدس واتفاقية كامب دايفد .
كما فشلت جميع المحاولات الوحدوية الليبية دون أن تغير ليبيا جوهريا من أسلوبها في التعامل مع الوحدة رغم ما يبدو عليها أخيرا من ركون إلى " الواقعية " . كما نتج عن كل ذلك أيضا تحوّل نحو الليبرالية في شكلها الوحشي مما عمق الفوارق

الاجتماعية وشجّع عقلية " البزنسة " واغتنام الفرص .

ولقد كانت أزمة الخليج فرصة للجدل حول الوحدة العربية من جديد ، هل تكون بالقوة أم بالديمقراطية ؟ فكان الرأي السائد في تونس مثلا أن الوحدة العربية لا يمكن ان تتم بدون إقرار الديمقراطية في الأقطار العربية . لكن وجد أيضا من دافع عن منطق الوحدة بالقوة واعتبره مظهرا من مظاهر حركية التاريخ .

إن هذا الوضع العربي هو الذي يفسّر الأسلوب الذي تعامل به العرب عموما مع أزمة الخليج . وهو أسلوب يتميز بإسقاط المشاكل والمشاغل الذاتية عليها .

وقد رأينا سابقا كيفية تعامل كل قطر عربي مع الأزمة انطلاقا من أوضاعه الخاصة . إن بعض الأنظمة العربية التي تسعى اليوم الى معاقبة الاقطار العربية التي ساندت جماهيرها صدام حسين تتصرف وكانها عاجزة تماما عنْ فهم الأزمة وأبعادها فضلا عن استيعابها وتجاوزها .

فالشارع العربي مازال يعتبر أن بقاء صدام حسين في الحكم مكسب لأنه تحدّى الغرب وصمد واستطاع ضرب اسرائيل . ويجد الشارع تبريرا له بأنه بقي وحده يصارع أعتى قوة في العالم رغم الحصار والتجويع ولم يساعده أحد بل تألب عليه العرب مع الغرب . فالشارع واع بعدم تكافؤ القوى ومع ذلك كان جزء منه يأمل في النصر أو على الأقل في الصمود مدة أطول خصوصا وقد وقع تضخيم قدرات العراق عربيا وغربيا مما أحدث صدمة إثر قبول

العراق لشروط التحالف رغم الشعور السائد بعدم اعتبار هذه النتيجة هزيمة شبيهة بهزيمة 1967 التي كانت هزيمة العرب جميعا .

ولعل للخطاب الديني الذي لم يسبق له مثيل أثره الخاص على تغذية الأمل في انتصار العراق لدى جزء من الشارع العربي ، ولو بحدوث معجزة من نوع طير الأبابيل أو غزوة أحد ذلك أن الإفراط في استعمال الخطاب الديني قد هيأ عامة الناس نفسانيا إلى كل هذا . فخيبة الظن كانت عاطفية ولكن تفهم النتائج كان عقليا . ان هذه المشاعر والمواقف لم تكن خاصة بالجماهير العربية وانما شملت كذلك مواقف النخب والمثقفين العرب .

لقد بدا المثقفون العرب الذين شغلتهم أزمة الخليج الى حدّ كبير كأنما يسايرون الشارع وعواطفه الجياشة . ولعل من أسباب ذلك ان المثقف العربي الذي يساند العراق في محنته دون أن يسانده في غزو الكويت ، يجد نفسه في نفس المسيرة مع من يرفع شعار " الكويت عراقية " او " بالكيمياوي يا صدام " او " بالروح بالدم نفديك يا صدام " وما إلى ذلك من الشعارات الهزيلة .

مثل هذه الأوضاع سهّلت الخلط وتذويب الفوارق في المواقف نتيجة أهمية القاسم المشترك وهو رفض التدخل الأجنبي ورفض تدمير العراق . فالفوارق رغم أهميتها أصبحت مع مرّ الأيام واستفحال الأزمة تبدو ثانوية أمام الخطر الأعظم وهو تمكّن الهيمنة الامبريالية على مصير الأمة العربية .

بيد أن ما يعيبه البعض على المثقف العربي من

مجاراة للشارع بدل توجيهه قد يفسّر إلى حدّ ما بتهميش دور المثقف في العالم العربي وإن بدرجات متفاوتة . وقد يكون في ذلك السر في أن الشارع أصبح تقريبا المحدد الرئيسي في المواقف من قضية الخليج ، بينما كان الإعلام هو الموجه لمواقف الشارع في الغرب .

والأرجح أن من أسباب التركيز على مساندة العراق واعتبار قضية الكويت ثانوية رفض العرب للنفاق الغربي المتمثل في التستر وراء شرعية دولية لا يؤمن بها لأنه يريد فرضها في الخليج ويعمل على دوسها في فلسطين وغيرها . هذا بالإضافة إلى أن من طبيعة الجماهير العربية أن تتعاطف مع من يبدو لها ممثلا للصمود خصوصا أن الخط الفاصل بين الشجاعة والتهور ليس دائما واضحا لأن الفصل قلما يكون بينهما تاما .

ونلاحظ أن المثقفين العرب من خلال ما كتبوه في الصحافة عن الأزمة يبدون كأنما يلقون مسؤولية مصائب العرب على الغرب الاستعماري والبعض الآخر منهم يلقيها على العرب أساسا للانقسام وغياب الديمقراطية في ربوعهم . بيد أن الواقع اعقد من ذلك لأن العربي بصفة عامة سجين وضع معقد فرضه عليه الواقع الاستعماري ثم الامبريالي من مخلفاته بالخصوص القضية الفلسطينية وكيفية تقسيم الأرض العربية وطبيعة الأنظمة التي ركزت فيها .

وقد انعكس هذا الوضع بوضوح على واقع الجامعة العربية التي كانت الاطار الوحيد الذي يوهم بأن ثمة إرادة عربية مشتركة تتمخض شيئا فشيئا عن

وحدة مرجوة . ورغم أن هذه الجامعة كان الكلام فيها أكثر من الفعل وأجمل ، إلا أنها كانت رغم ذلك إطارا يسعى الى الحدّ من الخلافات العربية وإيجاد حدّ ادنى من تنسيق المواقف وتقريب وجهات النظر .
لكن منذ 2-8-90 ، أصبحت الاجتماعات مناسبة للمشادات الكلامية . وقد خرجت الجامعة العربية من هذه الأزمة من أكثر المتضررين ولئن ظهر بعد الأزمة نوع من الحرص المشترك على تجاوز الخلاف في الظاهر كأن شيئا لم يكن ، هو ما اعتبر مؤشرا إيجابيا ، ولكن هل المطلوب أن يعود وضع الجامعة العربية إلى ما كان عليه أم المطلوب أن تتغيّر أوضاع العلاقات العربية جوهريا في اتجاه التضامن والتكامل الحقيقيين حتى يتم استيعاب أزمة الخليج وتجاوزها . فإلى حدّ الآن لم نر اي مؤشر جدي في هذا الاتجاه من الأنظمة الخليجية التي بدون اقتناعها بذلك لا يمكن للجامعة العربية أن تكون الإطار الناجع لتحقيق مطامح الأمة العربية .
بيد ان هذا الاستيعاب وهذا التجاوز لئن مثلا شرطا ضروريا فإنهما غير كافيين ، لأن الواقع العربي غير منفصل عن الواقع الدولي خصوصا أن الارادة العربية في بعض المجالات كانت محدودة ثم زادتها أزمة الخليج ارتهانا واستلابا .

أبعاد الحرب دوليا

ان اختلال التوازن الذي تحدثنا عنه عربيا ، ليس الاّ مظهر من مظاهر الاختلال الدولي الراجع بالخصوص الى استنزاف ثروات العالم الثالث

استنزافا يمثل في الواقع عنفا اقتصاديا قد لا يظهر للعيان كما يظهر العنف العسكري ولكنه لا يقل عنه خطرا ودمارا .

فمن الأمثلة على هذا التوازن المختل أن البلدان المتقدمة التي تمثل ربع سكان العالم تستهلك 80٪ من الدخل العالمي . ومن بينها الولايات المتحدة الامريكية التي تمثل 20/1 من سكان العالم ولكنها تستهلك وحدها ربع الطاقة العالمية أي خمس مرات ضعف النسبة العادية .

في مقابل هذا التبذير تستنزف الديون دماء العالم الثالث المدين بنحو 1300 مليار دولار في حين تبلغ ودائع الأنظمة الخليجية في البنوك الغربية نحو 700 مليار دولار . ففي سنة واحدة (1988) دفع العالم الثالث لدائنيه أصلا وفائضا زيادة عن أصل الدين تقدّر بنحو 50 مليار دولار. هذا التفقير المنظم للعالم الثالث يفسّر حسب إحصائيات اليونيسف موت حوالي 40 الف طفل سنويا جوعا ومرضا بينما يصرف هذا العالم الثالث على التسلح كل دقيقة حوالي مليوني دولار . فقد تضاعفت مصاريف التسلح في هذه البلدان منذ ثلث قرن بنسق يعادل ضعف نسق تطوّر الدخل الفردي ، خصوصا أن ثلث هذه البلدان تخصص للدفاع أكثر مما تخصص للتربية والصحة معا .

مثل هذه المعطيات القليلة المعبّرة تسلّط أضواء أخرى على حرب الخليج وتؤكد بعدها الاستعماري وتجعل منها رمزا لعدوان الشمال على الجنوب . لكن هذا الاختلال في التوازن الدولي لم يعد يقف عند هذه الحدود بل تجاوزها الى الهياكل الأممية التي

وقع الزيغ بها عن أهدافها الاصلية لخدمة اغراض استعمارية كما وقع مع مجلس الأمن في أزمة الخليج.

من " مجلس الامن " الى " مجلس الحرب "

تتمثل رسالة منظمة الأمم المتحدة حسب ميثاقها في " تجنيب الانسانية ويلات الحرب " ويلزم البند 33 من هذا الميثاق الدول الأعضاء بالبحث عن حلول تفاوضية لكل خلاف دولي يهدد بنشوب حرب . لكن ما حدث هو عكس كلّ ذلك ، فلم يتخذ أي إجراء يسمح بمفاوضات جدية مع العراق بل مورست جميع الضغوط لحمل مجلس الأمن على خيانة رسالته بإصدار قرار شنّ الحرب . وقد عبّر الأمين العام للامم المتحدة عن هذا التناقض الغريب حين صرح عند بدء الهجوم البري بأن " هذه الحرب أقرتها الامم المتحدة ولكنها ليست حرب الامم المتحدة ". وفي هذا الكلام الغريب اعتراف ضمني بأن هذه الحرب هي حرب امريكا وأن مجلس الأمن أصبح أداة في خدمة سياستها بشكل يضرب مصداقية الأمم المتحدة في الصميم .

لقد كانت منظمة الأمم المتحدة عاجزة من قبل نتيجة صراع الشرق والغرب وعجز أقطار العالم الثالث عن الاضطلاع بدورها العالمي وكذلك نتيجة هيكلة مجلس الأمن التي تجعل خمس دول دائمة العضوية فيه تتمتع بحق النقض وتستطيع واحدة

منها شلّ أعماله إن شاءت .
وقد ظن العالم أن نهاية الحرب الباردة ستجعل المنتظم الأممي يخرج من عجزه ويضطلع بمسؤولياته بصفة أنجع . لكن حرب الخليج خيبت الآمال فيه وأظهرت أن عجزه مرض مزمن قد لا ينجو منه إلا بتجديد نظامه .
فلقد كان من الواجب طبقا للبند 96 من الميثاق استشارة المحكمة الدولية في أزمة الخليج كما حدث مع قضية الصحراء التي رفعت إلى " لاهاي " فلماذا لم يرفع الخلاف العراقي الكويتي كذلك ؟
في غياب ذلك أصبح الحق والقانون يتحددان بمواقف أغلبية أعضاء مجلس الأمن بدل قضاة محايدين مستقلين عن حكوماتهم .
ومما زاد في ضرب مصداقية الأمم المتحدة في هذه الأزمة أن قوات التحالف المعادي للعراق ، رغم استنادها إلى قرارات أممية لإضفاء شرعية شكلية على حربها ، لم توضع تحت قيادة أممية وإنما تحت قيادة امريكية ، وهو خرق للبند 47 من الميثاق .
والملاحظ أن قيادة أركان الأمم المتحدة لم تجتمع منذ 1948 بحكم الحرب الباردة . فهذه الحرب لم تجر إذا طبقا لميثاق الأمم المتحدة ولا تحت رايتها . وهكذا خرق مجلس الأمن ميثاق الأمم المتحدة في نفس الوقت الذي يدعي فيه الدفاع عن القانون الدولي .
ومن أبرز مظاهر العجز الذي أصاب المنتظم الأممي أنه لم يستطع نتيجة التمنع الامريكي حتى مناقشة مقترحات الحل السلمي المتعددة التي تقدمت بها عديد الأطرافَ مثل اتحاد المغرب العربي .
وقد يكون من المفارقات أن امريكا قد شنّت مع من

معها الحرب البرية على العراق في نفس الوقت الذي كان فيه مجلس الأمن يوم 24-2-91 يواصل في جلسة فرض عليها أن تكون مغلقة ، مناقشاته من أجل وقف القتال .

وفي ذلك ما فيه من استخفاف بهذا المجلس الذي استعملته وعبثت به كما شاءت وجعلت منه فعلا " ذلك الشيء " كما كان يسميه ديغول استهزاء فقد حملته على إصدار 13 قرارا في ستة أسابيع وهو رقم قياسي بالإضافة إلى سابقة قرار شن الحرب الخطيرة . فإذا قارنا ذلك بعدد القرارات الصادرة ضد اسرائيل بدون تطبيق ومشاريع القرارات التي أجهضتها امريكا بحق النقض لأنها تمس باسرائيل رغم عدوانها واحتقارها للقرارات الأممية ، أدركنا فداحة هذا الفشل الأممي الذي لا يمكن أن يكون الا نذير شؤم بالنسبة الى المستقبل .

ولقد شمل هذا الاستخفاف والعبث بالمنتظم الأممي حتى لجنة حقوق الانسان التي بقيت ثلاث سنوات تنظر " في قضية استعمال العراق للأسلحة الكيمياوية ضد الأكراد دون أن تتوصل الى نتيجة لأن امريكا وفرنسا رفضتا من قبل إدانة العراق لانهما تبيعانه السلاح . ولم تعبر هذه اللجنة الا يوم 6-3-91 اي بعد انتهاء العدوان على العراق وبعد ثلاث سنوات من " عظيم انشغالها " بهذا الاستعمال.

وقد تجسم عجز المنتظم الاممي في عجز أمينه العام بيريز دي كويلار وقلة حزمه رغم ما لديه ربما من استعداد . وإن تحليل حواره مع صدام حسين ليبرز تلك الحدود وذلك العجز .

فهو من جهة يدافع أمام صدام حسين عن نوايا

بوش ويؤكد أن احترام العراق لقرارات مجلس الأمن وخاصة 660 و678 يتطلب في المقابل ضمانات للعراق تخص أمنه وهي تستحق النقاش ويعرفها بوش ، ولذلك يؤكد له قول بوش إن امريكا لن تهاجم العراق أو القوات العراقية اذا انسحبت من الكويت ، ومن جهة اخرى يؤكد له أن مبادرته شخصية وإن أحدا لم يكلفه بمهمة أو وساطة .

هذا التناقض هو الذي جعل صدام حسين يشعر بأنه لا أحد قادر على التفاوض معه لأن امريكا ترفض ذلك . ولا يخفي بيريز دي كويلار في حديثه مع صدام مظاهر خرق امريكا القانون الدولي فهو يعترف له بأنه عارض قرار امريكا بمنع طائرة طارق عزيز من الهبوط بامريكا لانه قرار مخالف لاتفاقية المقر المبرمة بين المنظمة والدولة الامريكية . كما يعترف له بان القرارات التي آتخذها مجلس الامن قد فرضتها عليه امريكا مردفا " لو كان الأمر بيدي لساندتكم ".

وعندما لاحظ صدام حسين أن مخاطبه في المقابلتين لا يتجاوز مطالبته بالانسحاب طلب منه تقديم مقترحات للحلّ وقال له "اذا تركوك تقوم بدورك فتأكد من استعدادنا لمساعدتك كما فعلنا من قبل" وهو يقصد بذلك الخلاف مع ايران .

لهذا كله كانت مهمات الأمين العام فاشلة مسبقا فشل المنتظم الأممي الذي لم يكن يملك إطلاقا زمام المبادرة .

أبعاد الحرب إعلاميا

لقد كانت حرب الخليج حربا تكنولوجية وإعلامية ، فالتفوق التكنولوجي يتجلّى عسكريا كما يتجلّى إعلاميا . وقد كان البعد الإعلامي في هذه الحرب بعدا أساسيا ، بيد أن قيمة البعد الإعلامي قد كانت في حرب الخليج بالسلب . فليس من المبالغة في شيء القول إن البشرية لم تعرف حربا بلغ فيها تشويه الإعلام وتزويره مثل الحدّ الذي بلغه في حرب الخليج ، فقد وقع العبث بالرأي العام في كل مكان وديس حق الإنسان في إعلام صحيح نزيه دوسا لا مثيل له من قبل أجهزة ما انفكت تدعي الدفاع عن حقوق الانسان .

فالمتتبع لمواقف الإعلام الغربي بجميع أصنافه منذ اندلاع الشرارة الأولى لأزمة الخليج وخاصة منذ اجتياح العراق الكويت في 2-8-1990 يصطدم بكثرة المؤشرات الدالة على أن هذا الإعلام قد وضع نفسه بنسبة مرتفعة في خدمة الحرب .

كيف خدم الاعلام الحرب ؟

لقد خدم الاعلام الحرب بخضوع نسبة مرتفعة منه للسلطة السياسية والعسكرية وللأطراف المتحمّسة للحرب عموما وذلك بغض الطرف عن مدى الاختيار أو الاضطرار ، لأن جلّ المحللين يؤكّدون ان وسائل الإعلام الغربية كانت طيّعة للسلطتين السياسيّة

والعسكرية .
ورغم أن الإعلام الأمريكي قد شهد في بداية الأزمة حوارا ثريا فإنه انزلق في النهاية في اتجاه تبنّي المواقف الرسمية باستسلام تام ، جعل السلطة الرابعة تخضع للسلطة الأولى خضوعا لم يسبق له مثيل . فقد تعامل الأعلام الغربي مع قضية الخليج بكثير من الهوس وكأنه كما قيل ينفخ في نار حرب صليبيّة .
وقد جعلت هذه التبعيّة الإعلام يتحوّل إلى داعية حرب وحثّ على العنف والقتل والاغتيال : فهذه صحيفة " ذي ايكونومست " البريطانية المؤثرة تؤكد في منتصف جانفي 1991 على ضرورة التخلّص من صدّام حسين ولو بالحرب وتعتبر ان من الأخلاق شنّ حرب من اجل ثمن النفط الخام . وقد بررت بعض وسائل الاعلام الغربية هذه الحرب بانها " حرب التكنولوجيا ضدّ الإيمان ". ولم تتورع إحدى شبكات التلفزة عن الحث على المبادرة بالحرب والقتل ملاحظة أن الجنود الامريكيين قد عيل صبرهم لأنهم بكل بساطة " يريدون قتل العراقيين والعودة إلى ديارهم ".
وقد انجرّ عن هذا الموقف توخّي أساليب إعلامية تتناقض تماما وأخلاقيات المهنة التي غيّبت بشكل فظيع فحلّ محلّها الكذب والتزوير ومغالطة الرأي العام ، إلى حدّ أن أحدهم سمّاها " حرب الكذابين " لأن الكذب كان فيها سيد الموقف في جميع المستويات السياسية والعسكرية والإعلامية . وقد اتخذ الكذب والتزوير أشكالا عديدة لا تكاد تحصى نورد بعض الأمثلة من أهمها :

- قلب الحقائق كقول أحدهم في صحيفة نيويورك تايمز (16-1-1991) " ان رسالة الطائرات المقنبلة والصواريخ الامريكية هي رسالة حق في خدمة اهداف مشرفة ".

وكقول آخر " لو أن صدام وجد الوقت لصنع صواريخ عابرة للقارات لوجب اليوم على أطفالنا حمل أقنعة واقية من الغازات ".

وواضح أن الهدف من ذلك هو غسل الأدمغة والإعداد النفسي للحرب . ومن نماذج هذا الإعداد النفسي كذلك تعديد احدهم في صحيفة التايم الخيارات المطروحة في قالب تساؤلات :

* هل يجب قتل صدام حسين ؟

* هل يجب استعمال القنبلة الذريّة في العراق ؟

* هل يجب المزيد من إلقاء القنابل على العراق؟مع تبرير كلّ ذلك بالحدّ من الخسائر الامريكية وفسح المجال للمواطنين المطالبين بذلك للتأثير على باقي الرأي العام .

ومن هذه الأمثلة الدالة على التزوير ، تقديم صور مشوهة لصدام حسين يتم تزويرها لإظهاره في مظهر ذي ملامح قاسية كما فعلت التايمز البريطانية (13-8-1990) ولوبوان الفرنسية (9-4-1990) وغيرهما .

- ومنها نشر الأخبار الزائفة عن أسرة صدام حسين لبثّ الشكوك وللتشويه .

- وقد يتخذ التزوير شكل الانحياز في التعامل الإعلامي بدل العدل والموضوعية ، من ذلك تخصيص شبكة التلفزة الامريكية CBS 8 ثوان لتجميع 50 الف من المناهضين للحرب في أمريكا بينما خصصت 13

ثانية لتجمع بضع مآت من المساندين لسياسة بوش في الخليج .
أما شبكة ABC فقد خصصت ثانية واحدة لمسيرة مئة الف من المناهضين للحرب بينما خصصت ثلاث دقائق كاملة لجمع من العمال المعتزين بصنع صواريخ البتريوت .
- وقد يتخذ التزوير شكل المبالغة والتضخيم حينا والاستخفاف والتقليل حينا آخر حسب الحاجة كوصف عملية أسر طيار أمريكي بأنها " جريمة حرب " أو وصف هجوم العراقيين على الخفجي بأنه " مثل لدغة بعوضة في جسم فيل " ثم وصف خروجهم منها بأنه " انتصار عظيم للحلفاء " دون أي خجل من هذا التناقض .
وقد يبلغ هذا الأسلوب حدّ الإسفاف مثل اعتبار شبكة CBS حرق علم العراق أو استبدال أهداف الرماية بصور صدام حسين أو حتى رسم صورته على ورق المراحيض مكتوبا تحتها " جزار بغداد" تعبيرا جديدا عن الوطنية والوحدة .
- وعلى العكس من ذلك يتم تزوير الحقيقة باستخدام لغة التلطيف والكناية والتورية لإخفاء بشاعة الجرائم المقترفة في حق الشعب العراقي . من ذلك إضفاء شبكة CNN صفة الكمال على عملية إلقاء القنابل . ولكن أغلب العبارات التي من هذا القبيل إقتبستها وسائل الإعلام من لغة العسكريين وتبنتها ، فالسلاح يكنّى بالورقة الرابحة وإلقاء القنابل يصبح عمليات جراحية ، وقتل المدنيين يلطّف بخسائر جانبية والمناطق التي لم يشملها التدمير بعد تعتبر أهدافا مربحة الخ .

- وقد يتخذ التزوير شكل ذكر الحقيقة بعد فوات الأوان وبعد أن فعل الكذب مفعوله ، مثل الاعتراف المتأخر بأن مجزرة العامرية قد استهدفت مدنيين عمداً بعد أن قيل إنه ملجأ عسكري ثم قيل إن الأمر لا يعدو الخطأ .

ومن نفس الأسلوب تذكّر الإعلام الغربي أن صدام حسين دكتاتور عمل على تصفية معارضيه وهاجم ايران وقصف الاكراد ، الخ . ولكن نفس المصادر التي تتذكر هذه الحقيقة متأخرة تتناسى نصف تلك الحقيقة وهي أن الغرب شجّع ذلك وان امريكا قد حذفت العراق من قائمة " الدول الارهاربية ".

- وقد بلغت هذه الممارسات حدّ الإرهاب الفكري وذلك بترهيب كل من كان له موقف أو رأي مخالف . من ذلك وصف شبكة CBS المظاهرات المناهضة للحرب في أمريكا بأنها " تضايق عائلات جنودنا " ومن ذلك أيضا اتهام بيتر ارنات مراسل شبكة CNN في العراق بأنه " متعاطف مع العراق " وذلك لأن بعض الصور عن الضحايا المدنيين العراقيين بدأت تقلق السلطة الامريكية الى حدّ وصف تلك الصور بأنها خاضعة للرقابة العراقية .

- لكن اذا كان التزوير في الغالب بهذا الشكل من الفظاظة والفضاعة فانه أحيانا لا يخلو من لطف التفكه الخبيث كقول أحدهم في صحيفة نيوزويك " إن إرادتنا لأول مرة التضحية بحياة شباب من الغرب في بلاد العرب يجب أن يبرهن للعرب على مدى أهميتهم في نظرنا " وفعلا فلو لا هذه الأهمية الكبرى لما دمّر العراق واحتلت منابع النفط .

ولعل من أبرز مظاهر الانحياز للحرب تقديمها

بلغة تافهة تغطي فظاعة الحرب وتقدمها وكأنها مجرد لعبة الكترونية بين أيدي أطفال أبرياء يزهقون من الأرواح ما لا تتجاوز قيمتها قيمة أرواح الذباب .

ومادام موقف الإعلام هذا مخالفا لمبادئه وأخلاقياته فلا بدّ من التساؤل عن الأسباب الكامنة وراء ذلك .

لماذا خدم الاعلام الحرب ؟

أغلب الظن أن من الأسباب ما هو كامن في المؤسسة الإعلامية الغربية ومنها ما هو خارج عنها. هذا إذا أمكن التفريق بين الضربين .

1) قد يكون جهل الغرب ومؤسساته الإعلامية للشرق وللعالم العربي الاسلامي من العوامل التي تغذي النزعات العدائية والعدوانية خصوصا اذا تفاعلت وتناقضات المصالح مع التراكمات التاريخية في الشعور واللاشعور من الحروب الصليبية ثم الحروب الاستعمارية إلى معارك التحرير. وقد تساءلت فعلا بعض الصحف الغربية مثل نيويرك تايمز بقلم ارتور شليسنجر جونيور عن مدى معرفة امريكا للشرق الأدنى . وهو إذ يؤكد هذا الجهل يعتبر آخر الأمر " ان جهلنا لمدى جهلنا هو الذي لا يغتفر ". ومن الطبيعي أن تغذي هذه النزعات وهذا الجهل المواقف العنصرية وروح التعصب .

2) لكن ما يلفت الانتباه بصفة عامة هو تقلّص الروح النقدية المتمثلة في غربلة المعطيات والأحكام

وتمحيص القرارات ومناقشتها . فمن الغريب أن الإعلام تقبّل بصفة عامة بدون مجهود نقدي كاف الحجج المغلوطة المقدمة لتبرير العدوان على العراق وخاصة المشروعية المزيّفة المتخفيّة وراء قرارات مجلس الأمن التي لم تكن الا غطاء لقرارات الادارة الامريكية .

3) ومن المحتمل أن تكون من بين الاسباب تبعية جلّ وسائل الإعلام لمراكز قوى سياسية أو ماليّة تستخدمها لمصالحها على حساب الإعلام الحرّ النزيه . فلا يمكن ان لا نأخذ بعين الاعتبار إن شبكة تلفزية مثل NBC هي تابعة لمؤسسة دجينرال الكتريك التي هي من مصادر البنتاغون الرئيسية في السلاح . فهل من الغريب بعد ذلك أن يبلغ إعلامها حول الخليج من الإسفاف حدّ الكاريكاتور ؟ ولعل الأخطر من ذلك هو هيمنة الأوساط الصهيونية بشكل واسع النطاق على جلّ وسائل الإعلام الغربية بجميع أصنافها ، بشكل أشبه ما يكون بالسرطان الذي ينخر جسم الغرب نخرا .

4) وقد اختارت السلط السياسية والعسكرية بشكل مكشوف هذه المرة إخضاع الإعلام حول الخليج لرقابة مشددة . ولقد قيل كثيرا إن ذلك يمثل سابقة في الغرب ، ولكن الواقع يشهد أن لذلك سوابق أخرى . فاسرائيل حين اجتاحت جنوب لبنان سنة 1982 ، وبريطانيا حين استرجعت من الارجنتين بالقوة جزر المالوين في نفس السنة والولايات المتحدة حين اجتاحت غرانادا في السنة الموالية وحين غزت باناما سنة 1989 ، وفرنسا في التشاد سنة 1988 ، كلها تعاملت بنفس الأسلوب مع الاعلام

بإخضاعه للرقابة وبمنع الصحافيين من متابعة الأحداث . فلم تنشر من الصور الاّ ما سمحت به القوات المسلحة التي استخلص رؤساء أركانها مع السياسيين الدرس من حرب فيتنام . فلقد كان من نتائج حرية الصحافة في نقل مشاهد الدمار والآلام البشرية في حرب فيتنام إصابة الرأي العام بصدمة حركته ضد الحرب فتهرأت المعنويات وتركت المشاهد اليومية عن الحرب صورة سلبية عن الجيش الامريكي .

هذا الدرس يتلخّص في كلمة جديدة في قاموس الحروب وهي " النظافة " فالحرب اصبحت " تظيفة " لأن المواطن لا يرى اثناءها شيئا يذكر من العنف والوحشية والدماء والالام والدموع . فالخطة الجديدة تتمثل في منع أي لقاء عفوي بين الدماء والكامرا . أما الحجة التي يتم تقديمها لتبرير ذلك فهي بسيطة : حماية الصحفيين من أخطار الحرب . ألم يمت منهم كثيرون في الحروب السابقة ؟ لكن هذه " الحماية " لم تمنع المارينز الأمريكيين من قتل صحفي إسباني في باناما عمدا لأنه اقترب أكثر مما يسمح به من المجازر التي يراد إخفاؤها عن فضول بعض العيون .

- ومن الأدلّة القاطعة على أن الإعلام عموما قد قام بالدور الذي طلب منه خدمة لاهداف الحرب طوعا أو كرها ، شهادات الإطراء التي أغدقها عليه كبار دعاة الحرب . فهذا هنري كيسنجر الذي لا يريد منح الإعلام صكا أبيض يعتبر أنه " الى حدّ الآن ، تغطية التظاهرات مناسبة " وكيف لا تكون مناسبة وهي مفضوحة الانحياز لدعاة الحرب ! وهذا بوش أكثر عرفانا بالجميل فقد أكد البيت الابيض رسميا " ان

الرئيس يعتبر أن التغطية الإعلامية لهذه الحرب خارقة للعادة ".

الاعلام المناهض للحرب

فاذا كان الاعلام الغربي قد خدم الحرب بالشكل الذي رأينا وللاسباب التي ذكرنا ، فهل خدم بعضه السلام والى أي حدّ ؟
يمكن ان نقول إن بعض وسائل الإعلام او بعض الأصوات فيها قد سعت الى خدمة السلام بالدعوة أولا الى تفضيل الحوار والتفاوض على الحرب لحلّ المشاكل والخلافات وبالتنديد ثانيا بمظاهر الانحراف في الإعلام ذاته وفي طريقة تعامل الاوساط السياسية والعسكرية مع الإعلام .
ومن أهم الشهادات على ذلك ما صرح به هرفي بورج الرئيس المدير العام للقناة التلفزية الثانية بفرنسا لصحيفة ليبراسيون (21-3-91) فقال :" في خصوص تغطية حرب الخليج .... جميع وسائل الإعلام الفرنسية وخاصة التلفزية قد أخلّت بواجبها وهي تستحق صفرا في الميدان الجيو - سياسي وكم كان جهلها مفرطاً ببلدان الجنوب وتاريخها وثقافتها ومشاكلها ، فلقد سمعنا كل ما اتّفق من الخلط ، ثم إنّه مترجم عن الأمريكية عبر CNN . حقا إن ذلك لا يبعث على الفخر !".

أصوات الرفض :

لكن ذلك لم يمنع بعض الأصوات من أن ترتفع من صلب المؤسسة الإعلامية للتنديد بهذا الانحراف والاحتجاج على المراقبة والصنصرة . فهذا صحافي من CBS يعترف بأن " النظام الحالي يحرمنا من الصور الحقيقيّة التي تصور بشاعة الحرب ويعوّضها بتعاليق لا تضرّ " . وفعلا فان الأخبار الحقيقية قد تم تعويضها بتعاليق فوضوية لعسكريين متقاعدين قد يودّ بعضهم أن يتحقق في الخليج ما عجزوا عنه في فيتنام ، هذا فضلا عن الجوائز الهامة اذ يتقاضى الجنرال الامريكي المتقاعد عن تعاليقه يوميا 1500 دولار تقريبا . وهكذا يتم الإيهام بتقديم إعلام كثيرا ما يكون اقرب الى التخريف لسدّ الفراغ الإعلامي الذي نفّر المواطنين من إعلام مغشوش .

وقد تحركت بعض الضمائر حتى في شبكة NBC التي اعترفت ذات مرة بعد اسابيع من الحرب بأن " البنتاغون حوّل وسائل الإعلام الى سلاح إضافي بين يدي الجيش " . وقد أدانت أصوات عديدة في الصحف التلاعب بالأخبار وتزويرها .

وقد بلغ الأمر ببعض الصحافيين في امريكا حدّ التعبير عن رفضهم لتصرف البنتاغون معهم ، برفع قضايا ضد حكومتهم معلنين " أن هذه التضييقات هي بمثابة سياسة الصنصرة لأول مرة في تاريخ الحرب العصرية " ولعل الجديد في الأمر ليس أنه سابقة كما رأينا وإنما الجديد ان البنتاغون يقرّ ويعترف جميع مراسلي الصحافة العالمية بأن لا

أخبار لهم وبأنهم هم أيضا يشاهدون شبكة CNN وينقلون عنها نفس الشيء برتابة أضجرت المشاهدين مما " ساهم في مزيد تدهور صورة الصحافي في ذهن المواطنين " . كما ان وكالة فرانس براس تقدمت بدورها بشكوى ضد البنتاغون.

وقد تحوّل سخط بعض الصحافيين إلى هزل ساخر، فقد علّق أحدهم في صحيفة نيويورك تايمز بقوله " إن تفوق البنتاغون في الجوّ قد سحق الصحافة قبل سحق العراقيين ".

اهتراء المصداقية :

وقد كان من نتائج ذلك كله أن فقد الاعلام الغربي في عقر داره مصداقيته التي بدأت تهترىء شيئا فشيئا بعد فضائح تيان آن مان وتيمسوارا وكربنتراس التي تتالت بنسق سريع منذ 1989 حتى تساءلت عدة صحف : هل كذبت التلفزة في الخليج كما كذبت بصفة شنيعة في تيمسوارا آخر أيام تشاوسسكو برومانيا .

إن كلّ هذه الانحرافات هي التي تفسّر المناخ الجديد المناهض للاعلام في الغرب كما رأينا في البداية .

ورغم ما أصاب الإعلام الغربي من اهتراء ، إلا أنه بالمقارنة مع إعلام بلدان العالم الثالث بقي لدى الرأي العام في هذا العالم النامي او المتخلّف ، أقلّ قابلية للرفض اذ كثيرا ما يلجأ المواطنون في هذه الأقطار الى الإعلام الأجنبي لمعرفة أحوال بلادهم .

لكن ما حدث لأول مرة في تاريخ الإعلام هو أن بعض بلدان العالم الثالث التي تتمتع بهامش من الحرية النسبية مثل بعض بلدان المغرب العربي ، قد كان إعلامها حول الخليج أفضل من جزء كبير من الإعلام الغربي . وقد أصبح المواطنون في تونس والجزائر مثلا يثقون في إعلامهم أكثر مما يثقون في ما يصلهم من الإعلام الغربي المثير باستفزازه واستخفافه بأخلاقيات الصحافة . لكن هذا لا يخفي عنا أن بعض الصحف التي تعتبر نفسها مستقلة قد طغى عليها الجانب التجاري في مجاراة عواطف الشارع بل وتحريكه وتهييجه وحتى مغالطته بالمبالغات وبتغذية الخرافات والأوهام .

فلئن انقسم الإعلام الغربي الى إعلام في خدمة الحرب وإعلام مناهض لها ، فان الثاني لم ينجح بدوره الا جزئيا في إعلام الرأي العام باتزان وموضوعية تنمي في المواطن روح النقد والنظرة النسبية للاشياء .

كما أن الإعلام العربي عموما لم يعدّ الرأي العام العربي لنتائج ٠ ، الحرب بإقتصر على مسايرة الأحداث يوما بيوم .

والغريب في الأمر أن الإعلام العربي في بعض الأقطار التي أحرز فيها لأول مرة على ثقة المواطنين لم يستفد من تلك المكاسب ولم يسع لتنميتها فبمجرد توقف القتال ، عاد الإعلام العربي إلى عاداته القديمة وإلى ترديد ما يروّجه الاعلام الغربي الموجّه دون غربلة او نقد . ويكفي أن نقدّم مثالا على ذلك الاخبار المتعلقة بمعاناة الشعب الكردي في العراق ، في حين أن هذه المعاناة الحقيقية التي تقدم

الينا على أنها خرق من النظام العراقي لحقوق الانسان ، لم يتسبب فيها على الاقل هذه المرة النظام العراقي وإنما افتعلتها السلطات الغربية ووجدت من بين الأكراد من قبل أن يكون مرة أخرى أداة ولعبة في أيدي أجنبية واضحة غير خفيّة . ثم إن هذه المعاناة ، بالاضافة الى ذلك ما هي الا جزء من معاناة الشعب العراقي بجميع فئاته . ولعل وضع الأكراد اليوم أفضل بكثير من وضع بقية الشعب العراقي الذي يعاني معاناة لا تتصور لا نتيجة الحرب والدمار والمجازر فحسب وإنما بالخصوص نتيجة الحصار والتجويع المتواصلين رغم وقف القتال رسمياً . وما افتعال قضية الأكراد الا للتلهية عن مصائب الشعبين العراقي والفلسطيني ، خصوصا أن الرأي العام الغربي ، بفضل إعلامه مازال يجهل حدود وحشية التدمير والمجازر والجرائم المقترفة في حق الشعب العراقي وحق الانسانية في الخليج ، وهي حسب شهود عيان ومن بينهم مبعوثون امميون ، تتجاوز كل تصوّر . ولسنا ندري هل ستبقى رغم ذلك أغلبية من الرأي العام الغربي تساند ما اقترف من جرائم في الخليج باسم القانون والحقّ والشرعيّة الدولية ، نتيجة التخدير والتعتيم والعبث الإعلامي .

مخلفات حرب الخليج

لقد تبين بوضوح بطلان الادعاء بان حرب الخليج 0 من شأنها حلّ مشاكل المنطقة وإنما الملاحظ أنها قد عقدت المشاكل القائمة وخلقت مشاكل جديدة ليس

من السهل التنبؤ بتطوّرها . فالنتفحص بعض القضايا الهامة القديمة والجديدة .

القضية الفلسطينية هل هي ضحية ازمة الخليج ؟

لقد أصبح الشعب الفلسطيني اليوم في العالم الشعب الوحيد الذي يعيش وضعا استعماريا بأتم معنى الكلمة ، يسومه خسفا جنود صهاينة مستوطنون قادمون حديثا من اوروبا خاصة .

وبعد أن سلطت أكبر مظلمة في التاريخ الحديث على هذا الشعب العربي باغتصاب أرضه وتشريده ، أصبح منذ سنة 1948 ، ضحية خذلان الدول العربية ، وتوسع الصهاينة وقلة اكتراث المنتظم الأممي وعجزه في أغلب الأحيان .

فلقد أصدرت الأمم المتحدة في شأن القضية الفلسطينية عددا كبيرا من القرارات نذكّر بأهمها :

- القرار 181 (29-11-47) الذي تم بمقتضاه تقسيم فلسطين الخاضعة آنذاك للادارة البريطانية إلى دولتين عربية ويهودية . وقد انجرّ عن رفض العرب لهذا التقسيم الجائر قيام حرب غير متكافئة في 15-5-48 ضمت إثرها اسرائيل الجليل وغربي القدس وضمت الاردن الضفة الغربية والقدس الشرقية وسيطرت مصر على غزة . وبذلك أطرد مآت الالاف من الفلسطينيين أو فروا من التقتيل وأصبحوا لاجئين بين غزة ولبنان وسوريا والاردن .
- القرار 1949/194 يؤكد حق الفلسطينيين في

العودة إلى ديارهم أو في التعويض المالي .
- القرار 242 (11-67) صدر اثر حرب 1967 التي آلت الى ضم اسرائيل القدس الشرقية والضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء . وينص القرار على احلال سلام شامل مقابل انسحاب اسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة .
- القرار 338 / 1973 يعيد مضمون القرار السابق اثر حرب رمضان 1973 . وقد اعترفت الجمعية العامة للامم المتحدة في سنة 1974 بحق الفلسطينيين في الاستقلال الوطني وقبلت منظمة التحرير الفلسطينية ملاحظا .
- في 1978 أبرمت مصر السادات اتفاقية كامب دايفد التي تم بمقتضاها انسحاب اسرائيل سنة 1982 من سيناء . وهي تنص على إقرار استقلال داخلي في الضفة وغزة دون أن يكون اي طرف فلسطيني قد تفاوض في ذلك .
- في 1980 اقترحت موسكو ندوة دولية بإشراف الأمم المتحدة لتعويض ندوة السلام بالشرق الأوسط التي اجتمعت مرة واحدة في 12-1973 باشراف امريكي سوفياتي . وقد قبل الاقتراح العرب والسوق الاوروبية وصادقت عليه الجمعية العامة للامم المتحدة رغم معارضة اسرائيل وامريكا .
- في 1982 قبل العرب في قمة فاس إقامة دولة فلسطينية وإقرار سلام شامل مع اسرائيل .
- في 1987 ، انفجرت الانتفاضة وهي تتواصل الى اليوم رغم القمع .
- في 11-1988 ، إثر تخلي الاردن عن كل مطلب في الضفة (31-7-1988) اعلن المجلس الوطني

الفلسطيني عن إنشاء دولة فلسطين واعترف بالقرارين 242 و338 وقبل قرار التقسيم وأكد معارضته للارهاب .

- في 1989 بدأ التفاوض بين منظمة التحرير الفلسطينية والادارة الامريكية .

- في 1990 قطعت امريكا الاتصال مع منظمة التحرير اثر عملية فدائية . وفي نفس السنة تدفق المهاجرون السوفيات الى اسرائيل باتفاق امريكي سوفياتي . وقد حدّت امريكا من قبول المهاجرين إليها لإجبارهم على التوجه إلى اسرائيل ، وما كان هذا الاتفاق ليحصل لولا التحولات العميقة التي عاشها ما كان يسمى بالمعسكر الاشتراكي ، وقد أضرت كثيرا بالقضية الفلسطينية . وقد ضغطت امريكا على اثيوبيا لتهجير اليهود الفلاشا وهو ما تم على دفعات نقل خلالها عشرات الآلاف منهم لى اسرائيل التي تؤمل توطين مآت الالاف من اليهود السوفيات خلال 1991 .

وإن الضغوط التي تمارسها امريكا لتسهيل عملية الهجرة تدل على تواطؤ يتناقض مع الادعاء بانها تسعى الى حلّ القضية الفلسطينية واقرار السلام في المنطقة . فرغم القرارات الأممية العديدة ، مازالت امريكا تعارض قيام الدولة الفلسطينية ولا تعترف الان للفلسطينيين الا بحق واحد هو " حق البقاء" .فالمواقف الامريكية من القضية الفلسطينية تبدو بعد حرب الخليج قد تطورت أكثر نحو مزيد الاقتراب من موقف اسرائيل ، وهي ترفض أي ضغط عليها ، كل هذا يجعل الخطاب الامريكي عن السلم في الشرق الاوسط لا معنى له

الا الاستسلام للشروط الاسرائيلية . فمواقفهم كلها دعم لتصلب الاسرائيليين الحالمين باسرائيل الكبرى وتشجيع لهم على مزيد قمع الانتفاضة وعلى تهجير الفلسطينيين حتى ان تظاهروا بادانة التهجير لان من شجع بكل قوة على الهجرة الى اسرائيل لا يمكن ان لا يشجع على تهجير الفلسطينيين فتكاثر اليهود في اسرائيل بالهجرة لا يكون الا على حساب الفلسطينيين . وان جميع المؤشرات تدل على تكثف الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفياتي ، مما سيزيد القضية تعقيدا والحلّ استعصاء . ولقد هيأت الدعاية الغربية سياسيا وإعلاميا لهذا الوضع المتردي بالتهجم على منظمة التحرير ومحاولة التشكيك فيها لضرب مصداقيتها وتقديمها كطرف خاسر لأنها ساندت العراق ، فالغرب لا يريد أن يفهم أن موقف المنظمة هو موقف الجماهير الفلسطينية التي ترى في جميع المؤشرات الدولية مصدر قلق ويأس من قرب يوم الخلاص من الكابوس الاستعماري الصهيوني ، الذي حوّل الأراضي الفلسطينية المحتلة إلى أضخم محتشد في العالم .

ولذلك كان ربط صدام حسين القضية الفلسطينية بسائر قضايا المنطقة لحلها جميعا بصفة جملية باعث أمل جديد بالنسبة إليهم . وقد عبّر أحد القادة الفلسطينيين عن ذلك حين اعتبر أن صدام حسين " رفع راية تمرد الأمة العربية ضد محاولات تقييد قوتها وحمل خاصة للشعب الفلسطيني بشرى وهي أن كفاحه يمكن ان يستند منذ الآن إلى توازن جديد للقوى ".

بيد أن حرب الخليج قد استغلها الغرب لطمس

الانتفاضة وتشويه القضية الفلسطينية لقتل روح التعاطف معها في الغرب واستغلتها اسرائيل لقمع الانتفاضة ففرضت على الفلسطينيين حظرا لا إنسانيا خلال أربعين يوما أنهكهم وأضرّ بهم فادح الضرر . هذا فضلا عما أصبح يتهدد مآت الالاف من الفلسطينيين في الخليج حيث لم يعودوا يشعرون بالأمن او الاستقرار .

فاذا تواصل تهجير اليهود السوفيات بنفس النسق الى فلسطين فان ما بعد حرب الخليج قد يشهد تهجيرا جديدا للفلسطينيين في ظروف عربية ودولية اسوأ وأشدّ عليهم من ظروف نكبة 1948 أو هزيمة 1967 فتدمير العراق قد أخلّ بالتوازن لصالح اسرائيل وأضعف موقف العرب جميعا دون استثناء ، وخلق وضعا لا يمكن ان يزيد اسرائيل الا تشدّدا وتصلّبا لأنها لم تعد تخشى بعد العراق أي قوة عربية أخرى . ولذلك فالمعطيات الموضوعية تؤكد أن حلّ القضية الفلسطينية بصفة عادلة أصبح أعسر من ذي قبل وقويت حظوظ الحلول الانهزامية والاستسلامية حسب التصور الاسرائيلي الأمريكي . وبذلك تكون حرب الخليج قد حطمت الأوهام التي بنيت على أساس تطبيق القانون الدولي في الشرق الاوسط بعد تطبيقه في الكويت ، كما حطمت الآمال التي بنيت على الربط بين جميع قضايا الجهة بحلها جميعا حلا شاملا .

هل حلّت حرب الخليج القضية الكردية ؟

يمثل الاكراد حوالي عشرين مليون نسمة موزعين بين تركيا وايران والعراق وسوريا والاتحاد السوفياتي وتشير معاهدة سافر سنة 1920 التي تقتطع في أعقاب الحرب العالمية الاولى من الامبراطورية العثمانية دولة كردية يمكن ان تضم اليها منطقة الموصل . لكن بعد ثورة مصطفى كمال اتاتورك ، قبرت معاهدة سافر الثانية سنة 1923 الدولة الكردية وألحقت الموصل بالعراق سنة 1925 . ولذلك تكررت ثورات الأكراد الذين قاومهم الانكليز واستعملوا ضدهم السلاح الكيمياوي .

وقد عمدت الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي فيما بعد الى استعمال الاكراد لخدمة أغراضهما في المنطقة . ففي بداية السبعينات طلب شاه ايران من أصدقائه الامريكيين مساعدة الاكراد لمضايقة العراق فتولوا تسليحهم . ويعلل كيسنجر في مذكراته هذه العملية التي قدرت بعشرة ملايين دولار آنذاك بأنها " تردع العراق عن الإقدام على المغامرات العالمية ". والمقصود بذلك طبعا هو تلهية العراق حتى ينشغل بالاكراد عن اسرائيل في حرب 1973 . ولذلك اضطر العراق الى التخلي لفائدة ايران عن مطالبه في شط العرب سنة 1975 مقابل توقف الدعم للاكراد . وإلى هذا يشير صدام حسين في حديثه مع سفيرة امريكا كما رأينا .

وعندما عاد الاكراد بتشجيع ايراني الى مضايقة

السلطة العراقية في أعقاب حربها مع ايران قمعتهم بشدة بالغاز وبالتحويل .
اما في تركيا حيث توجد أرفع نسبة منهم ، ما انفك حزب عمال كردستان يخوض حرب عصابات منذ 1984 دفعت بتركيا الى اعلان حالة الطوارئ في الأناضول الشرقية سنة 1990 . لكن السلط التركية قاومته خاصة بانشاء ميليشيات كردية من القبائل الموالية لها . وقد سقط من جراء حرب العصابات آلاف الضحايا . وقد كانت السلطات التركية تحرّم على الاكراد استعمال لغتهم . ولم تتراجع في هذا الإجراء الا في المدة الاخيرة .
وقد وجدت السلطات التركية نفسها في تناقض ، فهي تشجع الأكراد في العراق على الثورة ولكنها تحرمهم من حقوقهم في تركيا . أما في ايران فان الحزب الديمقراطي لكردستان يوجد خاصة في الجبال.
وبصفة عامة يوجد لدى الاكراد تردد بين المطالبة بدولة موحدة او الاستقلال الذاتي في إطار الدول القائمة .
ولعل هذا التشتت القائم على علاقات قبلية وانعدام استراتيجيا موحدة وضعف القيادات السياسية الكردية هو الذي سهل تلاعب الأطراف الخاصة . فكثيرا ما استعملوا ثم خذلوا ، والغريب أنهم لم يتعضوا بذلك وواصلوا منح الأطراف الخارجية فرص استعمالهم وخذلانهم من جديد كما حدث في أمة الخليج . فقد اتصلت الادارة الامريكية بقادتهم منذ بداية الأزمة وتحوّل الى واشنطن كل من جلال الطلباني ومسعود البرزاني الذين يقيمان بدمشق و

وطلبت امريكا منهما تنشيط المقاومة ضد صدام حسين . وقد تحول برزاني الى اسرائيل التي شجعته على الثورة ضد العراق .

وما ان توقف القتال بين العراق والتحالف حتى تمرد الأكراد من جديد داخل العراق معززين بالقادمين من سوريا وايران وتركيا . وقد كان العراق يتوقع ذلك واعتبر تمرّد الاكراد في الشمال والشيعة الموالين لايران في الجنوب أخطر من هجوم الحلفاء عليه ولذلك قبل جميع الشروط الامريكية لايقاف القتال رغم ما فيها من أجحاف وتنكيل حتى يحافظ على ما نبقى له من قوة لمجابهة التمرّد الداخلي . وتمكن العراق من السيطرة على التمرّد ففر عدد كبير من الاكراد الى البلدان المجاورة . ولقد اغتنم الغرب ذلك لشنّ حملة على العراق وإظهاره في مظهر القامع للاكراد كما لو لم تكن البلدان الغربية تقمع باستمرار الحركات الانفصالية فيها كما تفعل بريطانيا مع الايرلنديين واسبانيا مع الباسك وفرنسا مع الكورس وغيرهم . وعندما أعلن العراق عفوه عن المتمردين وطلب من الهاربين العودة الى ديارهم آمنين وفهم كثير من الأكراد أنهم كانوا ضحية استغلال أطراف أجنبية أخذوا يعودون أفواجا . ويؤكد شهود عيان أن كثيرا من الاكراد قتلهم أكراد آخرون لمنعهم من العودة أو لأسباب سياسية وقبلية شتى أو لأنهم رفضوا التحول عن ولائهم للسلطة العراقية .

كما أن المتمردين الأكراد استغلوا الظرف لتقتيل كثير من العرب العراقيين في المنطقة وقد تم الكشف في السليمانية عن مقبرة جماعية تضم

المآت منهم وهذا ما دفع ببعض الأكراد المتمردين إلى الانقلاب على من غرر بهم ومقاومتهم بعنف شديد للتكفير عن ذنبهم في أعين السلطة العراقية .

وقد انخدع الرأي العام مرة اخرى بأكاذيب الدعاية الغربية التي ركزت على محنة الأكراد ومعاناتهم لمزيد تشويه العراق في حين أن الغرب هو سبب هذه المحنة الجديدة .

وقد تبين ان الغاية ليست الرغبة في إقامة الدولة الكردية التي تعارضها تركيا بصفة خاصة وتساندها في ذلك امريكا بحكم التحالف وترابط المصالح وانما الغاية تلهية الرأي العام عن القضية الفلسطينية وعن معاناة الشعب العراقي نتيجة التدمير الشامل الذي لحق منشآته ونتيجة الحصار المضروب عليه الى الآن ، والذي استغلت امريكا قضية الاكراد للتلهية عن تواصله المدمّر رغم صبغته الوحشية واللاإنسانية .

فمعاناة الشعب الكردي ليست الا جزءا من معاناة كافة الشعب العراقي بجميع فئاته . ولعل وضع الاكراد الان افضل من بقية الشعب العراقي بعد مده بالمعونة الغذائية التي مازال العراقيون محرومين منها .

لكن اوروبا كانت متحمسة أكثر لإقامة الدولة الكردية لتعويض عجزها عن اتخاذ موقف سياسي موحد ذي وزن وتأثير على مجرى الأمور طيلة أزمة الخليج . فاغتنمت الفرصة لتنشط أكثر مع القضية الكردية .

ولقد فهم قادة الاكراد ذلك آخر الأمر فقبلوا العرض العراقي بالتفاوض من أجل الحكم الذاتي

وإن الدروس التي أخذها الطرفان من مآسي الماضي القريب ستعجل بالوصول الى حلّ عادل للقضية في المستوى العراقي ، يجعل أكراد العراق في وضع أفضل من أغلبية الأكراد المتواجدين في الأقطار المجاورة .
هذا الحلّ ليس إلا عودة الى الحق وهو الاتفاق العراقي الكردي المبرم سنة 1970 والذي ينص على الحكم الذاتي في كردستان طبقا للدستور العراقي الصادر سنة 1958 .

مخلفات الحرب في العراق

ان وضع العراق اليوم يمثل قضية من أخطر القضايا الناجمة عن الحرب والتي مازال الرأي العام العالمي يجهل عنها الكثير نتيجة التعتيم الإعلامي المتعمد . فوسائل الإعلام الغربية لا تفسح المجال لتقارير المبعوثين الأمميين الى العراق الذين يؤكدون أن خطورة الأوضاع فيه تتجاوز كل تصوّر .
فالبنية الاساسية العراقية العسكرية والصناعية والعلمية تم تحطيم الجزء الأعظم منها عمدا بشكل فظيع لا مبرر له إطلاقا . وقد أكد شهود عيان أن المواطن العراقي لا يستطيع أن يفهم لماذا كل هذا الدمار وهذا الحقد والتكالب على تحطيم بلد بأكمله وشعب بأكمله . فلا أحد يستطيع اليوم تقديم رقم صحيح عن عدد الضحايا في العراق ولكن الثابت أنهم عشرات الآلاف ، تصل بهم بعض التقديرات الى ربع مليون ضحية تمّت إبادتهم عمدا بدون موجب .
فجلّ العسكريين كانوا في حالة انسحاب من الكويت

والاغلبية مدنيون تحميهم نظريا الاتفاقيات الدولية الخاصة بالحرب .
ومع ذلك فان انتهاء المعارك لم يضع حدًّا للدمار، فالمحاصيل الزراعية لموسم هذه السنة مهددة بسبب تعطل نظام الري وانعدام الأسمدة والادوية وعدم توفر البنزين وقطع الغيار للآلات الفلاحية .
كما أن تواصل الحصار المضروب على العراق لتجويع شعبه قد انجر عنه تناقص الأغذية بشكل خطير وانعدام الأدوية ووسائل تشغيل التجهيزات الصحية . وهكذا ارتفعت مخاطر استفحال الأمراض وانتشار الأوبئة وخاصة مع قرب فصل الصيف وارتفاع درجات الحرارة . ولا سيما أن المياه المستعملة لم تعد تعالج وانما تصب في النهر ثم يستعملها المواطنون اضطرارا ، وإن تلوثها من أخطر مصادر الأمراض .
وتؤكد تقارير البعثات الأممية على خطر تعرض سكان العراق الى كارثة جماعية وخاصة الأطفال الذين تردت أحوالهم الصحية بشكل مهول يهدد قرابة مائتي الف منهم في القريب العاجل بالموت اذا لم يرفع الحصار ولم تبادر المجموعة الدولية بانقاذهم .
وقد اعتبر كثير من الملاحظين مثل وزير العدل الامريكي الأسبق رمسيس كلارك أن هذا الوضع المفروض على العراق جريمة حرب وجريمة في حق الانسانية يجب ان يحاكم عليها أصحابها وهم بعض القادة الغربيين .
والقادة الغربيون واعون بذلك جيّدا ويعملون على التعتيم عن ذلك إعلاميا بتلهية الرأي العام بقضية

الاكراد وبمهزلة " مساعي السلام في الشرق الأوسط حيث تتقاسم امريكا واسرائيل في هذه الملهاة دور " العاقل والسفيه ".

وفي نفس الوقت توفر الادارة الامريكية لنفسها الوقت للتفكير في مستقبل العراق . فقد راهنت أول الأمر على المعارضة العراقية بمساعدتها على قلب نظام صدام حسين . ولكن تبيّن لها افتقارها الى القوة الكافية لذلك . فهذه المعارضة منقسمة الى أربع فئات ، هم الاكراد الذين تحدثنا عنهم سابقا ، الشيعة الموالون لايران والتيار القومي العربي والتيار الشيوعي .

ويبدو أن أمريكا تلتقي مع السعودية في تصوّر النظام المقبل للعراق وهو نظام من الأفضل في نظرهم ان يكون عسكريا سنيا قويا أي شبيها بنظام صدام حسين ولكن بدونه . ولذلك سعوا في اتجاه العسكريين لإقناعهم بالمبادرة بقلب صدام حسين بأنفسهم حتى لا يصيبهم ما سيصيبه إذا افتك الشيعة السلطة منهم نهائيا .

لكن هذه المساعي قد فشلت الى حدّ الآن . فقد أظهرت القيادة العراقية تماسكا وقدرة رغم الدمار على محاصرة التمرد الشيعي في الجنوب والكردي في الشمال عسكريا ثم سياسيا مع الاكراد .

وبعد أن كانت الادارة الامريكية تنادي بمحاكمة صدام حسين كمجرم حرب ، يبدو أنها تخلت عن الفكرة بعد أن تبين لها ان السلبيات تفوق أيجابيات هذه العملية من جميع النواحي خاصة أن جرائم الحرب التي اقترفها التحالف ضد الشعب العراقي تفوق بكثير جرائم صدام حسين في الكويت

فضلا عن الجرائم التي تقترف اليوم في الكويت ضد الفلسطينيين كأنما لم تكف جرائم اسرائيل في حقهم .
وقد حصر الغرب اليوم هدفه في حمل العراقيين بضغط الحصار على التخلص من رئيسهم ، فلم يكفّوا عن التهديد بأن الحصار لن يرفع عن الشعب العراقي مادام صدام حسين في الحكم ، هكذا بكل رقاعة وصلف .
وقبل رفع الحصار يقرر الغرب مسبّقا فرض خصم نسبة تتراوح بين الثلث والنصف من صادراته النفطية المحتملة بدعوى جبر الأضرار الناجمة عن حرب الخليج ، لمن ؟ ومن يقدرها ؟ كل ذلك ثانوي مادامت امريكا قد فرضت على العراق وصاية اقتصادية وسياسية جعلته في حالة أسوأ من حالة الاحتلال لأن الوصاية مصحوبة بحصار اقتصادي لا يعني غير التجويع والإبادة لشعب بأكمله .

سلبيات أزمة الخليج

ان سلبيات أزمة الخليج بالنسبة الى الأمة العربية وبلدان الجنوب وحتى بالنسبة إلى العالم وموازين قواه وقيمه الانسانية ، لا تكاد تعد . فتدمير العراق إضعاف للقوة العربية لا يمكن ان يستفيد منه اي قطر عربي على الاطلاق ، لأن من الفوائد الظرفية ما يكون وبالا على الأمد الأطول . وقد تزعزعت المواقع العربية وارتج " البيت العربي " ارتجاجا وخيم العواقب على مستقبل الأمة لأن مواقع العدو الصهيوني قد تدعمت عسكريا وحتى سياسيا على

حساب جميع العرب لا الفلسطينيين فحسب .
ولقد أصبح الحضور الأجنبي في الأرض العربية مكشوفا مفضوحا بعد ان كان خفيا وأصبح الآن وقحا بعد ان كان محتشما ، فتعمقت تبعية الأنظمة الخليجية للغرب وانقسم العرب انقساما لم يسبق له مثيل ، ومن الصعب رتق الفتق لغياب الإرادة الحقيقية لدى شق من العرب بعد ان تم زرع بذور الضغينة بين العرب على نطاق واسع .
ورغم تنامي الشعور القومي شعبيا فان خطر تعمق الانطوائية الاقليمية او القطرية يبقى قائما .
وإن بروز قوى أخرى في المنطقة مثل ايران وتركيا بفضل الأزمة لا يمكن ان يكون الا على حساب العرب بحكم المعطيات الحالية .
ولذلك فان اكبر خاسر من الأزمة هم العرب جميعا دون استثناء ، والغريب هو غياب الوعي الشامل بان أكبر إهانة تضاف الى ما وجّه من إهانات الى العرب في الماضي انما هو تواصل الحصار المضروب على الشعب العراقي حتى الآن ، فهو وصمة في جبين العرب قبل ان يكون وصمة في جبين من قرر تواصله مطالبا برأس قائد بلد كما كان يفعل ملوك القرون الوسطى وكما فعل الخميني قبل بوش . فما الفرق ؟
ولا يمكن ان يغفر التاريخ للعرب هذه السابقة الخطيرة فضلا عن السابقة المتمثلة في شنّ القوى الاستعمارية المتحالفة عدوانا على بلد عربي انطلاقا من بلد عربي مجاور برضاه وبرضى بلدان عربية أخرى بل بمشاركتها الفعالة . ان سابقة بمثل هذه الخطورة لا يمكن ان لا تكون لها نتائج خطيرة .

لا شك أن سابقة غزو الكويت خطيرة لكن معالجتها كانت ميسورة . اما معالجتها بسابقات أخطر فهو ما لا يمكن تقدير جميع عواقبه الوخيمة . فترك الحرية دوليا لامريكا لتقرر ما تشاء وتدمّر العراق تدميرا بغطاء أممي يكشف جميع العورات سابقة قد تتكرر على غير العراق وممارسة حصار بهذا الشكل من الوحشية وتواصله بعد انتهاء الحرب سابقة أخطر ، لا تحظى دوليا بالتشهير الكافي لتحريك الضمائر المخدّرة .

هل لأزمة الخليج ايجابيات ؟

هناك من يرى ان لهذه الأزمة مكاسب تاريخية عربيا ولكنها قابلة للاجهاض لغياب القوى القادرة على توظيفها وإثرائها .

من ذلك تعوّد الشارع العربي على التحرك والتعبير بصفة في الغالب منظمة دون عنف أو فوضى أو قمع شديد وخاصة في المغرب العربي .

وقد حصل نتيجة الأزمة وعي أعمق بجوهر الصراع وخلفيات الأزمة وأهمية التحديات .

وقد يكون من نتائج الأزمة شعور أوضح وأعمق لدى النخب العربية بضرورة البحث عن علاقات جديدة بالنموذج الغربي الذي اهتزت صورته نتيجة التناقض الصارخ بين إنسانية القيم ونفاق توظيفها.

كما تدعّم الشعور لدى العرب المعتزين بكرامتهم بضرورة الاعتماد على النفس دون انطواء أو يأس . فشمل في بعض الاقطار الشعب والحكومات والنخب

في الآن نفسه .

هل ثمة نصر أو هزيمة ؟

لقد خسر العراق معركة الكويت بدون ريب لأنه اضطر الى التخلي عنها رسميا وفعليا بعد أن أخطأ في اجتياحها وضمها . ولكن هل يمكن ان نتحدث عن هزيمة العراق أمام أمريكا أو انتصار امريكا وحلفائها على العراق ؟

ان تقييم الأمور من زاوية النصر والهزيمة قد يكون مغالطة . فالفرحة الامريكية لا تختلف عن فرحة الصبي الذي يدوس نملة اذا قارنا الامكانيات الضخمة العسكرية والمالية والتكنولوجية والاعلامية التي وظفت في هذه الحرب ضد بلد صغير نام لا يمكن ان يقارن بالتحالف المعادي الا مغالطة لتبرير انتصار وهمي . فما حدث عدوان لا حرب بالمفهوم التقليدي . فلا مجال للمقارنة بين جندي يلقي بقنابله الحارقة من السماء مستعينا بالأقمار الصناعية وبأحدث اسلحة الدمار على جندي قابع في الأرض لا يراه ولا يطوله .

ان كسب التحالف للمعركة جويا أو بريا لا مجد فيه ولا فخر لذلك فان هزيمة العراق بعد صمود مشرف وصبر ومعاناة يتجاوزان حدوده وبعد محاولات تحطيم أساطير اسرائيل وخرافاتها ، لا يمكن ان تكون مهينة مثل هزيمة العرب في 1967 او هزيمة فرنسا التي كانت تتقاسم العالم مع بريطانيا، أمام المانيا التي سحقتها في تسعة أيام سنة 1940 .

إن عجز الغرب عن حلّ قضايا الشرق الأوسط وخاصة القضية الفلسطينية وعجزه عن احترام الشرعية الدولية وتطبيق قرارات الامم المتحدة التي ادعى انه جاء لتطبيقها في الكويت ، بينما يواصل تجاهله لها في فلسطين سوف يحوّل ما يعتبره نصرا عسكريا على العراق ، هزيمة سياسية له يؤكد صحة موقف صدام حسين من " الغرب الظالم " في نظر العالم الثالث وفي نظر الجماهير العربية .

ان الانتصار العسكري لا معنى له اذا لم يتحوّل الى انتصار سياسي ولذلك فقد فيتنام مثلا مكاسب انتصاره العسكري لأنه لم يتوج سياسيا ولا اقتصاديا . ولا يمكن للادارة الامريكية ان تتحدث عن انتصار في العراق مادامت قد افتعلت هذه الأزمة افتعالا كما رأينا ومادامت قد أغلقت جميع أبواب الحلول السلمية . وقد كانت ممكنة متوفرة ومادامت قد أصرت على العدوان بدعوى تطبيق قانون دولي داسته في الماضي وتواصل دوسه اليوم في نفس المنطقة . وهذه هي الهزيمة السياسية التي منيت به الادارة الامريكية . وقد بدأ المسؤولون فيها يهيؤون الرأي العام لفشلهم في تطبيق القانون الدولي وعجزهم عن فرض الشرعية الدولية على اسرائيل .

ولعل هذا الفشل مرتبط بالضغط الذي أخذ يسلط على الادارة الامريكية من الأوساط الصهيونية بالإعداد لملف فضيحة جديدة او " ايران قايت " ثانية بعد الأولى التي كادت تعصف بريغن . فالثانية ما هي الا امتداد للاولى لانها حدثت في ظل ريغن

ونائبه بوش . ففي الأولى تم بيع ايران أسلحة سراً رغم الحظر وفي الثانية التي هي في الحقيقة أسبق ، طلب من ايران ان لا تفرج عن الرهائن الامريكيين في أيام كارتر وانتظار فوز ريغن وبوش مقابل وعد ببيع الأسلحة . وهو ما اكده بني صدر الرئيس الايراني السابق . إن إدارة تواجه مثل هذه الفضائح التي تغيب فيها الاخلاق السياسية لا يمكن ان تكون لها القوة لتحقيق النصر السياسي .

هذا فضلا عن قيام لجنة تحقيق في ملابسات أزمة الخليج لتحديد المسؤوليات . فاذا ما قامت هذه اللجنة ببحثها بجدّ ونزاهة فانها ستكتشف لا محالة أن الازمة قد تم افتعالها وأن الحرب كان يمكن اجتنابها وأن عدد الضحايا كان يمكن أن يبقى محدودا جداً لان أغلب الضحايا قد قتلوا عمدا بدون أي موجب عسكري على الاطلاق .

هل انتهت حرب الخليج ؟

وبالاضافة الى ما تقدم ، يسود الآن الوهم بان حرب الخليج قد انتهت وإذا اعتبرنا انها لم تكن حربا وإنما كانت عدوانا واعتبرنا جميع المعطيات الحالية في المنطقة أمكن القول دون تردد إن العدوان متواصل على العراق بفرض الوصاية عليه عسكريا واقتصاديا وسياسيا ، وعلى كامل الأمة العربية بالتحكم في مصير أراضيها وخيراتها وتوجيه سياساتها رغم إرادة شعوبها . هذا ما تتحمل الأنظمة العربية الحالية فيه مسؤولية تاريخية

ثقيلة وهذا ما سوف يشتدّ الوعي به أكثر فأكثر في مستقبل لا نراه بعيدا ، بعد أن يفهم العالم حقيقة النظام العالمي الجديد الذي تمثل الهيمنة السياسية ساقه اليمنى ، ويمثّل الارتزاق والابتزاز والاستغلال الاقتصادي ساقه اليسرى . هذا النظام ليس الا الوجه الثاني من عملة النظام الاستعماري القديم . فالاستعمار خرج من الباب ليدخل في شكل الامبريالية من النافذة ، ثم هو اليوم يغير ثوبه وأسمه فيصبح "النظام العالمي الجديد". هذا النظام الجائر يضع أمام العالم وخاصة بلدان الجنوب ، وأمام البلدان العربية بوجه أخص ، بشعوبها ونخبها وحكّامها مسؤوليات نضالية جديدة أثقل وأخطر من مسؤوليات التحرر من الاستعمار المباشر لأن الظروف الدولية اليوم أسوأ ولأن تحديات اليوم وغدا أعمق أثرا وأوسع نطاقا ، فهي تتعلق بالحق في الوجود واقتطاع النصيب الطبيعي من ثمار العمل والحضارة كما تتعلق بواجب الارتقاء بحقوق الانسان من مستوى الحصر والانتقاء الى مستوى الشمول الانساني ، ذلك أن القيم الانسانية إما أن تكون شاملة أو لا تكون .

الفهرس

فهرس المحاور والعناوين